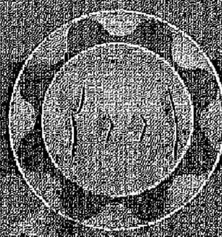
مهرجان القراءة للجميع



مكتبة الأسرة

محاورات أفلاطون

ترجمة: زكى نجيب محمود

أمهات الكتب





إهـــــداء2005

أ/ محمد على يوسف

جمهورية مصر العربية

محـاورات أفلاطـون



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١
مكتبة الأسـرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(أمهات الـكتب)

محـــاورات أفـلاطـــون

ترجمة وتقديم:
د. زكى نجيب محمود

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
المشرف العام :
د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

أفلاطون ؛ وها نحن أولا نستعرض فى هذه المقدمة أهم ما تحويه هذه المحاورات، لعلها تعين القارئ على حسن الفهم وجودة الإساغة والتقدير.

ففى «أوطيفرون»- وهو الحوار الأول - يقدم لنا أفلاطون أستاذه سقراط فى ثوب المعلم الذى يحاول بما أوتى من قوة الجدل أن يوقظ الناس من سباتهم ، فلا يسلمون تسليماً أعمى بما ورثوه من آراء لم توضع على محك البحث والاختيار ، وهو يحاول ما استطاع أن يثير فيهم حب البحث فى معانى الأحكام التى يرسلونها إرسالاً عن إيمان ساذج غزير فى مسائل الأخلاق ؛ فتراه يلتمس مع محدثه تعريفاً للتقوى لكى ينتهى بمحاوره إلى العقيدة بضعف الأساس الخلقى الذى يقيم عليه دعاة تعدد الآلهة مذهبهم ، فهو يرى بعد البحث أن الفعل لا يكون صالحاً إلا إذا صادف قبولاً من الآلهة جميعاً ، ومن ثم ينشأ إشكال آخر وهو يقول : هل يكون الفعل صالحاً لأنه يرضى الآلهة ؛ أم أن الآلهة يرضون عنه لأنه صالح ؟ فإذا صح الفرض الأخير كان تعريف التقوى هو أنها جزء من العدالة - ولكن العدل بصفة عامة يتعلق بما نلتزم به نحو الناس من واجبات ، ولا شأن له فيما بيننا وبين الآلهة من صلة ، وهنا يغوص القارئ فى بحث تحليلى للموضوع : فهل تقتضى خدمتنا للآلهة واجبات خاصة غير ما تقوم به من واجب اجتماعى ؟ . . . ثم يختتم الحوار بنتيجة تبدو سلبية فى ظاهرها ، وهى أن التقوى تنحصر فى فعل ما يرضى الآلهة وهو نفس التعريف الذى قرر المتحاوران رفضه بادئ ذى بدء باعتباره ناقصاً لايفى بالغرض ؛ ولكن

القارئ المدقق لن يخطئ ما انتهى إليه البحث من أن التقوى ليست جزءاً من الأخلاق ، ولكنها مظهرها الدينى فحسب .

أما فى «الدفاع» وهو الحوار الثانى الذى ساق لنا أفلاطون فيه دفاعاً لسنا ندرى أهو نص صحيح لما نطق به سقراط أمام قضاته ، أم أن أفلاطون قد أنشأه إنشاء ليصور به دفاع سقراط ، أو ما كان يجب أن يقوله سقراط فى دفاعه ؛ ففى هذه المحاورة ترى سقراط يبسط لقضاته طبيعة الرسالة التى كلفته الآلهة بأدائها ، فكأنما أرسل ليوقظ الأثينيين من رقادهم واستسلامهم للآراء التقليدية الموروثة وليحملهم على التأمل فى معنى حياتهم والغرض منها ، إذا هم يعيشون فى جهالة يزيد فى ظلامها وخطورتها ما يتوهمونه فى أنفسهم من علم ومعرفة ، لأنهم بسبب هذا الوهم يرون أنفسهم أهلاً لأن يصدروا أحكاماً فى مسائل الأخلاق كلها .

لم يكد يصدق سقراط ما قالت به راعية دلفى من أنه أحكم الناس لأنه يوقن أنه لا يعلم شيئاً ، فانطلق يحاور الناس ويجادلهم ليرى مبلغ ما يعلمون لعله يقيم الدليل على كذب الراعية فيما زعمت له من مكانة ممتازة فى الحكمة ، ولم يختر من الناس إلا من عرفت عنهم المقدرة والكفاءة من أعلام الساسة والجند وغيرهم ، فراعه أن يجدهم جاهلين فيما يدعون العلم به ، بل إن الشعراء أنفسهم الذين ينطقون بالقول الجزل والحكمة الرائعة لم يستطيعوا أن يجيبوا بشىء ذى غناء حين استفسرهم سقراط عما يقولون من شعر ، مما دل سقراط على أنهم ينشدون الشعر عن وحى لا عن معرفة؛

السقراطية فى تدرجها حتى بلغت إلى مرتبة المثالية الأفلاطونية فى تمامها وكمالها .

فهذا حوار يدور بين سقراط وأصدقائه الذين التفوا حوله لينفقوا معه ساعاته الأخيرة ، فدار البحث بين الأستاذ وتلاميذه حول خلود الروح ، ولقد أقام سقراط على ذلك براهين عدة بناها على بقاء الأشياء ومقدرة النفس على إدراك ذلك البقاء ، فما دام العقل فى تفكيره لا يقف عند المظاهر الحسية المتغيرة بل ينفذ إلى قوانينها الخالدة الكامنة وراءها ، فلابد أن تكون طبيعته شبيهة بطبيعة هذه الأشياء ، أى أن له وجوداً لا يخضع للتغير ولا للفناء ؛ والأولى أن يعتبر الموت خلاصاً للعقل من ضعف الجسد الذى كان يحول بينه وبين رؤية حقائق العالم المثالى - أى العالم العقلى - فى وضوح وجلاء ، وهنا قدم له تلاميذه اعتراضاً بأن الروح تعتمد فى أداء عملها على حياة الجسم ، فيرد عليهم اعتراضهم ثم ينتقل بعد ذلك إلى المقارنة بين نظرية المُثُل ، وبين المذاهب الطبيعية التى ذهب إليها أسلافه من الفلاسفة والتى لم تحاول أن تبين أن الخير هو الغاية من الكون ، ثم استطرد فأخذ يبسط النظرية المثالية ، فينتقل من فكرة إلى فكرة أعم منها فأعم ، وهكذا حتى وصل إلى مبدأ شامل سام ، هو مبدأ المعرفة كلها وأصل الوجود ، وأخيراً يختتم سقراط حواره بصورة خيالية للحياة الأخرى بما فيها من ألوان الثواب والعقاب ، معترفاً بأنه لايريد بتلك الصورة أنها الحقيقية الحرفية لما سيكون، ولكنها تدل على اتجاه الحقيقة لا أكثر ولا أقل .

ليس ما فى هذا الحوار من آراء ينتمى إلى سقراط ، فهو أقرب إلى مأساة نثرية سطرها أفلاطون ليصور بها خاتمة سقراط ، ففيها مميزات شخصية سقراط واضحة بارزة ، فترى تحمسه وحريته الفكرية وهدوءه وتجرده عن الهوى فى بحثه عن الحقيقة ، هذا ومن الجائز أن تكون بعض التفصيلات التى وردت فى المحاورة عن موته صحيحة ، غير أننا نلاحظ أن العبارة التى ذكرت فى النهاية على أنها آخر ما نطق به سقراط - أى حين يطلب إلى أقريطون أن يضحى من أجله ديكا إلى اسكليبوس شكراً على شفائه من مرض الحياة الممض الطويل - نقول إن هذه العبارة لا تدل على عقيدة سقراط ، ولكنها سيقت لتشف عن روح الفكاهة التى عرف بها الفيلسوف .

لم يكد سقراط يصغى إلى رواية الرجل فى اتهـام أبيه حتى أيقن أنه لابد عالم أدق العلم بطبيعة الخير والشـر والتقوى والفجور ، وإلا لما اجترأ أن يقدم على هذا الاتهـام الخطير ، وما دام سقـراط نفسـه على وشك أن يتقـدم إلى المحاكـمة مُتَّهمـاً بالفجـور ، فخيـر ما يصنعـه أن يتلقى عن «أوطيـفرون» العلـم بحـقيقـة التقوى والفـجور لعله يفـيد به شيـئاً أثناء محاكمته ، ويكفيه أن يـحتج للقضاة برأى هذا الرجل ، ولن يسمع القضاة إلا التسليم والقبول . . . فما التقوى إذن ؟

ألقى سقراط هذا السؤال فأجابه **أوطيفرون** أن التقوى هى أن يصنع كما صنع هو ، أعنى أن يتهم أباه - إن كان مخطئا - بجريمة القتل ، وهو إن فعل ذلك فإنما يقـتفى أثر الآلهة أنفسهم ، فـذلك ما صنعه «**زيوس**» لـ «**كرونوس**» وما صنعه «**كرونوس**» لـ «**أورانوس**» .

فلم يكد سقراط يسمع هذه القصـة عن الآلهة حتى أعلن مقـته لهذه الأساطير ، واخذ يستوثق من **أوطيفرون** صدقها ، فـيجيب هذا بأنها حق صـريح ، ويبدى اسـتعـداده أن يقص على سقـراط مزيداً منـها ، ولكن سقـراط يرده فى رفق ويعود به إلـى سؤاله الأول عن التقـوى ، ما هى ؛ فأمـا أن يجيبـه بأنها فعل مـا فعله هو من اتهام المرء لأبيـه إن كان أبوه ذا خطيئة ، فـإنه بذلك يسوق مثلاً من أمثلـة التقوى ، إذا لا يمكن أن يكون هذا القول تعريفاً جامعاً لها .

هنا يجيب أوطيفرون بأن «التقوى هى ما هو عزيز لدى الآلهة ، والفجور ما ليس بعزيز لديهم» ، ولكن سقراط لا يطمئن إلى هذا الجواب أفلا يجوز أن يختلف الآلهة فى الرأى كما يختلف الناس سواء بسواء ؟ إن ذلك جائز ولا ريب ، وبخاصة فيما يتعلق بالخير والشر ، إذ لا يقوم الخير والشر على قاعدة ثابتة . ولعل هذا الضرب من أوجه الاختلاف هو الذى يثير الخصومة والقتال ، وإذن فالفعل الذى يكون عزيزاً لدى إله قد لا يكون عزيزاً لدى غيره من الآلهة ، فيكون الفعل الواحد على هذا الحساب تقيا وفاجراً فى وقت واحد ، خذ مثلاً لذلك اتهام أوطيفرون لأبيه ، فقد يصادف هذا الفعل رضى فى نفوس «زيوس» (لأن زيوس أقدم على نفس الفعل نحو أبيه) ولكنه قد يغضب «كرونوس» أو «أورانوس»(لأنهما لقيا من والديهما مثل هذا العقوق) .

هنا يجيب أوطيفرون أن الآلهة والناس اجمعين لا يختلفون فى وجوب عقاب القاتل ، فيوافق سقراط على ذلك ، ولكنه يشترط لهذا الإجماع على إنزال العقوبة بالقاتل أن يَثْبُتَ أنه قاتل حقا ، والا يقوم الاتهام على مجرد الظن ، فهل إذا نظرنا إلى قضية أوطيفرون على أبيه وتقصينا بالنظر كل ما يحيط بها من ظروف ، نستطيع أن نقيم الدليل على أن الوالد قد اقترف جريمة القتل ، حتى نقطع بأن الآلهة مجمعة على عقابه راضية عن فعلة أوطيفرون ؟ ويستطرد سقراط فيقترح تعديلاً فى تعريف التقوى والفجور بحيث تكون صيغته : «إن ما تجمع الآلهة على حبه فهو

تقى ، وما تجمع على كراهيتـه فهو فـاجر» فيوافـقه أوطيـفرون على هذا التعديل .

عندئذ يأخذ سقراط فى تحليل الصيغة الجـديدة ، فيقول إن فى بعض الحالات يسبق الفعلُ الحالةَ ، أعنى مثلاً أن الفعل الذى يتم لك به أن تكون محمولاً أو محبوباً يسبق حالة كونك محمولاً أو محبوباً ، وبناء على ذلك يكون العزيز لدى الآلهة عزيزاً لأنهم أحبوه أولاً ، والعكس غير صحيح ، أى أنهم لم يحبوه لأنه عزيز لديهم ، أما الفعل التـقى فيحبه الآلهة بسبب تقواه وهذا مساوٍ لقولك إنهم يحبونه لأنه عزيز لديهم ، وهنا يبدو لنا شىء من التناقض غـير واضـح ، إذ تبين لنا منذ بـرهة قصيـرة أن الفعل يـسبق الحالـة ، فيكون الشىء مـحبـوباً أولاً وعزيزاً ثانيـاً ، ولكن هذا التعـريف الجديد معناه كما رأينا أن الشىء يكون عـزيزاً لدى الآلهة أولاً ومحبوباً من أجل ذلك . . . وهنا يحس أوطيـفرون أنه قـد تورط فيـما لا قـبل له به ويعترف لسقـراط أن ما قـدمه من أقوال وشروح مـضطرب لا يثبت ولا يستقر ، بل إنه ليحس أن سبيل البرهان قد التوى عليه ، وأن براهينه تفلت من يده وتدور فى دائرة كـمـا تفـعل أشبـاح «ديدالس» التى تُروى عنهـا الأساطير ، ولا عـجب أن يثير سقراط فى أقوال محاوره هذا الاضطراب وهذا الدوران ، إذ هو خلف تحـدر من سلالة «ديدالس» فـيظهر أنه قـد ورث عن جده الأكبر هذا الفن .

ولكن سقراط لا يأبه لهذا الضجر من صاحبه ويلقى السؤال فى صورة أخرى فيقول : «هل كل تقى عادل ؟ » فيجيب أوطيفرون أن نعم ، فيتبع ذلك بسؤال ثان : «وهل كل عادل تقى؟ » فيجيب محاوره بالنفى ، فيلقى سقراط سؤالا ثالثاً : «إذن فأى أجزاء العدل تكون التقوى ؟ » فيجيب أوطيفرون بأن التقوى هى جانب العدل الذى نخدم به الآلهة ، كما أن للعدل جانبا آخر نخدم به الناس ، ولكن ماذا تريد «بخدمة» الآلهة ؟ إننا إذا أطلقنا لفظة «الخدمة» فيما نقدمه من العناية إلى الكلاب والجياد والناس ، إنما نريد أننا ننفع هؤلاء بما نؤديه لهم من «خدمات» فإذا كانت أفعال التقوى عبارة عن «خدمة» للآلهة ، فهل نريد بذلك أننا ننفع الآلهة بخدمتنا إياهم ؟ . . فيوضح أوطيفرون ما أشكل من الأم على سقراط بأنه يريد بشعائر التقوى تلك الأفعال التى نؤديها فى عبادتنا للآلهة ، وماذا تجدى عليهم خدماتنا ؟ فيعتذر أوطيفرون بأن الوقت قصير ، ولا يستطيع أن يجيب على مثل هذه الأسئلة بغير تدبر وتفكير ، ولكنه على كل حال يمكنه أن يقول فى يقين إن التقوى هى أن نعلم كيف نرضى الآلهة بالقول والعمل ، أعنى بالصلاة وتقديم القرابين ، فيفسر له سقراط هذا القول بأن التقوى إذن هى «علم الأخذ والعطاء» ، فنطلب من الآلهة ما نريده ، ونرد إليهم فى مقابله ما يريدون ، أعنى أنها بعبارة موجزة لون من التبادل التجارى بين الآلهة والناس ، ولكنه تبادل مُجْحِف بالآلهة لأنهم يعطوننا كل خير ، أما نحن فماذا نقدمه لهم من الخير فى مقابل عطائهم ؟

فيعترض عليه أوطيفرون بأننا إذا لم نعط الآلهة خيراً ، فحسبنا أننا نتخلق إزاءهم بأخلاق الشرف ، فيقول سقراط جواباً على ذلك : إذن فنحن لا نعطيهم شيئاً ينفعهم ، ولكننا نفعل ما يسرهم ، وما يكون عزيزاً لديهم ، وذلك ما أقمنا البرهان على فساده فيما سبق .

وهكذا لا يبرح سقراط ملحا فى سؤاله رغم ما يحاوله محاوره من المراوغة والهروب ، لأنه لا يشك فى أن أوطيفرون لابد عالم بحقيقة التقوى ، وإلا لما حدثته نفسه قط أن يتهم أباه وهو الشيخ المسن ، فهو إذن يرجو أوطيفرون ويلح فى رجائه ألا يبخل عليه بعلمه الغزير وأن يتفضل بتعليمه حقيقة التقوى ، فيعتذر أوطيفرون أن وقته قصير لايسمح بإطالة الوقوف ، فيخيب أمل سقراط فى أن يعرف من هذا العالِمَ شيئاً قد ينفعه فيما هو مقبل عليه من المحاكمة .

*

لا ريب فى أن أفلاطون قد قصد بهذا الحوار أن يقارن معنى التقوى والفجور كما يفهمهما عامة الناس بمعناهما على حقيقته وكما يجب أن يُفهم ؛ ولكنا نرى سقراط يفند الرأى الشائع عن التقوى والفجور دون أن يعقب على ذلك بتعريف لهما كما يراهما ، فهو يمهد الطريق ليظفر من محدثه بجواب عن سؤاله الذى ألقاه فى أول الحوار ، ثم يرفض أن يدلى آخر بالأمر برأيه فى الموضوع كما هو منهجه فى المحاورة .

ومما ينبغى مـلاحظته أن أوطيـفرون رجل من رجال الدين كـان له ما للسفسطائيين من الغرور الكاذب والاعتداد بالنفس ، فلم يداخله الشك أول الأمـر فى أنه على حق حين تقدم إلى الـقضـاة باتهام أبيـه ، فى حين أنه كغيره من الســفسطائيين يعجز أن يصوغ تعريفـاً جامعاً لما يظن أنه على أتم العلم به ، بل يعـجز عن أن يتابع إقـامة البرهان عـلى سلامة مـا يقول ، ولقد أفلح أفلاطون فى تصـوير شخصيته تصويراً يمثل كـل أفراد طائفته بما عرف عنهم من خطأ الرأى وضيق الفكر والثقة الكاذبة بالنفس .

وإنه لجدير بنا أيضاً أن نشير إلى ما فى هذا الحوار من موازنة رائعة بين العقـيدة الدينية الجامـدة حين تتمسك باللفظ فيـضيق أفقهـا ، وتصدر عن الجهل والغرور ، والعقيدة الدينية الـسامية المستنيرة التى حاول سقراط عبثًا أن يستخرجـها من محاورة . . . «التقوى» هى فـعل ما أنا فاعل» ذلك هو معنى الدين كـما يفهمـه الرجل الساذج الذى لا يتسع صـدره لما قد يكون لدى غيره من الناس ، أو لدى أمم غير أمته ، من صنوف العبادة .

ولقد أراد أفلاطون فى جملة مـا أراد بهذا الحـوار أن يجيب عن هذا السؤال : «لماذا حكم على سقراط بالموت ؟ » فأنطق سقراط بأن استنكاره للأساطيـر الخرافية قـد يكون سبباً أثار عليـه الخصوم ، كمـا أجرى على لسانه سبـباً آخر حين قال : «إن الأثينيين لا يحفـلون بالرجل إذا ظُنَّت فيه الحكمة ، أمـا إذا أخذ يبث فى الناس حكمته فـإنهم عندئذ يتحلون سبـباً

لغضبهم عليه» . ولعل هذه العبارة صادقة فى كل قوم وفى كل
فالناس متسامحون ما دمت تقصر علمك على نفسك ، أما إذا علمته
وكان مخالفاً لما درجوا عليه من علم فإنهم لا يدخرون وسعاً فى الـ
والمعارضة .

*

ويرمى أفلاطون بهذه المحاورة القصيرة إلى أغراض ثلاثة :

(١) فهو أولاً يتناول فكرة التقوى بالدراسة .

(٢) وثانياً يقابل بين الديانة الصحيحة والديانة الزائفة .

(٣) وثالثاً يدافع عن سقراط فى تهمته ، لأنه إذا لم تكن التقوى والفـ
واضحى المعالم والحدود ، فكيف نرمى سقراط بهذا الاتهام ؟

وهذا الحوار مثل قوى لأسلوب أفلاطون ، فترى فيه عمق ا
والمقدرة العظيمة فى تصوير الأشخاص ، كما نلمس فى كل سطوره تهـ
لاذعاً بارعاً .

أوطيفرون

أشخاص الحوار : سقراط أوطيفرون

المنظـــــــــر : دهليز كبيـر القضاة .

أوطيفرون : فيم تَرْكك اللوقـيون (Lyceum)[1] يا سقراط ؟ وماذا تصنع فى دهليز كبير القضاة ؟ يقـيناً إنك لم تجئ مثلى فى شأن قضية أمام القاضى .

سقراط : لست بصدد قضية يا أوطيفرون ! إنما هو اتهام كمـا يسميه الأثينيون .

أوطيفرون : ماذا ؟ أحسب أن أحداً قد رماك باتهام ، لأننى لا أصدق أن تقف أنت من غيرك موقف المتهم .

سقراط : كلا ولا ريب .

---

(١) Lyceum اسم ملعب وحديقـة تخترقـهما المماشى المعـروشة بالقـرب من معـبد «أبولو» فى أثينا ، وفى ذلك المكان كان أرسطو يعلم تلاميذه وهم مشاة إلى جانبه ، ومن هنا سميت مدرسـته الفلسفية بمدرسة المشائين ، ولقـد استخدم هذا الاسم فى كثير من اللغات الحديثة بمعنى معهد .

أوطيفرون : إذن فقد آخذك امرؤ باتهام ؟

سقراط : نعم .

أوطيفرون : ومن هو ذا ؟

سقراط : شاب نكرة يا أوطيفرون ، لا أكاد أعرفه ، اسمه مليت وهو من أهل مدينة بتثيس (Pitthis) ، ولعلك ذاكر صورته : منقار ، وشعر طويل مستقيم ، ولحية شعثاء .

أوطيفرون : كلا ، لست أذكره يا سقراط . ولكن بأية تهمة رماك

سقراط : بأية تهمة ؟ إنه اتهام خطير يدل على أنه ذو خلق عظيم ولا ينبغى بلا ريب ان يزدرى من أجله ، فهو يقول ، إنه يَعْلم كيف يُفْسَد الشباب ، ومن هم المفسدون .

ويخيل إلىّ أنه لابد أن يكون رجلا حكيما ، فلما رآنى نقيض الرجل الحكيم أشار عنى ، وهو معتزم أن يتهمنى بإفساد أصدقائه من الشباب وستكون الدولة - وهى أمنا - حكما فى هذا . إنه الوحيد بين ساسة الذى أراه قد بدأ بدءاً صحيحاً فى غرس الفضيلة فى الشباب . فهو كالزارع القدير ، يعنى بالنبات الصغير أو ما يعنى ، فيباعد بيننا وبينه ، لأننا متلفوه ، وما تلك إلا خطوة أولى إذا ما أتمها توجه بعنايته إلى الغصون المكتهلة ، ولو استمر كما بدأ لأصبح للشعب مصلحاً جد عظيم .

أوطيفرون : أرجو له أن يستطيع ، ولكنى كم أخشى يا سقراط أن يكون العكس هو الصحيح ، فرأيى أنه بمهاجمته إياك إنما يصوب ضربة إلى الدولة فى أساسها . ولكن كيف تفسد الشباب فى زعمته ؟

سقراط : إنه يوجه إلىّ اتهاماً عجيباً يثير الدهشة فور سماعه ؛ فهو يقول إنى شاعر أو مبتدع للآلهة ، فأختلق آلهة جديدة وأنكر وجود الآلهة القديمة ، هذا هو أساس دعواه .

أوطيفرون : أفهم ما تقول يا سقراط ، فهو يريد أن يتهمك بالعلامة المعهودة التى تأتيك من حين إلى حين كما تقول . وسيقدمك إلى المحكمة لأنه يظن أنك ذو بدعة فى الدين ، ولعله يعلم ما أعلمه علم اليقين من أن مثل هذه التهمة سهلة القبول لدى الناس ، فأنا حين أتحدث فى الجماعة عن أشياء مقدسة وأتنبأ لهم بالمستقبل يهزأون منى ويظنون أنى مجنون ، ومع ذلك فكل كلمة مما أقول حق ، ولكنهم يغارون منا جميعاً ، فيجب علينا أن نستبسل ونهاجمهم .

سقراط : ليس ضحكهم يا عزيزى أوطيفرون بذى خطر ، فقد يقال عن رجل إنه حكيم ، ولكن الأثينيين فيما أحسب لا يكلفون أنفسهم عناء بشأنه إلا إذا أخذ يبث فى الناس حكمته ، عندئذ يأخذهم الغضب لسبب ما ، وقد يكون لغيرةٍ فيهم ، كما تقول أنت .

أوطيفرون : لا يتنظر أن أختبر خلقهم على هذا النحو .

سقراط : أظن أنك لن تفعل ، لأنك متحفظ فى سلوكك ، ويندر أن تثبت حكمتك . أما أنا فقد تعودت محسناً أن أفرغ ما بنفسى لكل إنسان . بل إنى لأود أن أؤجر المستمع ، وإنى لأخشى أن يظن الأثينيون أنى كثير الثرثرة ، فلو حدث ، كما سبق لى القول ، أن اكتفوا بسخريتهم منى ، كما زعمت أنهم فعلوا معك ، إذن لأنفقنا الوقت فى المحكمة فى مرح شديد . ولكن قد يأخذهم الجد ، وعندئذ لا يستطيع أن ينبئ بالخاتمة إلا أنتم معشر المنجمين .

أوطيفرون : أظن يا سقراط أن الأمر سينتهى بلا شىء ، وأنك رابح قضيتك كما أظننى كاسباً لقضيتى .

سقراط : وما قضيتك يا أوطيفرون ، أأنت المتهِم أم المتهَم ؟

أوطيفرون : أنا المتهِم .

سقراط : ومن تتهم ؟

أوطيفرون : ستظننى مجنوناً حين أنبئك .

سقراط : لماذا أللهارب أجنحة[1] ؟

أوطيفرون : لا ! إنه ! يمتاز بحضور البديهة فى سنه هذه .

---

(١) يريد هل المتهم حاضر البديهة ماهر فى التخلص .

سقراط : ومن هو ذا ؟

أوطيفرون : إنه أبى .

سقراط : أبوك يا رفيقى العزيز ؟!

أوطيفرون : نعم .

سقراط : وبماذا اتهمته ؟

أوطيفرون : بالقتل يا سقراط .

سقراط : يا للآلهة يا أوطيفرون ! ما أقل ما يعلم غمار الناس عن الحق والصواب ، إنه لابد للإنسان أن يكون ممتازاً وأن يكون قد خطا فى الحكمة خطوات فسيحة ، حتى يستطيع أن يتلمس سبيله إلى مثل هذه الدعوى .

أوطيفرون : حقا يا سقراط ، لابد أن يكون كذلك .

سقراط : أحسب أن الرجل الذى قتله أبوك كان أحد أقربائك ، لا شبهة فى هذا ، لأنه لو كان غريباً لما فكرت قط فى اتهامه .

أوطيفرون : يدهشنى يا سقراط أن أراك تفرق بين القريب والغريب ، إذ لاشك أن جرمك هو هو فى كلتا الحالتين ، إذا أنت ظاهرت القاتل عن عمد ، حيث ينبغى عليك أن تبرئ نفسك وتبرئه بإقامة الدعوى عليه ؛

فالسؤال الصحيح هو هل قتل القتيل عدلاً ؟ فإن كان قد قتل عدلاً ، فواجبك أن تدع الأمر جانباً ، أما إذا كان ظلماً فلابد أن تشكو القاتل ، حتى لو كان يساكنك تحت سقف واحد ، ويطعم معك على مائدة واحدة ، وقتيلنا هذا كان رجلاً فقيراً يعتمد على معونتى ، وكان يشتغل فلاحاً فى حقلنا فى ناكسوس (Naxos) [1] ، وذات يوم أخذته نشوة الخمر فاعترك مع خادم بالمنزل وقتله ، فكبله أبى يداً وقدماً وقذف به فى خندق ، ثم أرسل إلى أثينا ليستفتى كاهناً عما يجب أن يفعل به ، وكان فى ذلك الحين لا يأبه له ولا يعنى به لأنه اعتبره قاتلاً ، وظن أن لن يقع ضرر جسيم حتى ولو أصابه الموت ، وذلك بعينه ما حدث ، فقد أثر فيه البرد والجوع والأغلال التى تكبله تأثيراً أدى إلى موته قبل عودة الرسول من لدن الكاهن ، وأبى وأسرتى غاضبان منى لنيابتى عن القاتل فى اتهام أبى زاعمين أنه لم يقتله ، وأنه حتى لو فعل ذلك فما الميت إلا قاتل ، وما ينبغى لى أن آبه له ، لأن ابناً يتهم أباه فهو فاجر ، ذلك يدل يا سقراط على مبلغ علمهم الضئيل برأى الآلهة فى التقوى والفجور .

سقراط : يالله يا أوطيفرون ! وهل بلغ علمك بالدين وبالتقوى وبالفجور مبلغ الدقة العظيمة بحيث لو سلمنا أن الظروف كانت كما

---

(١) Naxos جزيرة فى بحر إيجة تعرف بخصب تربتها ووفرة محصولها ، وبخاصة فى الكروم وما يستخرج منها من نبيذ ، ولهذا جعلت مركزاً لعبادة إله الخمر «باكوس Bacchus » .

تروى ، فلا تخشى أنك أنت كذلك قد ترتكب شيئاً من الفجور فى إقامة الدعوى على أبيك ؟

أوطيفرون : إن أفضل ما فى أوطيفرون ، وهو ما يميزه يا سقراط من سائر الناس ، هو دقة علمه بمثل هذه المسائل جميعاً ، وهل ترانى أصلح لشىء لو سلبتنى ذلك العلم ؟

سقراط : أيها الصديق النادر ! أحسب أن خير ما أصنعه أن أكون تلميذاً لك ، وإذن فسأتحدى مليتس قبل أن تحين المحاكمة معه ، وسأقول له : إننى ما فتئت عظيم الشغف بالمسائل الدينية فما دام يتهمنى بطيش الخيال والإبداع فى الدين ، فقد أصبحت تلميذاً لك . إنك يا مليتس - هكذا سأسوق إليه القول - تعترف بأن أوطيفرون لاهوتى عظيم ، وبأنه سديد الرأى ، فإذا اعترفت به وجب أن تعترف بى ، وألا تدعونى للمحكمة ، أما إذا أنكرته فقد وجب عليك أن تبدأ باتهامه لأنه معلمى ، ولأنه سيكون فساداً ، لا للشبان ، بل للشيوخ ، أعنى فساداً لى لأنه يعلمنى ، وفساداً لأبيه إذ ينذره ويعاقبه . فإذا أبى مليتس أن يصغى إلى ، ومضى فى سبيله دون أن ينقل الدعوى منى إليك ، فخير ما أصنعه أن أكرر هذا التحدى فى المحكمة .

أوطيفرون : نعم ولا ريب يا سقراط ؛ فإذا ما حاول أن يتهمنى ، فأنا

المخطئ إن لم أجد له مغمزاً فتوجه إليه المحكمة من القول أكثر جداً مما توجه إلى .

سقراط : ولما كنت يا صديقى العزيز أعلم عنك هذا ، فأنا راغب فى أن أكون تلميذاً لك ، إذ يلوح لى أنك لست ملحوظاً من أحد ، فلم يلحظك حتى مليتس هذا ، ولكن عينيه الحادتين قد استكشفتانى على الفور فاتهمنى بالفجور ، وعلى ذلك فأنا أتوسل إليك أن تنبئنى حقيقة التقوى والفجور التى قلت إنك تعلمها جيد العلم ، كما تنبئنى بطبيعة القتل وسائر ضروب الاعتداء على الآلهة ، ما هى ؟ أليست التقوى فى كل فعل هى هى دائماً ؟ وكذلك الفجور ، أليس دائماً نقيض التقوى ؟ ثم أليس هو هو دائماً ، فله تعريف واحد يشمل كل ما هو فاجر !

أوطيفرون : كن على يقين من ذلك يا سقراط .

سقراط : وما التقوى وما الفجور ؟

أوطيفرون : التقوى هى أن تفعل كما أنا فاعل ، أعنى أن تقيم الدعوى على كل من يقترف جريمة القتل أو الزندقة أو ما إلى ذلك من الجرائم ، سواء أكان أباك أم أمك أم كائناً من كان ، فذلك لا يبدل من الأمر شيئاً ، وأما الفجور فهو ألا تقيم على هؤلاء الدعوى ؛ وأرجو أن ترى يا سقراط الدليل الساطع الذى أقيمه لك على صدق ما أقول ، وهو

دليل سقته بالفعل إلى سائر الناس ، برهاناً على مبدأ أن الفاجر لا ينبغى أن ينجو من العقاب كائناً من يكون . ألا ترى إلى الناس كيف يعدون «زيوس» أفضل الآلهة وأقدمهم مع اعترافهم بأنه كبل سلفة «كرونوس Cronos » لأنه مزق أبناءه تمزيقاً مروعاً ، بل إنهم ليقرون أنه أنزل العقاب بأبيه نفسه «أورانوس Uranus » لسبب شبيه بهذا عقاباً يفوق الوصف ، ثم يغضبون منى إذا أنا أقمت الدعوى على أبى ، وهكذا ترى الناس يتناقضون فى موقفهم إزاء الآلهة وإزائى .

سقراط : ألا يجوز يا أوطيفرون أن أكون قد رميت بالفجور لأنى أمقت هذه الأقاصيص التى تروى عن الآلهة ، وإذن فأحسب أن الناس قد أخطأوا فهمى ، ولكن ما دمت أنت تسلم بها وأنت الخبيرَ بها ، فخير ما أصنعه هو أن أستسلم لحكمتك العليا . ماذا أقول غير هذا ، وأنا معترف بأنى لا أعلم عنها شيئاً ؟ نشدتك حب «زيوس» إلا أنبأتنى هل تعتقد حقا فى صدقها ؟

أوطيفرون : نعم يا سقراط ، بل وهنالك من الأشياء ما هو أشد عجباً والناس عنها غافلون .

سقراط : وهل تعتقد حقاً أن الآلهة كان يحارب بعضها بعضاً وأن قد نشبت بينها معارك ومواقع حامية ، كما يقول الشعراء ، وما تستطيع أن تراه مبسوطاً فى تآليف الأعلام من رجال الفن ؟ إن المعابد ملأى بها ،

وإنك لترى بخاصة ثوب Athene - الذى يقدم إلى الأكروبوليس عند Panathenaea[1] العظيمة موشّى بها . أكل هذه القصص عن الآلهة حق يا أوطيفرون ؟

أوطيفرون : نعم يا سقراط ، وأعود فأقول إننى أستطيع أن أنبئك بأشياء كثيرة أخرى عن الآلهة تثير منك أبلغ الدهشة إذا أنت أصغيت إليها .

سقراط : أود هذا ، ولكن أحب أن تنبئنيها فى ساعة أخرى من فراغى ، أما الآن فأوثر أن أسمع منك جواباً دقيقاً لم تعطنيه حتى الآن يا صديقى عن سؤالى : ما التقوى ؟ إذ أنك لم تجب حين سألتك إلا بقولك ، إنها فعل ما أنت فاعل ، أى اتهام أبيك بالقتل .

أوطيفرون :وما قلته لك يا سقراطحق .

سقراط : لست أشك فى ذلك يا أوطيفرون، ولكنى أحسبك مسلماً بأن هنالك فى التقوى أفعالا كثيرة أخرى .

أوطيفرون : نعم هنالك .

سقراط : تذكر أنى لم أطلب إليك أن تضرب لى للتقوى مثلين أو

---

(١) Fanathenaea أقدم الأعياد الأثينية وأهمها وقد كان فى بادئ الأمر احتفالا دينيا يقام إجلالا للإلهة «أثينا» حامية مدينة أثينا . فلما وحد ثيسيوس The eus البلاد كلها تحت حكومة واحدة جعل الاحتفال بإلهة مدينة أثينا عيداً عاماً للدولة كلها ، وغير الاسم القديم «أثينى» فجعله «بان أثينى» .

يلاحظ أن المقطع الأول "Pan" معناه وحدة أو جامعة .

ثلاثة ، بل أن تشرح الفكرة العامة التى من أجلها تكون الأشياء النقية كلها نقية . ألا تذكـر أن ثمت فكرة واحدة من أجلها كان الفاجر فـاجراً والتقى تقياً ؟

أوطيفرون : أذكر ذلك .

سقراط : أنبئنى ما حقيقـة هذه الفكرة ، حتى يكون لدى معيار أنظر إليه ، وأقيس به الأفعال ، سواء فى ذلك أفعالك أم أفعال سواك ، وحينئذ أستطيع أن أقول إن هذا العمل المعين تقى وإن ذلك فاجر .

أوطيفرون : سأنبئك إن أردت .

سقراط : لشد ما أريد .

أوطيفرون : إذن فالتقوى هى ما هو عـزيز لدى الآلهة ، والفجور هو ما ليس بعزيز لديهم .

سقـراط : جد جـميل يا أوطيـفرون ، لقد أدليـت لى الآن بالجواب الذى أردتِ ، ولكنى لا أستطيع حتى الآن أن أقرر إن كان ما تقوله حقاً أم لا ، ولو أننى لا أشك فى أنك ستقيم الدليل على صدق عبارتك .

أوطيفرون : بالطبع .

سقـراط : إذن فتـعال مـعى نختـبر ما نقـول ، إن هذا الشىء أو هذا الشخص عزيز لدى الآلهة فهو تقى ، وذلك الشىء أو ذاك الشخص ممقوت

من الآلهة فهو فاجر . فكأن التقوى والفجور طرفان يناقض كل واحد منهما الآخر ، ألم نقل هذا !

أوطيفرون : نعم .

سقراط : ألم تحسن التعبير عنه ؟

أوطيفرون : نعم يا سقراط ، إنى أعتقد ذلك ، لقد قلنا ذلك من غير شك .

سقراط : وماذا يحدث لو اختلف الآلهة فى الرأى ، هذا فضلا عما سلمنا به يا أوطيفرون من ان الآلهة ما يعاودونه وما يمقتونه ، ومن أن بينهم شيئاً من أوجه الخلاف .

أوطيفرون : نعم لقد قلنا ذلك أيضاً .

سقراط : وأى ضرب من الخلاف يولد العداوة والغضب ؟ افرض مثلا يا صديقى العزيز أنك اختلفت وإياى على عدد ، هل هذا النوع من الخلاف يعادى بيننا ويفرق أحدنا عن الآخر ؟ ألسنا نلجأ من فورنا إلى الحساب وننفض ما بيننا من خلاف بعملية حسابية ؟

أوطيفرون : هذا حق .

سقراط : أو هبنا اختلفنا على أطوال ، ألسنا نسارع إلى القياس لنفض الخلاف ؟

أوطيفرون : جد صحيح .

سقراط : كما نمحو ما بيننا من تضاد حول الثقيل والخفيف بأن نلجأ إلى آلة وازنة ؟

أوطيفرون : لا ريب فى هذا .

سقراط : ولكن أى أنواع الخلاف لا يمكن تسويتها على هذا النحو ، وأيها إذن يثير فينا الغضب ويقفنا موقف العداوة أحدنا من الآخر ؟ أظن أن الجواب لا يحضرك الآن ، وعلى ذلك فأنا أبسط رأيى بأن هذه العداوة إنما تنشأ حينما يكون موضوع الخلاف هو العادل والظالم ، والخيِّر والشرير ، والشريف والوضيع ، أليست هذه نقط الخلاف بين الناس والتى نشتجر بسببها ، إذ نشتجر أنا وأنت وكلنا جميعاً ، حينما نعجز عن تسوية أوجه الخلاف تسوية مرضية ؟

أوطيفرون : نعم يا سقراط، إن أوجه الخلاف التى نشتجر حولها هى فى حقيقتها كما تصف .

سقراط : أى أوطيفرون النبيل ! أو ليس التشاجر بين الآلهة حيثما وقع هو شىء كهذا فى طبيعته ؟

أوطيفرون : لاشك أنه كذلك .

سقراط :إن بينهم خلافاً فى الرأى كما تقول عن الخيِّر والشرير والعادل والجائر والشريف والوضيع ، فلو لم يكن بينهم هذا الخلاف لما كان بينهم اشتجار ، أليس كذلك ؟

أوطيفرون : إنك جد مصيب .

سقراط : ألا ترى أن كل إنسان يحب ما يراه نبيلا وعادلا وخيّراً ، ويمقت نقيض هؤلاء ؟

أوطيفرون : جد صحيح .

سقراط : ولكن الناس كما تقول يرون أشياء بعينها ، فيعدها بعضهم عادلة ، ويعدها بعضهم جائرة ، وهم يتنازعون حولها ، فتنشأ لهذا بينهم الحروب والمعارك .

أوطيفرون : جد صحيح .

سقراط : إذن فأشياء بعينها يكرهها الآلهة ويحبها الآلهة وهى ممقوتة منهم وعزيز لديهم فى وقت معا ؟

أوطيفرون : صحيح .

سقراط : وعلى هذا الأساس تكون أشياء بعينها يا أوطيفرون تقية وفاجرة معا ؟

أوطيفرون : أظن ذلك .

سقراط : إذن فيدهشنى يا صديقى العزيز أن أراك لا تجيب السؤال الذى سألتكه ، فلا ريب أنى لم أطلب إليك أن تذكر لى الفعل الذى يكون تقيا وفاجراً معا ، ولكن ها قد بدا لى أن الآلهة يحبون ما

يكرهون ، وعلى ذلك يا أوطيفرون فقد يرجح أن تكون فى عقابك لأبيك فاعلا ما يرضى «زيوس» ، وما يغضب «كرونوس» أو «أورانوس» وما يقبله «همفيستوس Hephaestus »[1] وما يرفضه «هرى here » ، وقد يكون هنالك من الآلهة الآخرين من يكون بينهم خلاف فى الرأى شبيه بهذا .

أوطيفرون : ولكنى أعتقد يا سقراط أن الآلهة جميعاً سيتفقون على وجوب عقاب القاتل ، فلن يكون ثمة من خلاف فى الرأى حول هذا .

سقراط : حسنا ، فلنتحدث عن البشر يا أوطيفرون . فهل سمعت قط أحداً يقيم الحجة على أنه ينبغى أن يطلق سراح القاتل أو فاعل الشر أيا كان ؟

أوطيفرون : إنى لأقرر أن هذه هى المشاكل التى لا ينفك الناس يجادلون فيها ، ولاسيما فى ساحات القانون . إنهم يقترفون كل ضروب الجرائم ، ثم لا يحجمون عن قول أو فعل دفاعاً عن أنفسهم .

سقراط : ولكن هل يعترفون بجرمهم يا أوطيفرون ، ثم يزعمون ألا ينبغى أن ينزل بهم عقاب ؟

أوطيفرون : لا ، إنهم لا يفعلون .

سقراط : إذن فهنالك من الأشياء مالا يستطيعون لها قولا ولا فعلا ،

---

(١) Hephaestus هو إله النار فى الأساطير اليونانية .

لأنهم لا يجرؤون أن يقيموا الدليل على وجوب إفلات المذنبين من العقاب بل يعمدون إلى إنكار جرمهم . أليس كذلك ؟

أوطيفرون : نعم .

سقراط : إذن فهم لا يزعمون أن فاعل الشر لا يجوز أن يعاقب ولكنهم يجادلون فى من هو فاعل الشر ، وماذا فعل ومتى !

أوطيفرون : صحيح .

سقراط : وهذا نفسه هو موقف الآلهة إن كانوا كما تقول أنت يختلفون فى العادل والجائر . وإن كان بعضهم يثبت أن الظلم قد يحدث بينهم بينا ينكر ذلك آخرون . فلا ريب فى أن الله والإنسان كليهما لا يجرؤان قط أن يقولا إن مرتكب الظلم لا ينبغى أن يعاقب .

أوطيفرون : هذا حق فى أساسه يا سقراط .

سقراط : ولكنهم يختلفون فى التفصيلات ، سواء فى ذلك الآلهة والناس . فإذا كان ثمة بينهم من نزاع فإنما يتنازعون على فعل معين يكون موضوع البحث ، فيقرر بعضهم أنه عادل ويثبت الآخرون أنه جائر . أليس ذلك صحيحاً ؟

أوطيفرون : إنه جد صحيح .

سقراط : إذن فأنبئنى - أى عزيزى **أوطيفرون** - فذلك أقوم لتعليمى

وإرشادي ، أي برهان تقيم على أن بين آراء الآلهة كلهم إجماعاً على أن خادماً جريمته القتل فكبله بالإغلال سيد القتيل ، فمات بفعل الأغلال قبل أن يعلم مكبله من رسل الله ماذا ينبغي أن يفعل به ، يكون قد مات ظلما ؟ وأى برهان تقيم على أن ابنا ينبغى أن يقيم على أبيه الدعوى نيابة عن مثل ذلك الخادم ، متهماً إياه بالقتل ؟ كيف تبرهن على أن الآلهة جميعاً تتفق اتفاقا تاما على قبول فعله ؟ أقم لى الدليل على أنهم يفعلون ذلك أمدح لك فعلتك ما حييت .

أوطيفرون : إنه عمل مضن ، ولكنى أستطيع أن أوضح لك الأمر وضوحا تاما .

سقراط : أفهم ما تقول ، فأنت تريد أنى لست سريع الفهم كالقضاة : إذ حتم عليك أن تبرهن لهم على أن الفعل جائر ومكروه من الآلهة .

أوطيفرون : نعم يا سقراط ، لاشك فى هذا ، ولاسيما إن أنصتوا لما أقول .

سقراط : إنهم لابد منصتون إن رأوا أنك متكلم قدير . لقد اختلجت فى نفسى فكرة إذ كنتَ تتحدث ؛ قلت لنفسى ماذا عسى أن أفيد إن أقام لى أوطيفرون الدليل على ان الآلهة جميعاً يعدون موت العبد ظلماً ؟ كيف يزيدنى ذلك علماً عن حقيقة التقوى والفجور ؟ إذ لو سلمنا ان هذا الفعل

قد يكون مكروهاً من الآلهة ، فليس هذا التحديد تعريفا دقيقا للتقوى والفجور ، فلقد رأينا أن ما تكرهه الآلهة هو فى الوقت نفسه سار لهم وعزيز لديهم ، وعلى ذلك فلا أطلب إليك يا أوطيفرون أن تقيم على هذا دليلا ، وسأفرض - إن أردت - أن الآلهة جميعا تنكر مثل هذا الفعل وتمقته ، ولكنى سأعدّل التعريف بحيث يكون أن ما يجمع الآلهة على كرهه فهو فاجر ، وأن ما يحبونه تقى مقدس ، وأن ما يحبه بعضهم ويكرهه بعضهم الآخر فهو تقى وفاجر معا ، أو لا هو هذا ولا ذاك ، فهل توافق على هذا التعريف للتقوى والفجور ؟

أوطيفرون : لم لا أوافق يا سقراط ؟

سقراط : لم لا توافق ! يقينى يا أوطيفرون أن ليس ثمة ما يبرر - فيما أعلم - ألا يكون التعريف هكذا . أما هل يفيدك قبول هذا التعريف فائدة عظيمة فى تعليمى الذى وعدتنى به فذلك أمر موكول لك النظر فيه .

أوطيفرون : نعم ، ينبغى أن أقول إن ما تجمع الآلهة على حبه تقى مقدس ، وإن نقيضه الذى يجمعون على كرهه فاجر .

سقراط : هل يجب علينا أن نبحث فى صحة هذا يا أوطيفرون أم نسلم بالعبارة تسليما ، متخذين من أنفسنا ومن سوانا حجة نعتمد عليها ؟ ماذا ترى ؟

أوطيفرون : يجب أن نبحثها ، وأعتقد أن العبارة ستصمد لتجربة البحث .

سقراط : أى صديقى العزيز ! لن تمضى برهة قصيرة حتى نزداد علما، غير أنى أود أن أعلم قبل كل شيء إذا كان التقى أو المقدس محببا لدى الآلهة لأنه مقدس ، أم أنه مقدس لأنه محبب لديهم .

أوطيفرون : لا أفهم ما تريد يا سقراط .

سقراط : سأحاول الشرح : إننا نفرق فى حديثنا بين أن تَحمِلَ وأن تُحمَلَ ، وبين أن تقود وأن تقاد ، وبين أن تَرى وأن تُرى وإنك لتعلم أن ثمة اختلافا فى هذه الحالات جميعا ، كما تعلم كذلك مواضع هذا الخلاف ؟

أوطيفرون : أحسبنى أفهم ماتقول .

سقراط : ثم أليس المحبوب متميزا من المحب .

أوطيفرون : يقينا .

سقراط : هذا جميل ، إذن فحدثنى أيكون الشيء المحمول فى حالة الحمل لأنه محمول أم لسبب آخر ؟

أوطيفرون : كلا ، بل لهذا السبب .

سقراط : وهل هذا صحيح بالنسبة لما يُقاد وما يُرى ؟

أوطيفرون : حقا .

سقراط : ولا يكون الشىء مرئيا لأن فى الإمكان رؤيته ، بل على العكس هو ممكن الرؤية لأنه مرئى ، كما لا يكون الشىء منقادا لأنه فى حالة الانقياد ، أو محمولا لأنه فى حالة الحمل . بل العكس هو الصحيح . أظن يا أوطيفرون أن ما أقصد أصبح يسير الفهم . وإنما أقصد أن أية حالة من حالات الفعل أو العاطفة تتضمن فعلا أو عاطفة سابقة لها، فالشىء لا يتحول لأنه متحول ولكنه فى حالة التحول لأنه يتحول ، كما أن الشىء لا يتألم لأنه فى حالة الألم ، ولكنه فى حالة الألم لأنه يتألم . ألا توافق ؟

أوطيفرون : نعم .

سقراط : ألا يكون الشىء المحبوب فى حالة ما من حالات التحول أو الألم ؟

أوطيفرون : نعم .

سقراط : وما مر بنا فى الأمثلة السابقة صحيح هنا ، فحالة كون الشىء محبوبا يتبع فِعْلَ كونه محبوبا ، ولكن لا يتبع الفعلُ الحالةَ .

أوطيفرون : يقينا .

سقراط : وماذا تقول عن التقوى يا أوطيفرون ؟ أليست التقوى بناء على تعريفك محبوبة لدى الآلهة جميعاً ؟

أوطيفرون : نعم .

سقراط : ألانها تقية أو مقدسة أم لسبب آخر ؟

أوطيفرون : لا ، بل لهذا السبب .

سقراط : إنها محبوبة لأنها مقدسة وليست مقدسة لأنها محبوبة ؟

أوطيفرون : نعم .

سقراط : وما هو عـزيز لدى الآلهة يكون محـبوبا لديهم ، وهو فى هذه الحالة من حب الآلهة له لأنها محبوب لديهم ؟

أوطيفرون : يقينا .

سقراط : إذن فما هو عزيز لدى الآلـهة ، أى أوطيـفرون ، ليس مقدسـاً ولا ما هو مقدس محـبوب لدى الله ، كما تقـرر أنت ، ولكنهما شيئان مختلفا .

أوطيفرون : ماذا تريد يا سقراط ؟

سـقـراط : أريد أننا قـد سلمنا بأن المـقدس مـحـبـوب لدى الله لأنه مقدس، وليس هو مقدسا لأنه محبوب .

أوطيفرون : نعم .

سقراط : أما ما هو عزيز لدى الآلهة فهو عزيز لأنه محبوب ، وليس محبوبا لأنه عزيز .

أوطيفرون : حقا .

سقراط : ولكن يا صديقى أوطيفرون ، إذا كان ما هو مقدس نَفْسَ ما هو عزيز لدى الله ، وكان محبوبا لأنه مقدس ، لكان ما هو عزيز لدى الله محبـوبا لأنه عزيز لدى الله . أما إذا كان ما هـو عزيز لدى الله عزيزاً لأنه محبـوب لديه ، لكان ما هو مقدس مـقدساً لأنه محـبوب لديه ، ولكنك ترى أن الأمر على عكس ذلك ، وأنهما مختلفان أشد الخلاف أحدهما عن الآخر ، فأولهمـا من نوع يُحَبُّ لأنه محبوب ، وأما الثانى فـمحبوب لأنه من نوع يَحبُّ لأنه محبـوب ، وأما الثانى فمـحبوب لأنه من نوع يَحبُّ ، وهكذا يلوح لى يا أوطيـفرون ، حين أسألك عن جوهـر القداسة ، أنك تجيبنى بالعـرض فقط لا بالجوهر ، أعنى عَرَض كونها مـحبوبة لدى الآلهة جمـيعاً ، ثم أنك لـتأبى مع ذلك أن تشرح لى حـقيقـة القداسـة ، ولهذا أتوسل إليك أن تـتفضـل علىّ ، فلا تخفِ كنزك عـنى ، وأن تنبئنى مـرة أخرى مـا حقـيقة القـداسة أو التـقوى ؟ هل هى عزيـزة لدى الآلهة أم لا (فذلك أمر لن تشتجر فيه) ثم ما الفجور ؟

أوطيـفرون : حقا يا سقـراط لسـت أدرى كيف أعـبر عـما أريد ، إذ يلوح أن براهيننا تدور ثم تفلت منا ، على نحو لا أدريه ، أيا كان الأساس الذى نقيمها عليه .

سقراط : ألا إن ألفاظك يا أوطيفرون لشبيهة بنسج سلفى ديدالوس

"Deadalus"[(١)] ، ولو كنتُ أنا قائلها أو موحيها لجاز لك أن تقول إن براهينى تفر ولا تستقر حيث وضعت لأننى من سلالة ديدالوس ، أما والآراء آراؤك أنت فينبغى أن تلتمس سخرية أخرى ، فآراؤك بغير شك مضطربة كما اعترفت بنفسك .

أوطيفرون : لا يا سقراط ، فما أزال أزعم ، أنك أنت ديدالوس الذى يحدث فى البراهين الاضطراب ، فلست أنا ، ولا ريب ، الذى يقلقها ، ولكنك أنت الذى تضطرها أن تتحرك أو تدور . ولو كان أمرها بيدى وحدى لما أصابها اضطراب قط .

سقراط : إذن فلابد أن أكون أعظم من ديدالوس ، إذ بينا هو لم يستطع أن يحرك إلا ما صنعت يداه ، ترانى أحرك صنائع سواى : ولكن الجميل فى الأمر هو أننى لا أود أن أفعل ذلك ، بل إنى لأستغنى عن حكمة ديدالوس وثروة تانتالوس (Tantalus) [(٢)] إن أتيح لى أن أمسكها

(١) Daedalus تقول الأساطير اليونانية إنه مثال قديم ، وقد نسبت إليه آثار فى العمارة كثيرة ، تروى الأساطير أنه لما غضب عليه أحد الآلهة صنع لنفسه ، ولابنه أجنحة وطارا إلى صقلية . وكان اليونان القدماء ينسبون إليه كل بناء أو تمثال لم يعرف له صانع . والحقيقة أن اسم «ديدالوس» رمز فقط يرمز به إلى مرحلة من مراحل الفن عند اليونان حيث كان الخشب هو المادة الأساسية فى فن النحت .

(٢) Tantalus هو فى الأساطير اليونانية ابن زيوس، فكان يحضر اجتماعات الآلهة ، غير أنه أذاع بين الناس بعض الأسرار الإلهية ، كما يروى عنه أنه قتل ابنه وقدمه طعاماً للآلهة ليختبر ما لهم من قوة الملاحظة . من أجل هذا وغيره من التهم ،

(أى الصنائع) وأقوى دعائمها . ولكن دع هذا فسأحاول بنفسى أن أدلك كيف تعلمنى حقيقة التقوى لأنى أراك كسولا . وأرجو ألا تتذمر من العمل . حدثنى إذن - هل العدل والتقوى شىء واحد أم التقوى جزء من العدل ؟ أليس ما هو تقى عادلا بالضرورة ؟

أوطيفرون : نعم .

سقراط : ثم أليس كل ما هو عادل تقيا ؟ أو ليس ما هو تقى عادلاً كله ، أما ما هو عادل فتقى بعضه فقط لا كله ؟

أوطيفرون : لست أفهمك يا سقراط .

سقراط : ومع ذلك فأنا أعلم أنك أحكم منى بقدر ما أنت أصغر منى ، ولكنى أعود فأقول ، أى صديقى المحترم ، إن غزارة حكمتك ولدت فيك الكسل . أرجو أن تجهد نفسك ، فالحق أن ليس فهم قولى عسيراً ، وأستطيع أن أشرح لك ما أريد بِمثَلٍ مما لا أريد ، فقد أنشد الشاعر «ستاسينوس»[1] (Stasinus) قائلا :

قضى عليه الآلهة أن يقف فى الماء حتى العنق وأن تتدلى فوق رأسه عناقيد الفاكهة ؛ فإذا أراد أن يجرع من الماء الذى حوله أفلت منه الماء ، وإذا أراد أن يطعم من الفاكهة ، التى فوق رأسه بعدت عنه ولم تمكنه من أخذها .

(١) Stasinus شاعر قديم يقال إنه كتب ملحمة فى أحد عشر فصلا ، والمفروض أن ملحمته تلك (واسمها Cypira) كانت أسبق إلياذة هومر .

إنك لن تروى شيئاً عن زيوس ، مبدع

هذه الأشياء كلها وخالقها ، إذ حيث

يكون الخوف يكون التقديس إلى جانبه

أما أنا فلست أوافق هذا الشاعر . أأنبئك فى أى شىء أخالفه ؟

أوطيفرون : نعم .

سقراط : لست أرى أنه حيث يكون الخوف يكون إلى جانبه التقديس ، لأننى على يقين أن كثيراً من الناس يخشى الفقر والمرض وسائر هذه الشرور ، ولكنى لا أراهم يقدسون ما يخشون .

أوطيفرون : جد صحيح .

سقراط : ولكن حيث يكون التقديس يكون الخوف لأن من يحس شعور التقديس والعار من ارتكاب فعل ما ، يخاف ويخشى سوء الأحدوثة .

أوطيفرون : لاشك .

سقراط : إذن فنحن مخطئون فى قولنا إنه حيث يكون الخوف يكون التقديس أيضاً . ويجب أن نقول إنه حيث يكون التقديس يوجد الخوف كذلك . ولكنك لا ترى التقديس دائماً حيث ترى الخوف ، لأن الخوف

فكرة والتقديس جـزء من الخوف ، كما أن الفردى جـزء من العدد والعدد فكرة أوسع من الفردى . أظن أنك تدرك الآن ما أقول ؟

أوطيفرون : أدركه تمام الإدراك .

سقـراط : ذلك هو نوع السؤال الذى أردت أن أثيـره حين سألتك هل العادل تقى دائماً ، أم التقى دائمـاً عادل . وهل من الجائز ألا تكون عدالة حيـث لا تكون التقـوى ، لأن العدالة فكرة أوسع ، وليـست التـقوى إلا جزءاً منها أأنت مخالفى فى هذا ؟

أوطيفرون : لا ، أظن أنك على حق تام .

سقراط : إذن : فإذا كـانت التقوى جـزءاً من العدالة ، فـأحسب أن واجـبنا أن نبـحث أى جـزء هو ؟ إذا أنت تـابعت البـحث فى الأحـوال السالفة، فسألتنى مثـلا ما العدد الزوجى ، وأى جزء من العدد ترى يكون الزوجى ، لما ألفيت عسراً فى الجواب بأنه العـدد الذى يمثل رقماً له جانبان متساويان . ألست توافق ؟

أوطيفرون : نعم إنى موافقك تماماً .

سقراط : وعلى مثل هذا النحو ، أريد أن تنبـئنى أى جزء من العدالة ترى تكون التـقوى أو القـداسة ؛ لكى أسـتطيع أن أطلب إلى مليتس ألا يأخـذنى بالظلم أو يتـهمنى بالفـجور مـادمت الآن قـد تزودت منك بعلم صحيح من طبيعة التقوى أو القداسة ونقيضها !

أوطيفرون : يلوح لى أن التقوى أو القداسة يا سقراط هى ذلك الجزء من العدالة الذى نخدم به الله ، وأما الجزء الآخر من العدالة فنخدم به صالح الناس .

سقراط : هذا حسن يا أوطيفرون ، ولكن لا تزال عندى مسألة يسيرة أريد أن أستزيد بها علماً . ما معنى «الخدمة» ؟ إذ من العسير أن تطلق لفظ الخدمة ، حين تتحدث عن الآلهة ، بنفس المعنى الذى تطلقه به حيث تتحدث عن سائر الأشياء . فيقال مثلاً إن الجياد بحاجة إلى الخدمة ، وليس كل إنسان قادراً أن يخدمها ، إنما يستطيع ذلك الشخص الماهر فى سياسة الجياد دون غيره – أليس كذلك ؟

أوطيفرون : يقيناً .

سقراط : وأنا أظن أن فن سياسة الجياد هو فن خدمتها ؟ .

أوطيفرون : نعم

سقراط : كذلك ليس كل إنسان قادراً على خدمة الكلاب ، إنما الكفء لذلك هو الصائد وحده ؟

أوطيفرون : صحيح .

سقراط : وأرى أيضًا أن فن الصائد هو فن خدمة الكلاب ؟

أوطيفرون : نعم .

سقراط : كما أن فن راعى الأبقار هو فن خدمتها ؟

أوطيفرون : جد صحيح .

سقراط : وهل على هذا النحو نفسه تكون القداسة أو التقوى هى فن خدمة الآلهة ؟ - أذلك ما قصدت إليه يا أوطيفرون ؟

أوطيفرون : نعم .

سقراط : وهلا يُقصد دائماً بالخدمة أن تكون لخير أو لنفع المخدوم ؟ فكما رأيت فى حالة الجياد أنها حين وجهت إليها خدمة السائس ، أفادت وتحسنت ، أليس كذلك ؟

أوطيفرون : صحيح .

سقراط : كما تستفيد الكلاُب من فن الصائد ، والثيران من فن راعيها ، وسائر الأشياء جميعاً تتجه أو تُوَجَّه لخيرها لا لأذاها ؟

أوطيفرون : يقيناً إنها لن تتجه لأذاها .

سقراط : ولكن لخيرها ؟

أوطيفرون : بالطبع .

سقراط : وهل التقوى أو القداسة ، التى عرفناها بأنها فن خدمة الآلهة ، تنفعها أو تقوِّمها ؟ هل تزعم أنك حين تؤدى شعيرة تصلح شأن واحد من الآلهة ؟

أوطيفرون : لا ، لأ . يقيناً لم يكنِ ذلك ما قصدت إليه .

سقراط : وأنا يا أوطيفرون لم أفرض قط أنك قصدت إلى ذلك ، لقد وجهت إليك سؤالى عن طبيعة الخدمة لأننى كنت أظن أنك لم تقصد إلى مثل هذا .

أوطيفرون : لقد أنصفتنى يا سقراط ، ليس هذا هو نوع الخدمة التى أريد .

سقراط : جميل ولكن ينبغى لى أن أعود فأسألك ما تلك الخدمة للآلهة التى تسمىَ بالتقوى ؟

أوطيفرون : إنه يا سقراط ذلك النوع من الخدمة الذى يؤديه الخَدَمَةُ لسادتهم .

سقراط : أَفَهمُ ما تريد . نوع من الخدمةَ للآلهة .

أوطيفرون : هو كذلك .

سقراط :والطب أيضاً ضرب من الخدمة التى يقصد منها الوصول إلى غرض معين – إلى الصحة – أليس كذلك ؟

أوطيفرون : نعم .

سقراط : كذلك هنالك فن يخدم صانع السفن يقصد به الوصول إلى نتيجة معينة .

أوطيفرون : نعم يا سقراط ، يُقصد به بناء السفينة .

سقراط : كما أن هنالك فنا يخدم البناء ، وهو يرمى إلى تشييد الدور .

أوطيفرون : نعم .

سقراط : والآن حدثنى يا صديقى العزيز عن الفن الذى يخدم الآلهة ، أى غرض يعمل ذلك الفن على أدائه ؛ فلا ريب فى أنك بذلك عليم ، إذا كنت بين الأحياء من الرجال أكثرهم علماً بالدين كما تقول .

أوطيفرون : وإنما أقول الحق يا سقراط .

سقراط : حدثنى إذن ، نعم حدثنى ما هو العمل الجميل الذى تؤديه الآلهة يفضل خدماتنا لهم ؟

أوطيفرون : إنهم يعملون يا سقراط أعمالاً كثيرة وجميلة .

سقراط : وكذلك القائد يا صديقى . فإنه يعمل أعمالا كثيرة وجميلة ، ولكن من اليسير أن نذكر أهم أعمال القائد ، ألست ترى أن النصر فى الحرب هو أهم أعماله ؟

أوطيفرون : يقيناً .

سقراط : وكذلك أعمال الزارع كثيرة وجميلة ، إذا لم أكن مخطئاً ، ولكن عمله الرئيسى هو إنتاج الطعام من الأرض .

أوطيفرون : هو كذلك .

سقراط : ومن الأشياء الكثيرة الجميلة التى يؤديها الآلهة ، أيُّها الرئيسىُّ الهام ؟

أوطيفرون : لقد أنبأتك فيما سلف يا سقراط أن الإحاطة بكل هذه الأشياء على وجه الدقة جد مضنية ، ولأقل لك فى بساطة إن التقوى أو القداسة هى أن تعلم كيف تَسُرُّ الآلهة فى القول والعمل بالصلاة والضحايا ، وفى مثل هذه التقوى خلاص الأسرات والدول ، كما أن دمارها وخرابها هما فى العمل الفاجر الذى يغضب الآلهة .

سقراط : أظنك كنت تستطيع أن تجيب فى عبارة أوجز بكثير من هذه - لو أردت - عن السؤال الرئيسىِّ الذى وجهته إليك يا أوطيفرون ، ولكنى أرى فى وضوح أنك لا تريد أن تعلمنى ، فذلك جلى ، وإلا فلماذا درت بالحديث إذ بلغنا بيت القصيد ، فلو أنك أجبتنى إذن لعلمت بحق طبيعة التقوى ، ولما كنت باعتبارى سائلا معتمداً بالضرورة على المجيب فلابد أن أتبعه إلى حيث يقودنى . فلا يسعنى إلا أن أعيد السؤال : ما التقىُّ وما التقوى ؟ أتريد أن تقول إنهما ضرب من علم الصلاة والتضحية ؟

أوطيفرون : نعم إنى أريد ذلك .

سقراط : والتضحية هى قربان للآلهة ، والصلاة طلب منهم .

أوطيفرون : نعم يا سقراط .

سقراط : وعلى هذا الأساس إذن تكون التقوى هى علم الأخذ والعطاء ؟

أوطيفرون : إنك تفهمنى الآن يا سقراط فهماً جيداً .

سقراط : نعم يا صديقى ، وعلة ذالك أننى تلميذ متحمس لعلمك ، فأنا ألقى بالى إليه ، وعلى ذلك فلن يفلت منى شيء مما تقول . تفضل إذن فنبئنى ما طبيعة هذه الخدمة للآلهة ؟ أهى فى رأيك تَقَدُّمُنَا إليهم بالرجاء وتقديمنا لهم العطايا ؟

أوطيفرون : نعم هذا ما أعنى .

سقراط : أليست الوسيلة الصحيحة لرجائهم هى أن نطلب منهم ما نريد .

أوطيفرون : يقيناً .

سقراط : والوسيلة الصحيحة للعطاء هى أن نعطيهم فى المقابل ما يريدونه منا ، فلا خير فى فن يعطى لأى أحد ما لا يريد .

أوطيفرون : جد صحيح يا سقراط .

سقراط : إذن فالتقوى يا أوطيفرون هى فن لدى الآلهة والناس ، يتصلون به فريق بفريق ؟

أوطيفرون : نستطيع أن نستخدم هذا التعبير - إن أردت .

سقراط : ولكنى لست حريصاً على حب شىء غير الحق ، ومع ذلك فأحب أن تدلنى أى نفع تجنيه الآلهة من عطايانا ؟ فليس من شك فى نفع ما يعطوننا إياه ، إذ ليس ثمة من خير لايهبوننا إياه . أما كيف نستطيع نحن أن نعطى لهم خيراً فى مقابل ما أعطونا فأبعد ما يكون عن هذه الدرجة من الوضوح . فإذا كانوا يعطوننا كل شىء ولا نعطيهم شيئاً فتلك مبادلة لنا فيها الصفقة من دونهم .

أوطيفرون : وهل يخيل إليك يا سقراط أن الآلهة تجنى من عطايانا نفعا ما ؟

سقراط : فإن كانوا لا يجنون شيئا يا أوطيفرون ، فأى معنى لما تقدم لهم من العطايا ؟

أوطيفرون : ليس ذلك إلا جزية الشرف وهو كما أسلفت لك القول يسرُّ الآلهة .

سقراط : التقوى إذن تسر الآلهة ، ولكنها ليست بنافعة لهم أو عزيزة لديهم ؟

أوطيفرون : إنى أرى أنه ليس ثمة ما هو أعز لدى الآلهة منها .

سقراط : وإذن فأنت تعيد القول مرة أخرى بأن التقوى عزيزة لدى الآلهة ؟

أوطيفرون : يقينا .

سقراط : أو تعجب وأنت تقول هذا إذ ترى عبارتك لا تَثْبُت بل تعمد إلى الهروب ؟ أتتهمنى بأنى «ديدالوس» الذى يؤدى بها إلى الهروب ، ولا تدرك أن ثمة فناناً آخر أعظم جداً فى فنه من ديدالوس ؟ فهو يجعلها تدور فى دائرة ، وذلك الفنان هو أنت . لأن البحث كما ترى يدور إلى حيث بدأ . ألم نقل إن المقدس أو التقى ليس هو بنفسه ما تحبه الآلهة ؟ أنسيت ؟

أوطيفرون : أذكر جيداً .

سقراط : ثم ألا تقول الآن أن ما تحبه الآلهة مقدس ؛ ثم أليس ذلك نفسه ما هو عزيز لديهم ؟ هل ترى ؟

أوطيفرون : صحيح .

سقراط : إذاً قد أخطأنا فيما قررناه سالفاً ؛ وإلا فإن كنا قد أصبنا فنحن مخطئون الآن .

أوطيفرون : أحد الإثنين صحيح بغير شك .

سقراط : فإذن فلنبدأ من جديد ونتساءل : ما التقوى ؟ ذلك بحث لن أملّ قط من متابعته ما استطعت إلى ذلك سبيلا . وأتوسل إليك ألا تهزأ منى بل أن تشحذ ذهنك وتنبئنى بالحقيقة لأنه إن كان بين الناس من يعلم فهو أنت ؛ وعلى ذلك فلابد أن أحتجزك مثل «بروتيوس

«Proteus»[1] حتى تخبرني ؛ فلست أشك أنك لو لم تكن تعلم علم اليقين طبيعة التقوى والفجور لما اتهمت قط أباك الشيَّخ نيابة عن العبد بتهمة القتل . إنك لو لم تكن تعلم ذلك لما استهدفت لمثل هذا الخطر ؛ أعنى ارتكاب الخطأ على مرأى من الآلهة ولاحترمت آراء الناس احتراماً عظيما . لذلك فأنا على يقين أنك عليم بطبيعة التقوى والفجور . أَبْدِ علمك إذن يا صديقى أوطيفرون ولا تُخفه .

أوطيفرون : فى وقت آخر يا سقراط ، لأننى عجلان ولأبد أن أذهب الآن .

سقراط : وا أسفاه يا رفيقى . وهل تُخَلِّفُنى فى يأس ؟ لقد كنت أؤمل أنك ستعلمنى طبيعة التقوى والفجور ؛ وعندئذ أستطيع أن أبرئ نفسى من مليتس ومن دعواه . كنت سأقول له : إننى استنرت بأوطيفرون ونبذت بدَعى وتأملاتى الطائشة التى انغمست فيها بسبب الجهل ؛ وإننى أوشك الآن أن أحيا حياة أفضل .

---

(١) "Proteus" تروى الأساطير اليونانية أنه رجل كهل كان يعيش فى البحر ، وقد اشتهر بقدرته على التنبؤ . ويقول «هومر» إنه كان يعيش فى جزيرة «فاروس -Pha ros » بالقرب من مصب النيل .كان اليونان يعتقدون أنه يعلم كل أحداث الماضى وكل ما يقع فى الحاضر وما تخبئه الأيام فى المستقبل ، غير أنه لم يكن يرضى أن يبوح بشىء مما يعرف . فإذا أراد أحد أن يستفسره شيئاً ، داهمه فى منتصف النهار فى كهفه الذى كان يقضى به عادة ساعة القيلولة ، ثم ربطه وأوثق قيوده حتى لا يفلت منه قبل أن يصرح له بما جاء يستفسر عنه .

مقدمة «الدفاع»

لسنا نستطيع أن نقطع برأى فى مقدار صحة هذا الدفاع صحة تاريخية، فلا ندرى أأراد أفلاطون أن يسجل فيه أقوال سقراط فى دفاعه عن نفسه أمام قضاته ؛ أم أراد أن يكتب ما كان يجب أن يقوله سقراط فى ذلك الدفاع ، أعنى بعبارة أخرى أنه أراد أن يدافع عن سقراط أمام الأجيال المقبلة ؟ ولكن أرجح الظن أن يكون أفلاطون قد صور سقراط ، وعنى بإخراج الصورة كاملة من حيث الفن ، دون أن يلتزم النقل الحرفى لما قاله سقراط ، والحق أنه استطاع أن يصور سقراط فى دقة بالغة وجمال رائع ، حتى ليحس القارئ شخصية سقراط فى كل جزء من أجزاء الحوار ، فهذا التحدى للقضاة سقراطى بغير شك ، وهذا الأسلوب المفكك هو أسلوب سقراط الذى كان يستخدمه فى نقاشه مع الآثينيين فى الطرقات والأسواق، وهذه السخرية المرة وذلك الجأش الرابط والخلق القوى المتين والاستخفاف بالموت ، كلها نواح سقراطية وفق أفلاطون فى إخراجها وتصويرها أكمل ما يكون توفيق الفنان البارع . ولقد تعمد أفلاطون أن يسرد كثيراً من الحقائق التاريخية فى حياة سقراط . وأجراها فى الحديث مجرى المصادفة كأنها جاءت عفواً وبغير تدبير سابق ليسجل على صفحة الدهر تاريخ أستاذه إلى جانب صورة شخصيته .

ومع ذلك فقد يكون سقراط تحدث فعلا بما رواه أفلاطون فى هذا «الدفاع» بل قد يكون استخدم كثيراً من العبارات التى أوردها أفلاطون بنصها ، ولكنها رغم ذلك ينبغى أن نذكر أن أفلاطون قد أعمل فيها قلمه وفنه قبل كل شىء ، لأنه لم يكن مؤرخاً حرفياً للحقائق ، فلم يرد قط أن يكون حوار «الدفاع» سجلا يردد فيه عبارة سقراط بنصها ، ولكنها إنشاء محض وتأليف خالص شأنها فى ذلك شأن كل محاوراته ، ولكننا نعود فنقول إن ذلك لايمنع أن تكون بعضَ عبارات سقراط قد رسخت فى ذهن أفلاطون - وقد كان أفلاطون يشهد المحاكمة - فرددها دون قصد منه ، ومن يدرى ؟ فلعلّ دفاع سقراط عن نفسه كان أمتن وأروع من هذا الدفاع الأفلاطونى ، وإذن فنحن نريد بذلك أن نخلص إلى نتيجة ، وهى أن محاورة «الدفاع» تصوير صادق لشخصية سقراط ، ولكنا لا نستطيع أن نقطع فى الرأى بأن هذه العبارة أو تلك قد نطق بها سقراط كما هى ، أو أن هذه الحادثة أو تلك قد وقعت فعلا بغير تحوير أو تحريف .

وينقسم «الدفاع» إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الاتهام وإنكار التهمة .

الثانى : خطاب قصير يطلب فيه تخفيف العقوبة . .

الثالث : عتاب وتقريع .

ويبدأ الجزء الأول بطلب المعذرة من القضاة عن أسلوبه العامى الذى

لا زخرف فيه ولا طلاء ، إذ كان دائما عدوا للبلاغة ولا يعرف بلاغة غير الحق ، وإذن فلن يستر شخصيته بشيء من الزيف والخداع بما ينمق من عبارة الخطاب . . . ثم يبدأ الدفاع فيقسم متهميه طائفتين : أولاهما متهم لا اسم له – أعنى الرأى العام ، فقد سمع الناس جميعاً خلال السنوات الأخيرة أنه يفسد الشباب بتعاليمه ، كما شهدوا كيف مثله أرستوفان فى رواية «السحاب» تمثيلا شائناً . وأما الطائفة الثانية من المتهمين فرجال نابهون أرادوا باتهامهم إياه أن يعبروا عما يختلج فى صدور سائر الناس . . . وأما التهم التى وجهها الفريقان فيمكن تلخيصها فيما يلى :

يقول الفريق الأول : إن سقراط فاعل للشر ، وهو رجل طَلعةٌ يبحث فيما تحت الأرض وما فوق السماء ، ويلبس الباطل ثوب الحق ، ثم هو يعلم هذا كله للناس» . وأما الفريق الثانى فيقول : «إن سقراط فاعل للشر ويفسد الشباب ، وهو لا يعترف بالآلهة التى اعترفت بها الدولة ، ويستبدل بها معبودات جديدة» ويظهر أن هذه العبارة الأخيرة كانت نص الدعوة التى توجه بها المتهمون إلى القضاة .

ويبدأ سقراط فى الإجابة عن هذه التهم بتوضيح بعض الجوانب الغامضة ، فقد فرض الشعراء الهازلون وظن غمار الشعب أنه يذهب فى الرأى مذهب الفلاسفة الطبيعيين والسفسطائيين ولكن ذلك خطأ كله ؛ فهو مع احترامه لكلتا الطائفتين احتراماً أعلنه صراحة أمام المحكمة (مع أنه فى سائر المحاورات يسخر منهما) إلا أنه ليس واحداً من هؤلاء ولا أولئك ؛

فهو من ناحية لا يدرى شيئاً عن الفلسفة الطبيعية ، لا احتقاراً لأبحاثها ، ولكن الواقع أنه يجهلها فبدهى أنه لم يقل كلمة فيها ، ومن ناحية أخرى لم يكن من السفسطائيين لأنه لم يؤجر على تعليمه ، وذلك لأنه فى الحقيقة لم يعلم شيئاً حتى يعلمه ؛ وهنا يمتدح أحد السفسطائيين (إفينوس Evenus) لأنه يُعلِّم الفضيلة بأجر معقول فلا يتقاضى أكثر من خمسة دراهم ؛ وفى ذلك ترى سخرية سقراط التى لم ينسها حتى وهو فى موقف المحاكمة وأمام جمع غفير من السوقة .

ويستطرد سقراط فى شرح السبب الذى دعا الناس أن يقذفوه بهذه التهمة المرذولة ، فيقول إن علة ذلك هى رسالته التى أخذ على نفسه أن يؤديها على أكمل وجوه الأداء . فلقد ذهب «شريفون» إلى دلفى وسأل الراعية إن كان بين الناس من هو أحكم من سقراط فكان جوابها أن ليس فيهم من ترجح حكمته على حكمة هذا الرجل ، فليت شعرى ماذا تريد الراعية بقولها : كيف تعلن الراعية أن الرجل الذى لا يدرى شيئاً والذى يدرى تمام الدراية أنه لا يدرى شيئاً هو أحكم الناس ؟ فكر سقراط فيما يمكن أن يعنيه جواب الراعية فصمم أن يقيم البرهان على خطئه بأن يلتمس فى الناس من هو أحكم منه فيبطل بذلك قول الراعية بطلاناً حاسماً ، فقصد أول ما قصد إلى السياسة ثم إلى الشعراء ثم إلى أرباب الصناعة ، ولكن لشد ما أدهشه أن يجد هؤلاء جميعاً لا يعلمون شيئاً ، أو لا يكادون يعلمون شيئاً أكثر مما يعلم هو ، فإن امتازو بعلمهم أحياناً أذهب الغرور

حسنة امتيازهم . إنه لا يعلم شيئاً ولكنه يعلم عن نفسه ذلك الجهل ، أما هم فإن علموا فلا يعلمون إلا أقل العلم وأضاله ، ومع ذلك يتوهمون أنهم أحاطوا بعلمهم كل شيء . لهذا كان حقيقاً بسقراط أن ينفق حياته كلها يؤدى رسالته ، وهى أن يكشف عن حقيقة ما يزعم الناس لأنفسهم من حكمة وهذه المحاولة قد استنفدت كل ما وسعه من جهد حتى اضطر اضطراراً ألا ينغمس فى أمور الدولة العامة بل أن يهمل شؤون حياته الخاصة نفسها ولقد حلا لأثرياء الشبان أن يقلدوه ، فأخذوا يزجون فراغهم الطويل فى امتحان أدعياء الحكمة واختبارهم ، مما كان يدعو إلى العجب حقا ، فنشأت من أجل ذلك عداوة مرة فى نفوس العلماء لسقراط إذ صور لهم أنه يحرض هؤلاء الشبان ويدفعهم إلى ما يصنعون دفعاً ، فأرادوا أن يثأروا لأنفسهم فأطلقوا عليه هذا الاسم الخبيث ، أعنى مفسد الشباب ، ثم زادوا فى النكاية فأخذوا يوهمون الناس أنه القائل بالآراء الطبيعية القديمة ، وأنه مادى ملحد وأنه سفسطائى المذهب ، وذلك لعمرى هو الاتهام بعينه الذى ما يفتأ الناس فى كل عهد يرمون به الفلاسفة لكى يسيئوا إليهم عند عامة الناس .

أما التهمة الثانية ، فيبدأ ردها بأن يلقى سؤالا على «مليتس» «إذا كنت أنا المفسد فمن ذا يصلح أبناء الوطن؟ » فيرد «مليتس» بأن كل الناس مصلحون ، ولكن أى قول أكثر تناقضاً من هذه العبارة ، فهل يعقل عاقل أن يسىء «سقراط» إلى أبناء الوطن مع أنه يعيش بين ظهرانيهم ؟ اللهم إنه

إذا أساء فإساءة غير مقصودة ولا متعمدة ، وإن كانت كذلك فما كان أحرى «مليتس» أن يرشده إلى طريق الهدى بدل أن يسارع فيقدمه إلى المحاكمة .

ولكن متهميه لم يقتصروا على اتهامه بإفساد الشباب ، بل زعموا أنه يحث الناس على أن يكفروا بآلهة المدينة وأن يعبدوا آلهة جديدة ابتدعها هو ابتداعاً ، بل إنهم ليذهبون إلى أنه أنكر الآلهة إنكاراً تاماً ، وحتى الشمس والقمر ظن فيهما أنهما من صخور وتراب ، فيعجب لذلك سقراط ويبين لقضاته أن ذلك خلط واضح بين آرائه وبين ما كان يقوله «أنا كسجوراس» من قبله ، فلا يمكن أن يكون الشعب الآثيني من الجهالة بحيث تجوز عليه هذه المغالطة فينسب إلى سقراط ما قاله سواه .

ثم يختم سقراط استجوابه لمليتس ، ويوجه عنايته إلى التهمة الأساسية . فقد يسأل سائل : لماذا يصر سقراط على أداء رسالته إذا كانت تلك الرسالة تؤدى به إلى الموت ؟ فيجيب سقراط بأن ذلك واجب حتم عليه ، فما ينبغى أن يتخلى عن مكانه الذى اختاره له الله ، كما لم يُجِزْ لنفسه أثناء الحروب أن يزول عن موقفه الذى اختاره له القواد ، هذا فضلاً عن أنه لم يبلغ من الحكمة مبلغاً يمكنه من العلم إن كان الموت خيراً أم شرا ، فى حين أن تركه لواجبه شر محقق ، فكيف يقدم على شر لاشك فيه خلاصاً من الموت الذى لا يدرى إن كان خيراً أم شرا . كلا ! إن ذلك لا يجوز ، فلن ينثنى عن أداء واجبه ، وسيؤثر لنفسه طاعة الله على طاعة

الإنسان . وسيظل يعلم الناس جميعاً فى مختلف أسنانهم وجوب الفضيلة وضرورة الإصلاح ، فإن أعرضوا عنه وأبوا أن يعيروه آذاناً مصغية فسيعمد إلى تأنيبهم ولومهم . ذلك هو إفساده للشباب الذى لن يتردد فى فعله صدوعاً بأمر الله ، وإن تهدده فى هذا السبيل ألف موت لا موت واحد .

إن سقراط حين يرغب إلى المحكمة أن تنجيه من عقوبة الموت لا يفعل ذلك من أجل نفسه ولكن من أجل قومه ، لأنه صديقهم الذى قيضته السماء لإصلاحهم ، ومن يدرى ؟ لعلهم إن أماتوه لا يوفقون إلى خلف له يقوم لهم بما كان يقوم به ، وهنا قد يعترض معترض قائلاً إن كان سقراط بحق يسعى إلى صالح قومه فلماذا لم يحاول قط أن يساهم فى الشؤون العامة بنصيب ؟ فيجيب سقراط بأنه إن فعل ذلك وحارب من أجل الحق لما قدر له أن يمتد أجله فيفعل ما فعل من خير . هذا إلى أنه قد خاطر فعلا بحياته مرتين بأن اشترك فى شؤون الدولة من أجل العدالة : الأولى فى محاكمة القواد ، والثانية فى مقاومة استبداد حكومة الطغاة الثلاثين .

ولكنه إن لم يقم بقسط وافر من شؤون الدولة فقد أنفق أيامه فى تعليم مواطنيه تعليما لم يؤجر عليه . . . تلك كانت رسالته فسواء انقلب تلاميذه أخياراً أم أشراراً فليس من العدل فى شىء أن يُتّهم بجريرتهم ، لأنه لم يَعِدْهم قط بأن يُعَلِّمهم شيئاً فكان لهم أن يقبلوا عليه إن شاءوا وأن ينفضوا من حوله إن أرادوا ، ولكنهم شاءوا لأنفسهم أن يلتفوا حوله لأنهم

أحسوا لذة عظيمة فى الاستماع إلى أدعياء الحكمة يمتحنون فيفتضح أمرهم . فلو كان سقراط قد أفسد هؤلاء الشبان لقضى الواجب على ذويهم من الشيوخ - إن لم يكن واجبهم هم - أن يتقدموا إلى المحكمة بالشهادة ضده ، وهنا يقول سقراط فى شىء من التحدى إن الفرصة لا تزال سانحة لكائن من كان منهم أن يتقدم إلى القضاة بشهادته ، ولكن العجب أن آباء أولئك الشبان وأقرباءهم جاءوا إلى المحكمة ليبرئوا ساحة سقراط من تهمة الإفساد . وإذن فهؤلاء جميعاً ألسنة ناطقة بأن سقراط إنما يقول الحق ، وإذن مليتس مفتر كذاب .

ذلك كل ما أراد أن يقوله سقراط تقريباً ، وهو بعد هذا الخطاب يأبى أن يسترحم القضاة ليخلوا سبيله ، كما يرفض قطعاً أن يأتى بأطفاله باكين معولين ليؤثروا فى قلوب القضاة ببكائهم فتلك كانت عادة الآثينيين إذا حكم على أحدهم بل أن سقراط ليزعم أن القضاة أنفسهم لم يكونوا يتعففون عن مثل هذا فى ظرف كظرفة ذاك ، ولكنه كان يقرر أنه على ثقة بأن القضاة لن يحنقوا أنْ لم يلجأ سقراط إلى ما تواضع الأثينيون أن يلجأوا إليه فراراً من العقاب ، لأنه على يقين أن ذلك السلوك مجلبة للعار لأثينا بأسرها ويضيف سقراط إلى هذا أن القضاة قد أقسموا ألا يتهاونوا فى تطبيق العدالة ، فكيف إذن يبيح لنفسه أن يسترحمهم لكى يحملهم على الحنث فى أيمانهم ، إنه لو فعل لعُدَّ ذلك فجوراً منه فى الوقت الذى يقف متهماً بالفجور .

وصدر الحكم بإدانته كما توقع ، فترى سقراط بعد هذه الإدانة لا يرق ولا يضعف ولا يلين ، بل إنه على النقيض ليسموا وتأخذه نزعة قوية من الكبرياء . . . إن «أنيتَس» قد اقترح أن تنزل بالجانى عقوبة الإعدام ، فماذا يقترح سقراط من جانبه ؟ (إذ كانت هذه عادة الآثينيين فى محاكمتهم) ؛ يجيب سقراط بأنه قد كان محسناً للشعب الآثينى ، فأنفق حياته كلها فى تقديم الخير له ، ولذا فهو يرى نفسه جديرا على الأقل بمثل ما يُجزى به الظافرون فى الألعاب الأولمبية ، أعنى أن يعيش على حساب الدولة ، فليس من الحكمة أن يقترح لنفسه عقوبة أخرى ، لأنه لا يدرى إن كان الموت الذى اقترحه «أنيتس» خيراً أم شرا ، وماذا عساه يقترح ؟ أيقترح السجن أو النفى ، وكلاهما شر محقق ؟ نعم قد لا تكون خسارة المال شرا ، ولو كان يملك من المال شيئاً لاقترح أن يُقضى عليه بغرامة مالية ، وهنا يتعهد أصدقاؤه أن يدفعوا له الغرم إن قضى به . . .

يصدر الحكم بالإعدام

يقول سقراط لقضاته بعد أن أجروا فيه حكم الإعدام ، إنه قد اكتهل ، وإن الأثينيين لن يفيدوا شيئاً حين يسلبوه السنوات القلائل الباقية له من حياته ، ولكنهم سيجلبون على أنفسهم العار بقتله ؛ وقد كان يستطيع أن يلجأ إلى الفرار من أثينا ، ولكن فيم الفرار وهو لا يرجو إطالة الحياة ؟ بل إنه ليؤثر أن يموت كما يشتهى ، فذلك خير من أن يعيش كما يريد له الناس أن يعيش ، نعم إنه قضى عليه بالموت ، ولكن هذا القضاء بغير شك دنّس قضاته بخطيئة الزيغ والفجور ، وإنهم فى ذلك لأفدح منه مصابا ، لأنّ الفجور أسرع لحاقا بصاحبه من الموت ، فإن كان هو سيلقى عقوبته بعد حين ، فقد لقى متهموه عقابهم بالفعل .

أما وهو الآن على وشك الموت ، فإنه يتنبأ لهم بنبؤة ، إنهم يحكمون عليه بالموت ليتخلصوا ممن ينغص عليهم العيش ، ولكن موته سيكون نواة تنتج عددا وفيراً من الأتباع الذين قد يكونون فى محاسبتهم أشد منه عنفاً وقسوة ، لأنهم أصغر منه سنا ، وأكثر جرأة .

وما دامت أمامه فسحة من الوقت ، فإنه يود أن يقول كلمة قصيرة لهؤلاء الذين حاولوا أن يبرئوه ، فهو ينبئهم أن شارته الإلهية لم تعترضه قط فى دفاعه ، ولعل معنى ذلك أن الموت الذى يقبل عليه خير لا شر فيه ، وذلك لأن الموت إما أن يكون نوما طويلاً ، وبذلك يكون أحلى من

ضروب النعـاس ، وإما أن يكون سيـاحة إلى العالم الآخـر حيث تحتـشد أرواح الموتى فى صعيـد واحد وعندئذ تسنح له الفرصة الجـميلة بأن يلتقى بفحول الأبطال الذين تولوا قبله ، ومما يحـبب فى تلك الحياة أنها خالدة ، فلن يكون ثمة موت يجزع منه الناس فيكتمون آراءهم فى نفوسهم .

إنه يستحيل أن يصيب الرجل الطيب شر لا فى حياته ولا بعد مماته ، ولقد رضيت الآلهة لسقراط أن يرحل ، فهو إذن يعفو عن قضاته لأنهم لم يؤذوه بقضائهـم فيه ، بل هم على عكس ذلك ساقـوه إلى الخير وإن يكن خيرا لم يقصدوا إليه قط .

ويعقب سقـراط على هذا القول بطلب أخـير: فهـو يرجو الناس أن يرهقوا أبناءه من بعـده، كما أرهقـهم هو (أى أرهق الناس)، وذلك إن بدا منهم أنهم يؤثـرون المال على الفـضيـلة، أو ظنوا فى أنفـسـهم العلم وهـم جاهلون .

دفاع سقراط

لست أدرى أيها الأثينيون كيف أثر متـهمىَّ فى نفوسكم ، أما أنا فقد أسست لكلماتهم الخلابة أثرا قويا أنسيت معه نفسى ، وأنهم لم يقولوا من الحق شـيئـاً ، ولشد مـا دهشت إذ ساقـوا فى غمـر باطلهم نذيرا لكم أن تكونوا على حذر ، فلا تخدعكم قوة فصاحتى ، إنى إذا نبستُ ببنت شفة نهضت لكم دليلاً على عىّ لسانى وافتضح أمرهم ، وإنهم بذلك عالمون ، ولكنهم يمارون ولا يخجلون ، أم تراهم يطلقون الفصاحة على قوة الحق ؟ إذن لأشهدت أنى مصقع بليغ . . ألا ما أبعد الفرق بينى وبينهم ! فهم كما أنبأتكم لم ينطقـوا كلمة صدق ، أمـا أنا فخذوا الحق منى صـراحا ، ولن أصوغـها عبارة خطابيـة منمقة كـما فعلوا ، لا والله بل سأسـوق الحديث والأدلة إليكم عفو ساعتها ، لأنى على يقين من عدالة قضيتى ، فلن أقف يوماً بينكم أيها الأثينيون موقف الخطيب الصبيانى ما دمت حيا ، فلا يرجُوَنَّ الآن أحد منى خطابا ، ولعـلى أظفر منكم بهذا الفـضل : إذا دافعت عن نفـسى بأسلوبى المعهـود ؛ فجـاءت فى دفـاعى كلمات قلتـها من قـبل ، وسمعها بعضكم فى الطريق أو عند موائد الصيارفة أو فى أى مكان آخر ، فلا تدهشوا ولا تقاطعوا الحـديث ، لأننى أقف - وقد نيفت على السبعين عـاماً - لـلمرة الأولى فى سـاحـة القـانون ، فلم آلف لغـة هذا المكان ، فانظروا إلىَّ نظركم إلى الغريب تُلتمس له المعذرة لو جرى لسانه بلغة قومه

ولهجة وطنه ؛ وما أحسبنى بذلك أطلب شططاً ، فدعكم من عبارتى التى قد تكون حسنة وقد لا تكون ، وانظروا فى صدق العبارة وحده ، وإذا حكم منكم قاض فليحكم بالعدل ، وإذا نطق متكلم فلينطق بالحق .

ولأبدأ أولاً برد التهم القديمة والطائفة الأولى من المدعين[1] ثم أستطرد إلى دعوى الفريق الثانى ؛ فلقد اتهمنى من قبل نفر كثير ، ولبثت دعواهم الباطلة تتردد أعواماً طوالاً ، وإنى لأخشاهم أكثر من هذا الرجل (أنيتس) وعصبته ، وإن كيدهم لعظيم ، ولكن أولئك الذين نهضوا إذ كنتم أطفالاً فملكوا ألبابكم بأباطيلهم لأشد من هؤلاء خطراً ، فهم يحدثونكم عمن يسمى سقراط أنه حكيم يسبح بفكره فى السماء ، ثم يهوى به إلى الغبراء ، وأنه يخلع على الباطل رداء الحق ، أولئك هم من أخشى من الأعداء ، فقد أذاعوا فى الناس هذا الحديث ، وما أسرع ما يظن الدهماء أن هذا الضرب من المفكرين كافر بالآلهة ، كثيرون هم أولئك المدعون ، ودعواهم قديمة العهد ، نشروها حين كنتم فى سن الطفولة أو الشباب ألين انطباعاً ، ولم يكادوا ينطقون بالدعوى حتى انطلقت تحمل عنى فى ذيلها السوء دون أن تجد لها مفندا ؛ وأهول من ذلك كله أن لبثت أسماؤهم مجهولة لا أعلمها لولا ذلك الشاعر الهازل[2] الذى ساقته الظروف ، وإنه لمن العسير أن أتحدث إلى أشخاص هؤلاء الهجائيين الذين نفذوا إلى

---

(١) يقصد بها الرأى العام .

(٢) يقصد به أرستوفان الذى مثل بسقراط فى روايته «السحاب» أشنع تمثيل .

نفوسكم بما يحملون من ضغينة وحقد ، صدر فيها بعضهم عن عقيدة ، ثم ألقوا بذورها فى قلوب الآخرين ؛ فلا أستطيع أن أدعوهم إلى هذا المكان لأستجيبهم ، فأنا إن دافعت الآن فإنما أدافع أشباحاً ، وأستجيب حيث لا مجيب ؛ وإنى لأرجو أن تقبلوا ما فرضته لكم من قبل بأن الأعداء صنفان : فطائفة حديثة العهد وأخرى قديمة ، وأحسبكم ترون صواب رأيى فى أن أبدأ بالرد على هذه الطائفة الأخيرة ، فدعواها أقدم عهدا وأكثر ترددا .

وبعد فهاكم دفاعى ، ولعلى أستطيع فى هذه البرهة القصيرة التى تفضلتم بها على أن أمحو شائعة السوء التى قرت عنى فى أذهانكم طوال هذا الزمن ، وعسى أن أصيب توفيقاً إن كان فى التوفيق خير لى ولكم ، إذ كان فى الأرجح ينفعنى فى قضيتى ، فأنا عليم أنى مقدم على أمر عسير ، وإنى لأقدر مهمتى حق قدرها ، فليقض الله بما يريد ، وهأنذا أبدأ دفاعى طوعاً للقانون .

واستهل الحديث بهذا السؤال : أى ذنب جنيت حتى حامت حولى الشبهات ، فاجترأ مليتس أن يرفع أمرى للقضاء ؟ ماذا يقول عنى دعاة السوء ؟ إنهم بمثابة المدعين وهاكم خلاصة ما يدعون : «قد أساء سقراط صنعاً ، وهو طُلَعةٌ يصعد البصر إلى السماء وما تحتوى ، ثم ينفذ به تحت أطباق الثرى ، وهو يُلبس الباطل ثوب الحق ، ثم إنه يبث تعاليمه هذه فى الناس» تلك هى جريرتى ، وقد شهدتم بأنفسكم فى ملهاة أرستوفان كيف

اصطنع شخصاً أسماه سقراط جعله يجول قائلاً إنه يستطيع أن يسير فى الهواء ، وأخذ يلغو فى موضوعات لا أزعم أنى أعرف عنها كثيرا ولا قليلا - لست أقصد بهذا أن أسيء إلى أحد من طلاب الفلسفة الطبيعية - فلشد ما يسوؤنى أن يتهمنى مليتس بمثل هذا الاتهام الخطير ، أيها الأثينيون! الحق الصراح أنى لا أتصل بتلك الدراسة الطبيعية بسبب من الأسباب ، ويشهد بصدق قولى كثير من الحضور ، فإليهم أحتكم . انطقوا إذن يا من سمعتم حديثى وأنبئوا عنى جيرانكم ، هل تحدثت فى مثل هذه الأبحاث كثيرا أو قليلاً ؟ أنصتوا إلى جوابهم لتقطعوا فى سائر الاتهام بصدقى مما يقرزون فى هذا الجزء .

أما القول بأنى معلم أتقاضى عن التعليم أجرا فباطل ليس فيه من الحق أكثر مما فى سابقه ، على أننى أمجد المعلم المأجور إن كان معلماً قديراً على تعليم البشر ، فهؤلاء جورجياس الليونتى (Gorgias of Leontium) وبروديكوس الكيوسى Probicus of Ceos) وهبياس الأليزى (Hippias of Elis) يطوفون بالمدن يحملون الشباب على ترك بنى وطنهم الذين يعلمونهم ابتغاء وجه الله ليسعوا إليهم ، فلا يؤجرونهم وكفى ، بل يحمدون لهم ذلك الفضل العظيم ، ولقد أتانى نبأ فيلسوف من بارا يقيم فى أثينا ، حدثنى عنه رجل صادقته ؛ قد بذل للسوفسطائيين مالا طائلا ، هو كالياس بن هبونيكوس . ولما أنبأنى أن له ابنين سألته : لو كان ابناك ياكلياس جوادين أو بقرتين لما شق عليك أن تجد لهما مدرباً ،

فما أهون أن تستخدم مدرب الخيول أو فلاحاً يقومهما ويبلغ بهما حد الكمال فى حدود ما يعدانه فضلا ونبوغاً ، ولكنهما إنسانان من البشر ، فمن ذا فكرت أن يكون لهما مؤدباً ؟ أثمة من يدرك فضيلة الإنسان وسياسة البشر ، حدثنى فلابد أن تكون قد تدبرت الأمر ما دمت والداً . فأجاب : «نعم وجدت» . فسألته : من هو ذا وأين موطنه وكم يؤجر ؛ فأجاب «هو أفينس البارى وأجره خمسة دراهم» فقلت فى نفسى : «أنعم بك يا أفينس إن كنت تملك هذه الحكمة حقا ؛ وتُعلمها بمثل هذا الأجر الضئيل ، فلو كانت لدى لزهيت وأخذنى الغرور ، ولكنى بحق لا أعلم من تلك الحكمة شيئاً » .

أيها الأثينيون ! رب سائل منكم يقول : «وكيف شاعت عنك تلك التهمة يا سقراط إن لم تكن قد أتيت أمراً إدّا ، فلو كنت كسائر الناس لما ذاع لك صوت ولا دار عنك حديث . أنبئنا بعلة هذا إذ يؤلمنا أن نسارع بالحكم فى قضيتك » وإنى لأحسب هذا تحدياً رقيقاً ، وسأحاول أو أوضح لكم لم دعيت بالحكيم ، ومن أين جاءتنى الأحدوثة السيئة ، فأرجو أن تنصتوا لقولى . ولو أن بعضكم سيظن بى الهزل ، ولكنى أعترف أننى لن أقول إلا الحق خالصاً . أيها الأثينيون ! إن لدى ضرباً معيناً من ضروب الحكمة كان مصدر ما شاع من أمرى ، فإن سألتمونى عن هذه الحكمة ما هى ؟ أجبت أنها فى مقدور البشر ، وإلى هذا الحد فأنا حكيم . أما أولئك الذين كنت أتحدث عنهم فحكمتهم معجزة فوق مستوى البشر ، لا أستطيع

أن أصفها لأنني لا أملكها ، ومن ظن أنها لديّ قد ظن باطلا ، وكان أشد ما يكون بعداً عن حقيقتي . أيها الأثينيون ! أرجو ألا تقاطعوني ولو بالغت في القول فلست قائل هذا الذي أرويه لكم ، ولكني سأنيب عني شاهداً جديراً بالثقة ، ليحدثكم عن حكمتي - فسينبئكم هل أملك من الحكمة شيئاً جديراً بالثقة ، ليحدثكم عن حكمتي - فسينبئكم هل أملك من الحكمة شيئاً ؟ وإن كنت أملك فما نوعها - وأعني بذلك الشاهد إله دلفي . إنكم ولا ريب تعرفون (شريفون) فهو صديقي منذ عهد الصبا ، وهو صديقكم مذ ظاهركم على نفي من نفيتم ثم عاد أدراجه معكم . كان شريفون كما تعلمون صادق الشعور في كل ما يعمل ، فقد ذهب إلى معبد دلفي وسأل الراعية في جرأة لتنبئه - وأعود فأرجو ألا تقاطعوني - سأل الراعية لتنبئه إن كان هناك من هو أحكم مني ، فأجابته البته أن ليس بين الرجال من يفضلني بحكمته . لقد مات شريفون ، ولكن أخاه ، وهو في المحكمة بيننا ، يؤيد صدق ما أروى .

وفيم أسوق إليكم هذا الخبر ؟ ذلك لأنني أريد أن أتقصى لكم علة ما ذاع عني من سوء الذكر ؛ لما أتاني جواب الراعية قلت في نفسي : ماذا يعني الإله بهذا ؟ إنه لغز لم أفهم له معنى ، أنا عليم أن ليس لدى من الحكمة كثير ولا قليل ، فماذا عساه يقصد بقوله إنني أحكم الناس ؟ ومع ذلك فهو إله يستحيل عليه الكذب ، لأن الكذب لا يستقيم مع طبيعته . ففكرت وأمعنت في التفكير ، حتى انتهيت آخر الأمر إلى طريقة أحقق بها

القول ، اعتزمت أن أبحث عمن يكون أحكم منى ، فإن صادفته ، أخذت سمتى نحو الإله لأرد عليه ما زعم فأقول له : «هاك رجلا أكبر منى حكمة ، وقد زعمت أنى أحكم الناس» . لهذا قصدت إلى رجل من الساسة - ولا حاجة بى إلى ذكر اسمه - فقد عرف بحكمته ، وامتحنته فانتهيت إلى النتيجة الآتية : لم أكد أبدأ معه الحديث حتى قَرَّتْ فى نفسى عقيدة بأنه لم يكن حكيما حقا ، على الرغم من شهادة الكثيرين له بالحكمة ، وعلى الرغم مما ظنه هو نفسه فى حكمته ، وقد جاوز به الغرور شهادة الشاهدين فحاولت أن أقنعه بأنه وإن يكن قد ظن فى نفسه الحكمة إلا أنه لم بالحكيم الحق ، فأدى به ذلك إلى الغضب منى ، وشاطره فى غضبه كثيرون ممن شهدوا الحوار وسمعوا الحديث ، فغادرته قائلا فى نفسى : إنى وإن كنت أعلم أن كلينا لا يدرى شيئاً عن الخير والجمال . فإننى أفضل منه حالاً ؛ لأنه يدعى العلم وهو لا يعلم شيئاً . وأما أنا فلا أدرى ، ولا أزعم أننى أدرى - ولعلى بهذا أفضله قليلا . ثم قصدت إلى آخر ، وكان أعرض من سابقه دعوى فى الفلسفة ، فانتهيت معه إلى النتيجة نفسها ، وعادانى هو الآخر ، وأيده فى موقفه عدد كبير .

أخذت ألتمس الناس رجلاً فرجلاً وأنا عالم بما أثيره فى الناس من غضب كنت آسف له وأخشاه ، ولكنها ضرورة لم يكن عن المضى فيها محيص . إنها كلمة الله ، ويجب أن أحلها من اعتبارى المكان الأسمى ،

فقلت لنفسى : لابد أن أحـاور أدعياء العلم جميعاً لعلى أفـهم ما قصدت إليه الراعية . وأقسم لكم أيها الأثينيون اغلظ القسم[1] - فواجبى أن أقول الحق - إننى قد انتـهيت من البـحث إلى ما رويت ، إذ وجدت أن أشـهر الناس أكثرهم غباء ، وقد صادفت فـيمن هم دون هؤلاء مقاماً وجالاً بلغوا من الحكمة ما لم يبلغه هؤلاء . وسأقص عليكم حديث تجوالى وما عانيت خلاله لتـحقيق مـا قالته الراعـية . تركت رجال السـياسة وقـصدت إلى الشعراء ، سـواء فى ذلك شعراء المأساة أو الأغـانى الحماسية أو مـا شئتم من صنوف الشـعـر ، وقلت فى نفسى : إن الأمـر لاريب مكشـوف لدى الشعراء فسـأجدنى بإزائهم أشد جهلاً. ثم جمعت طائفـة مختارة من أروع ما سطرت أقلامـهم ، وحملتها إليـهم أستفسرهم إياها لعـلى أفيد عندهم شيئاً . أفأنتم مصدقون مـا أقول ؟ واخجلتاه ! أكاد أستحى من القول لولا أنى مضطر إليه ، فليس بينكم من لا يستطيع أن يقـول فى شعرهم أكثر مما قالوا هم وهم ناظموه . عندئذ أدركت على الفـور أن الشعراء لا يصدرون فى الشعر عن حكمة ، ولكنه ضرب من النبوغ والإلهام . إنهم كالقديسين أو المتنبئين الذين ينطقون بالآيات الرائعات وهم لا يفـقهون معناها . هكذا رأيت الشعراء ، ورأيت فوق ذلك أنهم يعتقدون فى أنفسهم الحكمة فيما لا يملكون فيه من الحكمة شيئاً استناداً إلى شاعريتهم القوية . فخلفت الشعراء وقد علمت أنى أرفـع منهم مقامـاً ، فقد فـضلنى عليهم ما فـضلنى على رجال السياسة .

---

(١) فى الأصل «أقسم لكم أيها الأثينيون بالكلب» وقد آثرنا هذا التحريف .

وأخيراً قصدت إلى الصنـاع ، وكنت أظننى جاهلاً بما يتصل بالصناعة من علم ، وكنت أحـسب أن لدى هؤلاء الصناع مـجـموعـة طريفـة من المعارف ، وقد ألفيتنى مصيباً فـيما ظننت ، إذ كانوا يعلمون كثيراً مما كنت أجهله ، فكانـوا فى ذلك أحكم منى بلا ريب . ولكنى رأيت حتى مـهرة الصناع قد ترديوا فيما تردى فيه الشـعراء من خطأ ، فتوهموا أنهم أكفاء فى صناعتـهم فلابد أن يكونوا ملمين بكل ضروب المعـرفة الساميـة ، فذهبت سيئـة الغـرور بحسنة الحكمـة لهذا ساءلت نفـسى بالنيابة عن الراعـية : أكنت أحب أن أظل كما أنا ، لا أملك ما يملكون من علم ، ولا أكبو فيما كبوا فيه من خطأ ، أم كنت أحب أن أكون شبيههم فى العمل والجهل على السواء ؟ فأجبت نفسى ، وأجبت الراعية : إننى خير منهم حالاً .

وهذا الذى انتهيت إليه قد حـرك العداوة فى قلوب نفر من أشد الناس سوءاً وخطراً ، كمـا نسج حولى طائفة من الدعاوى البـاطلة . ولقد جرى الناس على تسميتى بالحكيم إذ خيل إليهم أننى ما فتئت أحمل الحكمة التى كانت تعوزهم . ولكن الله - أيهـا الأثينيون - هو الحكم الأوحد ، ولعل الله أراد بجوابه أن الحكمة فى البـشر ضئيلة أو معدومـة . إنه لم يتحدث قصداً عن سقراط ، إنما ضرب باسمى مثـلا ، كأنما أراد أن يقول إن من يـدرك كما أدرك سقراط أن حكمته فى حـقيقة الأمر لا تساوى شـيئاً ، يكون أحكم الناس . فأنا كما تروننى أسير وفقاً لما يرسمه لى الله ، أفتش عن الحكمة فى كل من يدعيهـا ، لا أبالى أكان من أبناء الوطن أو غريباً ،

فإن لم أجده كما ادعى ، صارحته بجهله كما أمرتنى الراعية . ولقد انصرفت إلى هذا الواجب انصرافاً لم يبق لى معه من الوقت ما أبذله فيما يشغل بال العامة ، أو أنفقه فى شؤونى الخاصة ؛ وهكذا كرست حياتى لله فعشت فقيراً معدماً .

أما أن الشبان الأثرياء الذين لا تضنيهم شواغل الحياة كثيراً قد التفوا حوالى ، فهم قد جاءوا يسعون من تلقاء أنفسهم ليشهدوا امتحان الأدعياء ؛ وكثيراً ما انطلقوا بدورهم يلتمسون أدعياء الحكمة ليجروا عليهم التجربة نفسها . وما أكثر ما صادفوا رجالاً ظنوا فى أنفسهم العلم ، فإذا بهم لا يعلمون إلا قليلا ، أو هم لا يعلمون شيئاً ؛ فلا يلبث هؤلاء الذين امتحنهم الشبان أن يصبوا علىّ جام غضبهم ، وأنفسهم أحق بهذا الغضب ، ويستنزلون اللعنة على سقراط لأنه أفسد الشبان . فإن سألهم سائل فيم هذه اللعنة ، وأى جريرة أتى وأى رذيلة علّم ، لما حاروا جواباً لأنهم لا يعرفون لغضبهم سبباً ، ولكى يستروا علائم الحيرة تراهم يعيدون التهم المعروفة التى قذف بها الفلاسفة جميعاً ، من أنهم يعلّمون ما يتصل بالسحاب ، وما هو دفين تحت الثرى ، وأنهم كافرون بالآلهة ، وأنهم يلبسون الباطل صورة الحق ؛ والحقيقة أنهم جاهلون ويأبون الاعتراف بجهلهم المكشوف . ولما كانت تلك الفئة كثيرة طامعة نشيطة ، وقد تصدوا جميعاً للنزال بما لهم من ألسنة حداد تلعب بالنفوس ، فقد ملأوا أسماعكم بهذا الاتهام الباطل . وكان أن ناصبنى العداء هؤلاء المدعون الثلاثة :

مليتس ، وأنيتس ، وليقون . فقد ناهضنى مليتس ليمثل جماعة الشعراء ؛ وأنيتس ليمثل طبقـة الصناع والسياسيين ؛ وليقون ليمثل الخطباء . وإننى كما قدمت لا آمل فى أن أمـحو فى لحظة كل ما علق بى من تهم باطلة . أيهـا الأثينيون ! لقـد رويت لكم الحق كل الحق ، لم أخف شيئـاً ، ولم أشوه شيئاً ، ومع هذا فأنا أعلم أن صـراحتى فى الحديث ستصدكم عنى ، وما هذا الصد إلا برهان على أنـى أقول الحق . تلك هى دعواهم وذاك هو منشؤها ، ولن تسفر هذه المحاكمة ولا أية محاكمة مقبلة عن غير هذا .

حـسبى هـذا دفاعـاً للفـريق الأول من المدعين . وهأنذا أتوجـه الآن بالحـديث نحو الطائفـة الأخـرى وعلى رأسـهم مليـتس ، ذلك الرجـل الطيب ، الوطنى ، كما يقول عن نفسه . وسأحاول أن أدفع عن نفسى ما اتهمنى به هذا الفريق الجديد . وجدير بنا أن نبدأ بتلخيص دعواهم ، فماذا يزعمون ؟ إنهم يقولون : إن سقراط فاعل للرذيلة ، مفسد للشباب ، كافر بآلهة الدولة ، وله معبودات اصطنعهـا لنفسه خاصة . تلك هى دعواهم ، وسبيلنا الآن أن نناقشها تفصيلا .

أما الزعم بأنى فاعل للرذيلة مفسد للشـباب ، فأنا أقرر أيها الأثينيون عن هذا الرجل مليتس ، أنه هو صاحب رذيلة . ورذيلتـه أنه يتفكه حيث يجب الجد ، وهو لا يرى غضـاضة فى أن يسوق الناس فى ساحـة القضاء متستراً وراء الحماسة المصطنعة والاهتمام المتكلف بأمور لا تغنيه فى شىء ؛ وسأقيم لكم الدليل على صدق هذا .

اقـتـرب منى يا مليتس لألقى عليك سـؤالاً . هل تـفكر طويلاً فى إصلاح الشباب ؟

- نعم ، إنى أفعل .

- إذن فـقل للقضـاة من هو مصلـح الشبـان ، فأنت لابد عـالم به مادمت قد عانيت آلاماً فى اكتشاف مـفسدهم ، فها أنت ذا قد سقتنى إلى القضاء متهماً تكلم إذن وقل للقضاة من هو مصلح الشبان . ما لى أراك يا مليتس لا تحير جـواباً ؟ ! أفليس هذا دليلاً قاطعاً ، مـزرياً بك ، يؤيد ما ذكرته من أن أمر الشبان لا يعنيك فى شىء ؛ تكلم يا صديقى وحدثنا عن مقوم الشباب !

- هى القوانين .

- ولكن ليست القوانين هى ما عنيتُ يا سيدى ، إنما أردت أن أعرف ذلك الشخص الذى يحفظ القوانين قبل كل شىء .

- هم من ترى فى المحكمة من قضاة يا سقراط .

- ماذا تريد أن تقول يا مليتس ؛ أتعنى أن القضاة قادرون على تعليم الشبان وإصلاحهم ؟

- لست أشك فى أنهم كذلك .

- أكلهم كذلك أم بعضهم دون بعض ؟

- القضاة جميعاً .

- قسما بالآلهة[1] إن هذا لخبر سار . إذن فهناك طائفة من المصلحين ، وماذا تقول فى النظارة ؟ أهم يصلحون الشبان ؟

- نعم هم يفعلون .

- وأعضاء الشورى كذلك ؟

- نعم إنهم كذلك يصلحون .

- ولكن قد يكون رجال الدين لهم مفسدين ؟ أم هم كذلك يقومون الشباب ؟

- إنهم كذلك من المصلحين .

- إذن فكل الأثينيين يصلحون الشبان ويرفعون من قدرهم ما عداى. فأنا وحدى الذى أفسدت الشباب . أهذا ما أردت أن تقول ؟

- وذلك ما أؤيده بكل قوتى .

- يا لبؤسى إذن إن صح ما تقول ! . ولكنى أريد أن أسألك سؤالاً : أيصح هذا القول كذلك على الجياد ؟ أيمكن أن يقدم لها الأذى فرد واحد ، بينما يقدم لها الخير العالم أجمع ؟ ألست ترى أن العكس هو الصحيح ؟ فرجل واحد يستطيع أن يعمل لها الخير، أو قل هى فئة قليلة ،

---

(١) يقسم بالإلهة هيرى Heré .

وأعنى أن مروّض الجياد هو الذى يقدم لها الخير ، أما بقية الناس الذين يستخدمونها فى عملهم فهم لها مسيئون . أليس هذا صحيحاً يا مليتس بالنسبة إلى الجياد وكل أنواع الحيوان ؟ نعم ولا ريب ، سواء رضيت أنت وأنيتس أم لم ترضيا ، فذلك لا يعنينا . اللهم أنعم بحياة الشبان لو كان عليهم مفسد واحد فحسب ، وكانت بقية العالم لهم مصلحين . وأنت يا مليتس ، لقد أقمت لنا الدليل ناصعاً على أنك لم تكن تفكر فى الشبان ؛ فإهمالك إياهم واضح حتى فيما ذكرت فى صحيفة الدعوى .

والآن يا مليتس ؛ لابد أن أسألك سؤالا آخر : أيهما خير : أن يكون أبناء وطنك الذى تعيش بينهم فاسدين أم صالحين ؟ أجب يا صاح فذاك سؤال ميسور الجواب ! الا يقدم الصالحون الخير لجيرانهم بينما يسىء إليه الفاسدون ؟

– نعم ولا ريب .

– وهل هناك إنسان يفضل أن يساء إليه على أن يُحسن إليه ممن يعيش بينهم ؟ أجب يا صديقى ، فالقانون يتطلب منك الجواب . أيحب أحد أن يصيبه الضر ؟

– كلا ولا ريب .

– وأنت حين تتهمنى بإفساد الشبان والحط من شأنهم أتزعم أنى أتعمد ذلك الإفساد أم يجىء عنى عفواً ؟

– أنا أزعم أنه إفساد مقصود .

– ولكنك اعترفت الآن أن الرجل الصالح يقدم الخير لجيرانه ، وأن الفاسد يقدم لهم الشر ، أفتظن أن هذه الحقيقة قد أدركتها حكمتك البالغة وأنت لا تزال من الحياة فى هذه السن الباكرة ، وأنا ، وقد بلغت من الكبر عتيا ، مازلت أخبط فى ظلام الجهل فلا أعلم أنى أفسدت أولئك الذين أعيش بينهم فيغلب أن يصيبنى منهم ضرر ؟ فأكون عالماً بهذا ومع ذلك أفسدهم ، وأفسدهم متعمداً ؟ هذا ما تقوله أنت ، فلا أحسبك مقنعنى به ، ولا مقنعاً به كائناً من كان . إحدى اثنتين : إما أننى لا أفسد الشبان ، أو أننى أفسدهم عن غير عمد ؛ وسواء أصحت هذه أم تلك فأنت كاذب فى كلتا الحالتين[1] .

فإن كانت جريمتى بغير عمد فلا يحاسب عليها القانون ، وكان خليقاً بك أن تسدى لى النصح خالصاً ، محذراً ومؤنباً فى رفق ولين ، فإن انتصحت بك ، أقلعت ولا ريب عما كنت آتية بغير قصد ؛ ولكنك أبيت لى نصحاً وتعليماً ، وآثرت أن تجىء بى متهماً فى ساحة القضاء ، وهى محل العقاب لا مكان التعليم .

لقد تبين لكم أيها الأثينيون أنه لا يعنيه أمر الشبان فى كثير ولا

(١) هذه إشارة إلى فلسفة سقراط فى الفضيلة ، وملخصها ان الفضيلة هى العلم ، فيكفى أن تعلم الخير لتعمله ، فإن وقع سوء من إنسان يكن هذا دليلا على جهله بالفضيلة لانه يستحيل ان يعرفها ولا يعملها .

قليل ، ولكنى مازلت أود يا مليتس أن أعرف منك فيم كان إصرارى على إفساد الشبان ؟ لعلك تعنى كما يبدو من اتهامك أنى حملتهم على إنكار الآلهة التى اعترفت بها الدولة ، ليقدسوا فى مكانها معبودات جديدة أو قوى روحانية . أليست هذه هى الدروس التى زعمت أنى أفسدت بها الشباب ؟

– نعم هذا ما أقوله وأؤكده .

– إذن فقل لى يا مليتس ، وقل للمحكمة فى عبارة واضحة ، أى آلهة أردت فى دعواك ، لأننى حتى الساعة لا أفهم ما تأخذه علىّ . أكنت أعلم الناس الإيمان بآلهة معينة ؟ وإن كان هذا فهم مؤمنون بآلهة ما ، ولم أكن إذن كافرا تمام الكفران ؛ إنك لم تشر إلى ذلك فى الدعوى واكتفيت بالقول إنها ليست نفس الآلهة التى تعترف بها المدينة ، ما تهمتى ؟ أهى الدعوة إلى آلهة مخالفة أم تزعم أنى ملحد ومعلم الإلحاد .

– أردت الأخيرة ، فأنت ملحد غاية الإلحاد .

– هذا قول عجيب لم نعهده يا مليتس ، ماذا تعنى به ؟ ألست أومن بإلهى الشمس والقمر ، وهى عقيدة سائدة بين الناس جميعاً !

– إنى أوكد لكم أيها القضاة أنه لا يؤمن بهما ، فهو يقول إن الشمس كتلة من الحجر ، وإن القمر مصنوع من تراب !

- لعلك يا صديقى مليتس تريد أنا كسجوراس[1] بهذا الاتهام ؛ ويظهر أنك تسىء الظن بالقضاة ، فتحسبهم بلغوا من الجهالة حدا لا يعرفون معه أن تلك آراء مسطورة فى كتب أنا كسجوراس الكلازومينى ، وهى مليئة بمثلها ، وتلك التعاليم هى التى يقال إن سقراط قد أوحى بها إلى الشبان، والواقع أنهم عرفوها من المسرح الذى كثيرا ما يعرضها ، وأجر المسرح لا يزيد على دراخمة واحدة ، ففى مقدور الناس جميعاً أن يشهدوها بهذا الأجر الزهيد ، ثم يهزأون من سقراط كلما نسب إلى نفسه تلك الأعاجيب ، ولكن حدثنى يا مليتس ، أفتظن حقا أنى لا أؤمن بإله ما ؟

- أقسم بزيوس أنك لا تؤمن بكائن من كان .

- أنت كاذب يا مليتس ، ولا تستطيع أنت نفسك أن تصدق هذا القول ، ولست أشك أيها الأثينيون فى أن مليتس هذا مستهتر وقح ، كتب هذه الدعوى بروح من الحقد والطيش والغرور ، ألم يبتكر هذه الألعوبة ابتكارا ليقدمنى بها إلى المحاكمة ؟ كأنما قال لنفسه : سأرى هل يستطيع هذا الحكيم سقراط أن يكشف عنى هذا التناقض المحبوك ، أم أنى خادعه كما سأخدع بقية الناس ؟ فهو كما أرى يناقض نفسه بنفسه فى الدعوى ، فكأنه يقول : قد أجرم سقراط لأنه كافر بالآلهة ، ولأنه مؤمن بهم ، وتلك مهزلة ولا ريب .

---

(١) هذه العقيدة التى قالها مليتس عن سقراط هى فى الحقيقة رأى فى فلسفة أنا كسجوراس وكان قد اتهم به هذا بالإلحاد لولا أنه فر من أثينا .

أيها الأثينيون ! إنه متناقض لا تستقيم روايته ، وأحب أن نتعاون جميعاً على تحقيقها ، وعليك يا مليتس أن تجيب - وأعيد الرجاء ألا تقاطعونى إذا تكلمت بأسلوبى المعهود .

يا مليتس ! هل جاز لإنسان مرة أن يعتقد بوجود ما يتصل بالبشر من أشياء ، دون أن يعتقد بوجود البشر أنفسهم ؟ إنى أحب منه - أيها الأثينيون - أن يجيب ، وألا يعمد دائماً إلى المقاطعة ؛ هل اعتقد إنسان مرة بوجود صفات الجياد دون الجياد نفسها ؟ أو وجود نغمات القيثارة دون العازف عليها ؟ إن كنت تأبى أن تجيب بنفسك يا صديقى ، فسأجيب لك والمحكمة .

كلا ! لم يفعل ذلك إنسان ؛ والآن ، هل لك أن تجيب عن هذا السؤال الثانى : أيستطيع إنسان أن يؤمن برسول روحى إلهى ، ولا يؤمن بالأرواح نفسها أو بأشباه الآلهة ؟

- إنه لا يستطيع .

- يسرنى أن أحصل منك بعون المحكمة على هذا الجواب ، ولكنك قد أقسمت فى دعواك أننى أثق وأعتقد فى رسل روحية إلهية ، وسواء أكانت تلك الرسل قديمة أم محدثة ، فأنا على أية حال أومن بها كما قلت وأقسمت فى صحيفة الدعوى ، ولكن إذا كنت أعتقد بموجودات إلهية ، أفلا يلزم أن أعتقد بالأرواح وأشباه الآلهة التى بعثتها ؟ أليس هذا حقاً ؟

مـالى أراك صامـتاً ؟ إن الصـمت معنـاه الرضـــى ، فمـا هذه الأرواح وأشباه الآلهة ؟ إنها إما أن تكون آلهة ، أو أبناء آلهة ، أليس كذلك ؟

– نعم هو كذلك .

– وإذن فهـذا موضع التناقض المحـبوك الذى أشرت إلـيه ، فأشـباه الآلهـة أو الأرواح هـى آلهـة ، وقـد زعـمت عنى أول الأمـر أنى كافـر بالآلهة ، ثم ها أنت ذا تضيف أنى مؤمن بها ، لأنى مؤمن بأشباهها ؛ ولا يضيرنـا أن تكون هذه الأشباه أبناء للآلهة غـير شرعيين ؛ فـسواء أعقبـتها الآلهة من الشيـاطين أو من أمهات أخريات كما يُظن ، فوجـودها يتضمن بالضرورة – كما ترون جميعاً – وجود آبائها ، وإلا كنت كمن يثبت وجود البغال وينكر وجود الجياد والحمير ، لا يمكن أن يكون هذا الهراء يا مليتس إلا تدبيـرا منك لتبلونى به ، ولقـد سقـته فى دعـواك لأنك لم تجد حـقاً تتهمنى به ؛ ولكن لن يجـوز على من يملك ذرة من فهم ، قولك هذا بأن رجلاً يعـتقد فى أشياء إلهيـة ، هى فوق مـستوى البـشر ، ولا يؤمن فى الوقت نفسه بأن هناك آلهة وأشباه آلهة وأبطالاً .

حسبى ما قلته ردا لدعوى مليتس ، فلا حاجة بى إلى دفاع قوى بعد هذا ، ولكنى كـمـا ذكرت من قـبل لابد أن يكون لى أعـداء كـثيـرون ، وسيكون ذلك دافعـى إلى الموت لو قضى على به ، لست أشك فى هذا ، فليس الأمـر قاصـرا – على مليتس وأنيتس ، ولكنه الحقـد الذى يأكل القلوب ، ويغرى الناس بتشـويه السمعة ، فكثيـراً ما أدى ذلك برجال إلى

الموت ، وكثيراً ما سيقضى بالموت على رجال ، فلست بحمد الله آخر هؤلاء .

سيقول أحدكم : ألا تخجل يا سقراط من حياة يغلب أن تؤدى بك إلى موت مباغت ، وعلىَ ذلك أجيب فى رفق : أنت مخطئ يا هذا ، فإن كان الرجل خيراً فى ناحية منه ، فلا ينبغى أن يتدبر أمر حياته أو موته ، ولا يجوز أن يهتم إلا بأمر واحد ، وذلك أن يرى هل هو فيما يعمل مخطىء أم مصيب وهل يقدم فى حياته خيراً أم شراً ؛ أترى إذن أن الأبطال الذين سقطوا فى طروادة لم يحسنوا صنعاً ؛ فذلك ابن ثيتس الذى استصغر الخطر وازدراه حينما قرنه بما يثلم الشرف؛ ولما قالت له أمه الإلهة، وهو يتحفز لقتل هكتور بأنه لو قتله انتقاماً لصاحبه باتروكلس ، فسيدركه هو نفسه الموت ، ثم قالت : «إن القدر يترصدك بعد هكتور » فلما سمع هذا ، احتقر الخطر والموت احتقاراً ، ولم يخشهما كما خشى أن يحيا حياة يدنسها العار دون أن ينتقم لصديقه ، فأجاب : «ذريتى أمُتْ بعد موته ، فأنتقم من عدوى ، فذلك خير من الحياة فوق هذه السفن ، فأظل عاراً على جبين الدهر تنوء بحمله الأرض» هل فكر أخيل فى الموت أو الخطر ؟ فمهما يكن موقف الرجل ، سواء اختار لنفسه ذلك الموضع أم أقامه فيه قائده ، فلابد أن يلزمه ساعة الخطر ، ولا يجوز أن يفكر فى الموت أو فى شىء آخر غير دنس العار ، إن هذا أيها الأثينيون لقول حق .

بنى أثينا ! كم كان سلوكى عجيباً ، لو أننى عصيت الله فيما يأمرنى

به - كما أعتقد - بأن أؤدى رسـالة الفلسفة بدراسة نفسى ودراسة الناس ، وقررنا مما كـلفنى به خشيـة الموت أو ما شـئت من هول ، وأنا الذى حين أمرنى القواد الذين اختـرتموهم للقيادة فى بوتيديا ، وأمفـيبيلوس ودِلْيوم ، لزمت موضعى ، كأى رجل آخـر ، أواجه الموت ؛ ما كان أعجب ذلك ، وما كـان أحقنى بأن أساق إلى المحكمة بتـهمة الكفـر بالآلهة ، وكم كنت عندئذ أكـون بعيداً عن الحكمـة ، مدعـياً إياها خـاطئاً ، لو أننى عـصيت الراعية خـوفاً من الموت ؟ فليست خشـية الموت من الحكمة الصحـيحة فى شـىء بل هى فى الواقع ادعـاء لهـا ، لأنها تظاهر بمعـرفة مـا تستـحيل معرفته ، فما يدريك ألا يكون الموت خيراً عظيماً ، ذلك الذى يلقاه الناس بالجزع كـأنه أعظم الشـرور ؟ أليس ذلك توهما بالعلم ، وهو ضـرب من الجهل الشائن ؟ وهنا أرانى أسـمى مقاماً من مستـوى البشر ، وربما ظننت أنى فى هذا الأمر أحكم الناس جميعـاً - فمادمت لا أعلم عن هذه الحياة إلا قليلاً ، فلا أفرض فى نفسى العلم ، وإنما أعلم علم اليقين أن من ظلم من هو أرفع منه أو عصـاه ، سواء أكان ذلك إنساناً أم إلهـا ، فقد ارتكب إثما وعـــارا ، ويستحـيل علىّ أن أتحاشى مـا يجوز أن يكون فـيه الخـير وأخشاه ، لأقدم على شر مـؤكد ؛ ولهذا فلو أنكم أطلقتم الآن سراحى ، ورفـضـتم نصح أنيتس ، الذى قال بـوجـوب إعدامى بعـد إذ وجه إلىّ الاتهام ، لأنى لو أفلت فـسيصـيب الفساد والدمـار أبناءكم باستمـاعهم لما أقـول ؛ لو قلتم لى يا سقـراط ، إننا سنطلق سـراحك هذه المرة ولن نأبه لأنيتس ، على شرط واحد ، وذلك أن تقف البحث والتـفكير ، فلا تعود

إليهما مرة أخـرى ، لو شاهدناك تفعل ذلك أنزلنا بك الموت ، إن كان هذا شـرط إخـلاء سبيلى أجبت بمـا يأتى : أيهـا الأثينيـون ! أنا أحـبكم وأمجدكم ، ولـكنى لابد أن أطيع لله أكثر مما أطيعكم ، فـمن أمسك عن اتخاذ الفلسـفة وتعليمـها ما دمت حيـا قويا ، أسئل بطريقـتى أيًّا صادفت بأسلوبى ، وأهيب به قـائلاً : مالى أراك يا صـاح تعنى ما وسـعك العناية بجمع المال ، وصـيانة الشـرف ، وذيوع الصوت ، ولا تنشـد من الحكمة والحق وتهـذيب النفس إلا أقلها ، فـهى لا تصادف من عنايتك قـليلاً ولا تزن عندك فتـيلاً ، وأنت ابن أثينا ، مـدينة العظمة والقـوة والحكمة ؟ ألا يخجلك ذلك ؟ فـإن أجاب محـدثى قائلاً : بلى ولكنى مـعنى بها ، فلن أخلى سبيلـه ليمضى من فوره ، بل أسائله وأناقـشه وأعيد مـعه النقاش ، فإن رأيتـه خلوا من الفضيلة ، وأنـه يقف منها عند حد القـول والادعاء ، أخذت فى تأنيبه ، لأنه يحقـر ما هو جليل ، ويسمو بما هو دنىء وضيع ؛ سأقول ذلك لكل من أصـادفه ، سواء أكان شابا أم شيخـاً ، غريباً أم من أبناء الوطن ، لكنى سـأخص بعنايتى بنى وطنى ، لأنهم إخـوانى ، تلك كلمة الله فاعلموها ولا أحسب الدولة قد ظفرت من الخير بأكثر مما قمت به ابتغاء مرضاة الله ، وما فعلت إلا أن أهبت بكم جميعاً ، شيباً وشباناً ، أن انصرفوا إلى أنفـسكم وما تملكون ، وبادروا أولا بتهذيب نفـوسكم تهذيباً كاملا ، وهأنذا أعـلمكم أن الفضيلة لا تشتـرى بالمال ، ولكنها هى المعين الذى يتدفق منه المال ويـفيض بالخير جـميعـاً ، سواء فى ذلك خيـر الفرد وخير المجموع . ذلك مذهبى ، فإن كـان هذا مفسداً للشبان ، فاللهم إنى

مود بالشباب إلى الدمار أما إن زعم أحدكم أن ليس مذهبى هو ذاك ، فهو إنما يزعم باطلا . أيها الأثينيون ! سواء لدى أصدعتم بما يأمركم به أنيتس أم فعلتم بغير ما يشير ، وسواء أأصبت عندكم البراءة أم لم أصبها ، فاعلموا أنى لن أبدل من أمرى شيئاً ، ولو قضيتم علىّ بالموت مراراً .

أيها الأثينيون ! لا تقاطعونى واصغوا إلى قولى ، فقد وعدتمونى أن تسمعوا الحديث حتى ختامه ، وإن لكم فيه لخيرا . أحب أن أفضى لكم بما عندى ، فإن بعثكم على البكاء فأرجو الا تفعلوا . أريد أن أصارحكم أن لو قضيتم علىّ بالموت فسيصيبكم من الضر أكثر مما يصيبنى . إن مليتس وأنيتس لن يؤذيانى ، لأنهما لا يستطيعان ، فليس من طبائع الأشياء أن يؤذى الرجل الخبيث من هو أصلح منه ، نعم ، وبما استطاع له موتاً أو نفياً أو تجريداً من حقوقه المدنية ، وقد يبدو له كما يبدو للناس جميعاً ، انه يكون بذلك قد أنزل به أفدح البلاء ، ولكنى لا أرى ذلك الرأى ، فأهول به مصاباً هذا الشر الذى يقدم عليه أنيتس - بأن يقضى على حياة إنسان بغير حق ، لست أكلمكم الآن - أيها الأثينيون - من أجل نفسى كما قد تظنون ، ولكن من أجلكم ، حتى لا تسيئوا إلى الله ، أو تكفروا بنعمته بحكمكم علىّ فليس يسيراً أن تجدوا لى ضريباً إذا قضيتم علىّ بالموت ، وإن جاز أن أسوق إليكم هذا التشبيه المضحك ، لقلت إنى ضرب من الذباب الخبيث ، أنزله الله على الأمة ، التى هى بمثابة جواد لنبيل عظيم ثقيل الحركة لضخامته ، ولابد له فى حياته من حافز . أنا تلك الذبابة

الخبيثة التى أرسلها الله إلى الأمة ، فلا شاغل لى متى كنت وأنّى كنت ، إلا أن اثير نفوسكم بالإقناع والتأنيب ، ولما كان من العسير أن تجدوا لى ضريباً فنصيحتى لكم أن تدخروا حياتى ، نعم قد أكون مزعجكم كلما باغتكم فأيقظتكم من نعاسكم العميق - وما أهون ذلك عليكم - أن يهدأ لكم الرقاد بقية حياتكم ما لم يبعث لكم الله ذبابة أخرى إشفاقاً عليكم . أما إننى جئتكم من عند الله فهذى آيته : لو كنت نكرة من الناس لما رضيت مطمئنا ، بإهمال شؤون عيشى إهمالا طوال تلك السنين ، لا حصص نفسى لكم ، فقد جئتكم واحداً فواحداً ، شأن الوالد أو الأخ الأكبر ، فأحملكم على الفضيلة حملا ، وليس ذلك ما عهدناه فى طبيعة البشر ، ولو كنت قد أفدت من ذلك أجراً أو جزاء لكان لذلك مدلول آخر ، ولكن هل تجرؤ حتى وقاحة المدعين أن تدعى أنى أخذت أجراً أو سعيت إليه ؟ إنهم لن يفعلوا لأنهم لن يجدوا لذلك دليلا . أما أنا فعندى ما يؤيد صحة ما أقول وحسبى بالفقر دليلا .

قد يعجب بعضكم لماذا أطوف بالناس آحاداً ، فأسدى إليهم النصح وأشتغل بأمورهم ، ولا أجرؤ أن أتقدم بالنصح إلى الدولة بصفة عامة ؟ وإليكم سبب هذا : كثيراً ما سمعتمونى أتحدث عن راعية أو وحى يأتينى ، وهى معبودتى التى يهزأ بها مليتس فى دعواه ، ولقد لازمنى ذلك الوحى منذ طفولتى ، وهو عبارة عن صوت يطوف بى فينهانى عن أداء ما أكون قد اعتزمت أداءه ، ولكنه لا يأمرنى بعمل إيجابى ، فذلك ما حال دون

اشتغالى بالسياسة، وإخال ذلك آمن الطرق ، فلست أشك أيها الأثينيون - فى أنى لو كنت ساهمت فى السياسة للاقيت منيتى منذ أمد بعيد ولما قدمت خيراً لكم أو لنفسى ، وأرجو الا يؤلمكم الحق إن أنبأتكم به ، فالحق أنه يستحيل على من يرافقكم إلى الحرب أو أى اجتماع آخر ويقاوم فساد الأخلاق وأخطاء الدولة أن ينجو بحياته فإن من يحارب مخلصاً فى سبيل الحق لن يمتد به الأجل إلى حين ، إلا أن كان مشتغلاً بالأعمال الخاصة دون العامة ، وإن أردتم لذلك برهاناً ما سقت إليكم كلاماً فحسب ، بل ذكرت لكم حوادث بعينها وهى أقوى حجة من الألفاظ ، فاسمحوا لى أن أقص عليكم طرفاً من حياتى الخاصة ، ينهض دليلاً على أننى لم أخضع قط لظلم خشية الموت ، حتى لو وثقت بأن العصيان سيُعْقِبُ من فوره موتاً محققاً . سأقص عليكم قصة تشوقكم أو لا تشوقكم ، ولكنها مع ذلك حق . إننى لم أشغل منصباً إلا مرة عضواً فى مجلس الدولة ، وكانت رياسة المجلس عند محاكمة القواد الذين لم ينقذوا جثث القتلى بعد موقعة أوجنيس ، لقبيلة أنتيوخس - وهى قبيلتى - فرأيتم أن تحاكموهم جميعا . وكان ذلك منافياً للقانون كما أدركتم ذلك جميعاً فيما بعد ، ولكنى كنت إذ ذاك وحدى بين أهل بريتان أعارض الافتئات على القانون ، وأعلنت رأيى مخالفاً لكم . ولما تهددنى الخطباء بالحبس والطرد ، وصحتم جميعاً فى وجهى آثرت أن أتعرض للخطر مدافعاً عن القانون والعدل على أن أساهم فى الظلم خشية السجن أو الموت ؛ حدث ذلك فى عهد

الديمقـراطية ، فلمـا تولى زمام الأمـر الطغاة الثـلاثون ، أرسلوا إلىّ وإلى أربعة معى ، وكنا تحت السـقيفة ، فأمـرونا أن نسوق إليهم ليون السّلامى من بلدة سلامس لينـزلوا به الموت - وذلك مَثَلٌ لأوامرهم التى اعـتادوا أن يلقـوها لكى يشركـوا معـهم فى جـرائمهم أكـبر عـدد ممكن من الناس ، فبرهنت لهم قولاً وعملا ، أنى لا أعبأ بالموت ، وأنه لا يزن عندى قشة ، إن صح هذا التعبير وأن كل ما أخشـاه هو أن أسلك سلوكا معوجاً شائناً ، .... أرهب طغيان تلك العصـبة الظالمة ، ولم تضطرنى إلى ركوب الخطأ . فلـ. أخرجنا من السـقيفة حيث كنا ، ذهب الأربعـة الآخرون إلى سلامس فى طلب ليون ، أما أنا فقد أخذت سـمتى نحو الدار فى هدوء صامت ، ....نت أتوقع أن أفقد حياتى لقـاء ذلك العصيان لولا أن دالـت دولة الثلاثين بعد ذلك بقليل ، وما أكثر من يشهدون بصدق ما أقول .

وهل تظنون أنه قد كان يمتد بى الأجل إلى هذه السن ، لو قد ضربت فى الحيـاة العامة بنصيب على فـرض أنى - كما ينبـغى للرجل الصالح - لزمت جانب الحق ، وأحللت العدالة من نفسى ما هى جديرة به من مكان رفيع ؟ كـلا ثم كـلا ! فلو قد عـولت ، أو عول كائن من كـان ، علـى ذلك ، لما أتيح لى - بنى أثينا ! - البقـاء ، ولكنى لم أجد فيمـا فعلت - عامـا كان أم خاصا - عـما رسمت لنفسـى من جادّة ، فلم أنغمس فيـما انغمس فيه هؤلاء الذين أشـيع بين الناس أنهم تلاميذى ، أو من عداهم ، فلم يكن لى فى حقيقة الأمر تـلاميذ دائمون ، إذ أبحت الحضور لكل من

أراد حضوراً واستماعاً ؛ إنى كنت مؤدياً رسالتى ، لا فرق عندى بين شيخ وشاب ، لم أتخذ شرطا ، ولم ألتمس أجراً ، فكان الحوار مشاعاً لمن أنقد ومن لم يُنقد ، فلمن شاء أن يوجه إلى سؤالا ، أو يجيب لى عن سؤال ، أو يصغى إلى ما أقول من حديث ، أمّا أن ينقلب أحد أولئك بعد ذلك خيِّراً أو شريراً ؛ فليس عدلا أن أحمل تهمته ، لأننى لم أعلمه شيئاً. وإن زعم امرؤ أنى . ربما علمته أو أسمعته شيئاً فى خلوة خاصة خفيت على الناس جميعاً ، فاعلموا أنه إنما يزعم لكم باطلا .

فإذا سئلت : لماذا يصادف الناس من حوارك المتصل لذة ومتاعا ؟ أجبت أيها الأثينيون بالحقيقة التى أنبأتكم بها ، وهى أنهم يستمتعون بشهادة أدعياء الحكمة فى امتحانهم ، فلهم فى ذلك لذة ، وذاك واجب أمرنى به الله ، كما علمت يقيناً من الرسل والرؤى ، وكل طريقة أخرى يمكن لإرادة القوى الإلهية أن تفصح بها عن نفسها لكائن من كان . أيها الأثينيون ! ذلك حق ، فإن كان افتراء فما أهون أن تكذبوه ، ولو كنت أفسد الشبان حقا ، وكنت قد أفسدت بعضهم فعلا ، لوجب أن يتصدى منهم للانتقام أولئك الذين تقدمت بهم السن فأدركوا ما نفثت لهم فى نصحى من سوء أيام الشباب ، فإن لم يفعلوا ذلك بأنفسهم وجب أن ينهض ذوو قرباهم أو آباؤهم أو إخوتهم ، أو من إلى هؤلاء ، فيقتضينى ما أنزلت بأبنائهم من سوء ، ها قد حان حينهم ، وإنى لأرى منهم فى المحكمة كثيراً ، ها هو ذا أقريطون يعدلنى سنًّا ، وهأنذا أرى ابنه

كريتوبوليس ، وذاك ليسانياس السفيطى أبو أشينس المحه بين الحضور ، وذاك أنتيفون السّفيسى . أبو أبجينوس ، وهؤلاء إخوة كثير ممن التفوا حولى ، فهناك نيكوستراتوس بن تيوسدوتيدو وأخو تيودوتس (وقد اختار الله تيودوتس إلى جواره ، فهو على أية حال لن يستطيع لى معارضة) وذلك بارالوس بن ديمودوكس ، وقد كان له أخ يدعى تياجس ، وأديمانتوس بن أرستون الذى أرى أخاه أفلاطون بين الحاضرين ، وكذلك أرى بينكم آنتودورس ، وهو أخو أبولودورس . ويمكننى أن أذكر غير هؤلاء كثيرين ممن كان لزاما مليتس أن يقدم منهم للشهادة من يشاء فى سياق دعواه ، ومع ذلك فادعوه الآن يستشهدهم إن كان قد فاته ذلك أولاً ، وسأفسح له الطريق . سلوه هل بين هؤلاء من يشهد له فيقدمه ؟ كلا أيها الأثينيون ، فنقيض ذلك هو الصحيح ، إذ هؤلاء لا يأبون أن يؤيدوا بالقول ذلك المتلاف الذى أفسد ذويهم ، - كما يسمينى مليتس ، وأنيتس ، إنى لا أستشهد الشبان الذين أفسدتهم فحسب ، فقد يكون عند هؤلاء ما يحيد بهم عن الحق ، ولكنى أستشهد ذويهم ، وهم بعيدون عن إفسادى ، ويكبرون أولئك سنا ، فلماذا يظاهروننى بشهادتهم ، إلا أن يكون ذلك تأييداً للحق والعدل ؟ فهم يعلمون أنى أقول الصدق ، أما مليتس فمفتر كذاب .

أيها الأثينيون ! هذا وما إليه هو كل دفاعى الذى وددت أن ألقيه ، ولكنى أرجو أن أضيف إليه كلمة أخرى : قد يكون بينكم من يصب علىّ

نقمته إذا ما ذكرت كيف أستجدى الشفاعة والرحمة بعينين باكيتين فى مثل هذا الموقف أو ما هو دونه خطرا ، وكيف ساق أبناءه إلى المحكمة فى جمع من أصدقائه وأقربائه لعله يحرك بذلك الرحمة فى النفوس ، ثم ينظر فلا يرانى أهم بمثل ذلك ، على ما يتهدد حياتى من الخطر ؛ قد يطوف بذهنه هذا فيقف منى موقف العداوة ، ثم يصوت وهو فى سورة من الغضب لأن موقفى لا يرضيه ، فإن كان ذلك الرجل بينكم ، ولا أحسبه كذلك ، فإليه أسوق الحديث رفيقاً : أى صديقى ! إننى رجل ككل الناس خلقت من لحم ودم لا من خشب وحجارة ، كما يقول هومر ، ولى أسرة ولى أبناء ، عدادهم - أيها الأثينيون - ثلاثة ، بلغ أحدهم الصبا وما يزال الآخران طفلين ، مع ذلك فلن أسوق إليكم منهم أحداً يستجديكم براءتى . ولم لا ؟ لست أصدر فى ذلك عن اعتداد بنفسى أو ازدراء لكم ، وسواء خشيت الموت أم لم أخشه فذلك شأن آخر لن أتحدث عنه الآن ، وإنما دفعنى إلى ذلك عقيدة أن ذلك تصرف يضع من قدرى ويحط من شأنكم ويصم الدولة بأسرها وصمة العار ، فلا يجوز لرجل قضى من العمر ما قضيت ، وذاع صوته فى الحكمة بحق أو بغير حق ، أن يحقر من نفسه . فمهما يكن من أمر ، فقد استقر رأى الناس أجمعين على أن سقراط يفضل من عداه فى إحدى نواحيه ، فإن كان أولئك الذين يقال عنهم إنهم يفضلوننى فى حكمة وشجاعة وما شئت من فضيلة ، يمتهنون أنفسهم بمثل ذاك السلوك ، فواخجلتاه مما يفعلون ! فقد شهدت ناساً من ذوى الصوت الذائع يفعلون ساعة الحكم عليهم عجباً عجابا فبدوا كأنما خيل إليهم أنهم

ذاهبون ، إذا قضيتم عليهم بالموت ، إلى حيث الرعب والجزع ، كأنهم حسبوا أن لو خليتم بينهم وبين الحياة السبيل فسيكونون من الخالدين ، إنما هؤلاء فى حسابى وصمة عار فى جبين الدولة ، ولو أبصرهم وافد غريب لانقلب إلى أهله يروى عن أثينا أن أعلام رجالها الذين يرفعهم الأثينيون فوق الهام ويسلمونهم زمام الأمر ، لا يفضلون الناس فى شىء ، ولا يجوز فى اعتبارى أن يكون ذلك من هؤلاء الذين بلغوا بيننا شأواً عظيما، فإن وقع فلا تدعوه حادثاً يمضى ، ولا تأخذكم بهم هوادة وخذوا بالشدة كل من يقف منكم هذا الموقف المتوجع ، لأنه بذلك يعرض المدينة للسخرية ، ولا كذلك الصابر الوديع .

ودعوكم من العار ، فيلوح لى أن فى استرحام القاضى واستجدائه العفو فى مكان إقناعه وإنبائه بالنبأ الصحيح خطلاً ، فليس واجب القاضى أن يمنح العدالة منحاً ، بل عليه أن يحكم حكما عادلاً ، وقد أقسم أن يحكم وفق القانون ، دون أن يميل مع الهوى ، ولا يجوز له ولا لنا أن نتعود الحلف باطلاً ، فلا أحسب فى ذلك شيئاً من الورع والتقوى . فلا تريدونى إذن على أن أفعل ما أعده فجوراً وشيئًا وخطلا ، ولا سيما وأنتم تحاكموننى فيما ادعاه مليتس عنى من فجور ، فلو استطعت أيها الأثينيون أن أحيد بكم بالإغراء والرجاء عن قسمكم لكنت بذلك معلمكم الكفر بالآلهة ، ولانقلب دفاعى علىّ اتهاما بالزيغ عن الإيمان ، ولكن الواقع غير هذا فعقيدتى فى الآلهة قائمة على شعور أسمى جداً مما تقوم عليه عقيدة أى مدع من المدعين . فأنا أضع قضيتى أمامكم وأمام الله لتحكموا فيها بما هو خير لى ولكم .

وهنا حكم على سقراط بالموت

*

أيها الأثينيون ! لقد قضيتم بإدانتى ، فلم يُثر شجنى هذا القضاء ، وعندى لذلك أسباب كثيرة ، فقد كنت أتوقع ذاك ؛ ولشد ما أدهشنى أن كادت تتعادل الأصوات ، فقد ظننت أن فريق الأعداء لابد أن يكون أوفر من ذلك عدداً ، وإذا بكفة البراءة لو زاد مؤيدوها ثلاثين صوتاً لرجحت ، أفلم أظفر بهذا على مليتس ؟ بل إنى لأذهب إلى أبعد من الظفر فأزعم أنه لولا أن ظاهره أنيتس وليقون لما ظفر بخمس الأصوات الذى يحتمه القانون ، ولاضطر تبعاً لذلك إلى دفع غرامة قدرها ألف دراخمة كما ترون .

ولذلك يقترح أن يكون الموت جزائى ، فماذا أقترح بدورى أيها الأثينيون[1] ؟ بالطبع ما أرانى جديراً به . فماذا ينبغى أن أبذل من غرم أو أنال من غنم ! ماذا أنتم صانعون برجل لم يوفقه الله أبداً ليصطنع البلاد طوال أيام حياته ، وأهمل ما عُنيت به كثرة الناس - أعنى الثروة ومصالح الأسرة والمناصب الحربية ، ولم يقل فى جمعية الشعب قولاً ولم يشترك فى مجالس الحكام ، ولم يساهم فى الدسائس والأحزاب بنصيب ؟ كلما فكرت أنى كنت رجلا بلغ من الشرف حداً بعيداً فسلكت من سبل الحياة ما

(١) كان من عادة الأثينيين أن يقترح المدعى حكماً والمدعى عليه حكماً آخر ثم ترى المحكمة بعد ذلك رأيها .

سلكت ، لم أقصد إلى حيث لا أستطيع أن أعمل خيراً لكم ولنفسى ، بل التمست طريقاً أمكنتنى أن أقدم لكل منكم على حدته خيراً عظيما ، وحاولت أن أحمل كل رجل بينكم على وجوب النظر إلى نفسه لينشد الفضيلة والحكمة قبل أن ينظر إلى مصالحه الخاصة ، وأن يضع الدولة فى اعتباره فوق مصالحها ، فيكون ذلك دستورا لأعماله جميعاً . ماذا أنتم صانعون بمثل هذا الرجل أيها الأثينيون ! لا إخالكم إلا مجازيه خيراً إن كان لابد من الجزاء ، ويجدر بإحسانكم أن يجىء ملائما لحالته ، فماذا يحسن رجل فقير أحسن إليكم الصنيع ، ويرغب فى الفراغ ليتمكن من تعليمكم ، سوى أن يظل أبداً فى مجلس الدولة ؛ وإنه أيها الأثينيون لأجدر بهذا الجزاء ممن كوفئ فى أوليمبيا فى سباق الخيل أو سباق العجلات ، سواء أكان يشد عجلته جوادان أو أكثر ، لأننى فقير محتاج ، وذاك غنى عنده ما يسد منه العوز ، على أنه لا يعطيكم إلا سعادة ظاهرية ، أما أنا فأدلكم على الحقيقة . فإذا كان لى أن أقدر لنفسى عقوبة عادلة ما قلت بغير البقاء فى مجلس الدولة جزاء أوفى .

قد يذهب بكم الظن أنى إنما أتحداكم بهذا كما فعلت حينما حدثتكم عن الضراعة والبكاء ، كلا فليس الأمر كذلك ، إنما أقول هذا لأننى أعتقد أننى لم أسىء إلى أحد عامداً ، ولا أظننى قادرا على إقناعكم بذلك فى هذا الحوار القصير ، فلو كان فى أثينا قانون - كما هى الحال فى سائر المدن - لا يبيح حكم الإعدام فى يوم واحد ، لاستطعت فيما أعتقد أن

أقنعكم ، أما الآن فالفتـرة وجيزة ، ولا يمكننى أن أدحض فى لحظة هؤلاء المدعين الفـحـول ، وإن كنت كمـا ظننت لم أسىء إلى أحـد فلن أتقـدم بالإساءة إلى نفسى قطعـاً ، وإذن فلن أعترف بنفسى بأنى حـقيق بالسوء ، ولن أقترح عقوبة ما ؛ ولماذا أفعل؟ أخوفاً من الموت الذى يقترحه مليتس ؟ على حين أنى لا أعلم إن كان الموت خيرا أم شرا ! لماذا أقترح عقاباً فيكون شرا مؤكدا لا مفر منه ؟ أأقترح السجن ؟ ولماذا أزج فى غياهبه فأكون عبدا لحكام هذا العام - أعنى الأحد عشر ؟ أم أقـترح أن أعاقب بالتغريم ، وأن أسجن حتى تدفع الغرامة ؟ فالاعـتراض بنفسـه قائم لأننى لابد أن ألبث فى السجن ، لأننى لا أملك مالاً ولا أستطيع دفعاً ؛ وإن قلت النفى (وربما قر رايكم على هذه العقوبة) وجب أن يكون حب الحيـاة قد أعمى بصيرتى ، لأنكم وإنتم بنو وطنى لا تطيـقون رؤيتى ولا تسـيغون كـلامى ، لأنه فى رأيكم خطر ذميم ، فـوددتم لو نجوتم من شرى عسى أن يطيـقه سواكم ، فما حياتى فى هذه السن ، ضارباً من مدينة إلى مدينة مشرداً أبدا ، طريداً دائماً ، يلفظنى البلد فى إثر البلد ، فـما أرتاب فى التفاف الشـبان حولى أينمـا حللت كمـا فعلوا (سقـراط يقبل مـا أريد له من قضـاء) هنا ، فلو نفضتهم رغبوا إلى أوليائهم فى طردى فاستجابوا لرجائهم ، ولو تركتهم ، يسعون إلىّ طردنى آباؤهم وأصدقاؤهم صوناً لأنفسهم .

رب قائل يقول : نعم يا سقراط ، ولكن ألا تستطيع أن تمسك لسانك حتى إذا ارتحلت إلى مدينة أخرى ما اشتبك إنسان معك ؟ وعسير جدا أن

افـهمكم جـوابى عن هذا السؤال ، فلو أنـبأتكم أنى لو فـعلت ذلك لكان عصـياناً منى لأمـر الله ، ولذلك لا أملك حبسـاً للسانى ، لما صـدقتم أن يكون جدا ما أقول ، ولو قلت بعد ذلك إن أعظم ما يأتيه الإنسان من خير هو أن يحاور كل يوم فـى الفضيلة ومـا يتصل بما سمـعتـمونى أسائل فـيه نفسى وأسـائل الناس ، وإن الحيـاة التى تخلو من امـتحان النفس لـيست جديرة بالبقـاء ، كنتم لهذا أشد تكذيباً ، ولكنى لا أقول إلا حـقا وإن عز على إقناعكم بصدقه : إنى لم أعهد نفسى جـارمة تستأهل العقاب ، ومع ذلك فلو كـان لدى مال لاقـترحت أن أعطيكم مـا أملك ، ولم يكن ذلك ليضيرنى فى شـىء ، ولكنكم ترون أنى لا أملك مالاً ، لا بل أظننى قادرا على دفع مينة واحدة (المينة تساوى مائة دراخمة) ولذا اقترح هذه العقوبة ؛ إن أصدقـائى : أفـلاطون ، وأقريطون ، وكـريتـوبوليس ، وأبولودورس ، وهم بين الحاضرين يرجون منى أن أقول ثلاثين مـينة ، يضمنون هم دفعها ؛ حسـناً ، إذن فاحكموا بثـلاثين مينة ، ولتـكن هى عقوبتـى ، وأحسب هؤلاء كفلاء بدفعها .

*

أيها الأثينيون ! لن تفيدوا بقتلى إلا أمدا قـصيرا ، وستدفعون له ثمنا ما تنطلق به ألسنة السوء تذيع عن المدينة العار ، سـتقول عنكم إنكم قتلتم سقراط الحكيم ، فسيـدعوننى وقتئذ بالحكيم وإن لـم أكن حكيمـاً تقريعاً لكم ، ولو صبرتم قليلاً لظفرتم بما تبتغون بطريق طبيعى ، فلقد طعنت فى

السن كمـا ترون ، ودنوت من أجلى ؛ إنما أسوق هذا الحـديث إلى هؤلاء الذين حكمـوا علىّ بالموت ، وأحب أن أضـيف إليهم كلمـة أخرى : قـد تحسبون أن اتهامى جاء نتيجة لعىٍّ لسانى ، فلو قد آثرت أن أفعل كل شىء وأن أقول كل شىء ، لجاز لى أن أظفر بعـفوكم ، ولكنى لم أفعل ذلك ، فليس عـيـا فـى لسـانى ما أدى إلى إدانتى ، ولـكنه ترفعى عـن القحـة والصفاقـة ، وصدوفى عن مخاطبتكم بما كنت تحـبوننى أن أخاطبكم به : بالعويل والبكاء والرثاء ، وأن أقـول وأفعل كثيـرا مما تعودتم استمـاعه من الناس ، وهو لا يجمل بى كـما ذكرت ، فقد رأيت واجـبى ألا أتبذل فى العـمل ، أو أسف فى سـاعة الخـطر ، ولست آسف على مـا سلكت من طريق للدفاع ، فإنى لأوثر خطتى التى رسـمتها ولو أدت بى إلى الموت ، على أن أصطنع خطتكم احـتفاظاً بالحـياة ، فلا يـجوز لإنسان فى سـاحة الوغى أو أمـام القانون أن يلتـمس أى سـبيل فـراراً من الموت ؛ فلو ألقى المحارب بسلاحه فى المعمعة ، وجثا على ركـبتيه أمام مطارديه لظفر غالباً بالنجـاة مــن الموت ، ولكل ضـرب من ضـروب الخطر طرق للنجـاة من الهلاك ، إذا لم يـتعفف المرء عن كل قـول وكل فعل مـهما يكـن شائناً ، فليس عسيرا أيها الأصدقاء أن نفر من وجه الموت ، ولكن العسر كل العسر فى تجنب الأخلاق الفاسـدة ، فالفساد والموت يعـدوان فى أعقابنا ، ولكن الفساد أسرع من الموت عدوا ، فأنا الذى اكتهلت ، إنما أسير سيرا وئيدا ، فيكاد يدركنى أبطأ العادين ، أما المدعون فسراع متحمسون ، وسيلحق بهم أسرعهـما - أعنى الفساد ؛ وبعـد فسأترك موقفـى هذا ، وقد جرى علىّ

قضاؤكم بالموت ، وكـذلك هم سينطلقون كل إلى سبيله ، وقد قـال فيهم الحق كلمـته ، بأن يعانوا مـا هم فيـه من ضعة ، ولابد لـى أن أخضع لما حكم على به ، وعليـهم كذلك أن يرضـوا بما كتب لهم ، أحـسب أن قد جرى القدر بهذا جميعاً ، فعسى أن يكون خيرا ، ولا أحسبه إلا كذلك .

وبعد ، فيا هؤلاء الذين أجروا على قضاءهم هاكم نبوءتى التى أحب أن أبلغكم إياها ، لأنى مُشْفٍ على الموت ، وتلك ساعـة يوهب فيها المرء مقدرة على التنبؤ . أتنبـأ لكم يا قاتلىّ بأنه لن يكاد ينفذ حكم الموت حتى ينزل بكم ما هو أشد من ذلك هو لا ، لـقد حكمتم بموتى ، لأنكم أردتم أن تفلتوا من ذاك الذى يتهمكم ، ولكيلا تحاسبوا على ما قدمت أيديكم ، ولكن لن يكون لكم ما ترجون ، بل نقيضه . فسيكون متهموكم أوفر عدداً منهم اليـوم ، إذ سيـهب فى وجـوهكم من كنت مُسكِتهم حـتى الآن ، وسيكون أولئك أشـد قسوة عـليكم لأنهم دونكم سنا ، وسيـذيقونكم من العذاب أكثـر مما تذوقون اليوم ، فإن حسـبتم أنكم خالصون من مـتهمكم بقتله ، كى لا ينـغص عليكم عيشكم ، فـأنتم مخطئـون ، إذ ليست تلك سبيـلا مؤدية إلى الفرار ، ولا هى مما يشرفكم ، وأيـسر من ذلك وأشرف ألا تهاجمـوا الناس ، بل تبادروا بإصلاح أنفـسكم . تلك هى نبؤتى التى أبلغها إلى القضاة الذين حكموا علىّ قبل رحيلى .

وأنتم أيها الأصدقاء الذين سعوا إلى براءتى ، أحب كذلك أن أتحدث إليكم عمـا وقـع ، عندما يشـغل الرؤساء ، وقـبل أن أذهب إلى مـكان

موتى ، فالبثوا قليلا ، لأننا نستطيع أن يتحدث بعضنا إلى بعض مادامت هناك فسحة من وقت . أنتم أصدقائى وأحب أن أدلكم على معنى هذا الذى وقع . يا قضاتى - فأنا أدعوكم قضاة بحق - أحب أن أحدثكم بأمر عجيب ، لقد كانت مشيرتى حتى الآن ، تلك المشيرة التى عهدتها فى دخيلتى ، لا تفتأ تردنى فى توافه الأمور ، إن كنت مقدماً على زلل أو خطأ فى أى شىء ، والآن - كما ترون - قد داهمنى ما يحسبه إجماع الناس أقصى الشرور وأقساها ، ولم تلُوِّح لى مشيرتى بعلامة المعارضة حينما تركت دارى فى الصباح ، ولا حين كنت أصعد إلى هذه المحكمة ، ولا حين ألقيت كل ما اعتزمت أن أقوله ، ومع أنى عورضت كثيرا أثناء الحديث ، إلا أن المشيرة لم تعارضنى فى كل ما قلت أو فعلت مما يتصل بهذا الأمر ، فبم أعلل هذا ، وكيف أفهمه ؟ سأخبركم : إنى أعد هذا دليلا على أن ما حدث لى هو الخير ، ويخطئ من يظن منا أن الموت شر . هذا دليل ناهض على ما أقول ، لأن الإشارة التى عهدتها لم تكن لتتردد فى معارضتى لو كنت مقبلا على الشر دون الخير .

لنقلب النظر فى الأمر ، وسنرى أن ثمة بارقة قوية من الأمل تبشر بأن الموت خير . فإحدى اثنتين : إما أن يكون الموت عدماً وغيبوبة تامة ، وإما أن يكون كما يروى عنه الناس تغيراً وانتقالا للنفس من هذا العالم إلى عالم آخر . فلو فرضتم فيه انعدام الشعور ، وأنه كرقدة النائم الذى لا تزعجه حتى أشباح الرؤوس ، ففى الموت نفع لانزاع فيه ، لأنه لو أتيح لإنسان أن

يقضى ليلة لايزعج نعـاسه فيهـا شىء ، حتى ولا أحلامه ، ثم قـارنها بما سلف فى حياتـه من ليال وأيام ، وسأل بعد ذلك : كم يوماً قـضاهـا بين أعوامه وكـانت أبـهج مـن تلك الليلة وأسعد ؟ فـلا أحسب أحداً - ولا أختص بالقول أحداً - بل لن يجد حتى أعظم الملوك بين أيامه ولياليه كثيراً من أشباههـا . فإذا كان الموت كهـذا فأنعم به ، وليس الخلود إذن إلا ليلة واحدة ! أمـا إن كان الموت ارتحـالا إلى مكان آخر ، حـيث يستـقر الموتى جميعـاً كما يقال ، فأى خير يمكن أن يكون أعـظم من هذا أيها الأصدقاء والقضاة ! وإذا كان حقا أنه إذا بلغ الراحل ذلك العالم الأدنى ، خلص من أساطين العدل فى هذا الـعالم ، وألفى قضاة بمعنى الكلمـة الصحيح ، إذ يقال هناك فى أيدى مينوس ، ورادامنتوس ، وايكورس ، وتربتموليموس وسائر أبناء الله الذين عمروا حياتهم بأقوم الأخلاق ، فما أحب إلى النفس ذاك الارتحـال وهل يـضـمن الرجل بـشىء إذا أتيح له أن يـتكلم مـع أورفيوس، وموسيوس ، وهزيود ، وهوميروس ؟ كلا ، ولو كان هذا حقاً فذرونى أمت مرة ومرة ، فـسأصادف متاعاً رائعاً فى مـكان أستطيع فيه أن أتحـدث إلى بالاميـدس ، وأجـاكس بن تلامـون ، وغـيـرهم من الأبطال القدامى الذين تجرعوا المنون بسبب قضاء ظالم ، ولا أظننى حين أقارن الآن آلامى بآلامهم إلا مغتبطاً مسـروراً . وفوق كل هذا فسأتمكن من استئناف بحثى فى المعـرفة والحق ، والمعرفة الزائفـة ، وكما فعلت هنا سـأفعل فى العالم الـثانى ، وسأكـشف عن الحكيم الصحـيح ، وعمن يدعى الحـكمة

باطلا . بماذا يضن الرجل أيهـا القـضاة إذا أتيح له أن يمتـحن قائد الحـملة الطروادية الكبرى أو أوذيس ، أو سسـفوس وغير هؤلاء ممـن لا يقعون تحت الحصر رجالا ونساء ؟ ألا ما أعظمها غبطة لاتحد تلك التى أجدها فى نقاشهم ومـحاورتهم ، لأنهم فى ذلك العالم لن يقضـوا على أحد بالموت من أجل هذا . كلا ولا ريـب ، هذا فضلا عـما يصادفـه الناس فى ذلك العالـم مـن سعـادة عزت على هذه الدنيـا فإن صح ما يـقال فهـم ثمة خالدون .

فابتسموا إذن للموت أيها القضاة واعلموا علم اليقين أنه يستحيل على الرجل الصالح أن يصاب بسوء ، لا فى حيـاته ولا بعد موته ، فلن تهمله الآلهة ، ولن تهمل ما يتصل به ، كلا ، وليـست ساعتى الآزفة قد جاءت بها المصـادفة العـمياء ، فـلست أرتاب فى أن الموت مع الحرية خـير لى ، ولذلك لـم تشر مشيرتى بشىء .

ولست لهذا غاضباً من المدعين ، أو ممن حكموا علىّ فما نالتنى منهم إساءة ، ولـو أن أحداً منهم لم يقـصد إلى أن يعـمل معى خـيراً ، وقـد أعاتبهم لهذا عتاباً رقيقا .

وإن لى عندهم لرجاء ، فأنا ألتـمس الأصدقاء ، إذا ما شب أبنائى ، أن تنزلوا بهم العـقـاب . وأحب أن تؤذوهم كـمـا آذيتكم ، وذلك إن بدا منهم اهتمام بالثروة ، أو بأى شىء أكثـر مما يهتمون بالفضيلة ، أو إذا هم ادعوا أنهم شىء ، وكـانوا فى حقيقـة الآمر لا شئ . إذن فأنحـوا عليهم

باللائمة كمـا فعلت معكم ، لإهمالهـم ما ينبغى أن يبذلوا فيـه عنايتهم ، ولظنهم أنهم شيء على حين أنهم فى الواقع لا شيء . فـإذا فعلتم هذا ، أكون قد نالنى ونال أبنائى العدل على أيديكم .

لقد أزفت ساعـة الرحيل ، وسينصرف كل منا إلى سـبيله ؛ فأنا إلى الموت ، وأنتم إلى الحياة ، والله وحده عليم بأيهما خير !

مقدمة «أقريطون»

لا يعلم على وجه الدقة إن كان هـذا الحوار قد وقع بهذا النص الذى أثبته أفلاطون أم اخترعه اختراعا ، ومهما يكن من أمر فقد صور أفلاطون سقراط فى هذا الحوار ، لا فى رداء الفيلسوف الذى يؤدى فى حياته رسالة إلهيـة ، ولكن فى صورة ابن الوطن الصالح الـذى يقبل على الموت رضى النفس مطمئن الضمير ، تنفيذاً لقوانين الدولة ، التى يرى وجوب احترامها حتى ولو كانت فى قضائها جائرة كما هى الحال فى قضيته .

ها هو ذا أجل سقـراط يدنو من ختـامه ، فلقـد أنبأه «أقريطون» ، صديقـه الشيخ حين زاره فى سـجنه قبيل بزوغ الفـجر ، أن السـفينة التى بوصولها ينفذ حكم الإعدام ، قد شوهدت وهى تقلع من «صنيوم» . هذا وإن سقراط نفسه قد رأى فى نومه أنه سيفارق الحياة فى اليوم الثالث . . . إذن قد أزف الموت فالوقت ثمين ، ولهذا جاء أقريطون مبكراً لكى يحمل الفيلسوف على الفـرار الذى هيأ له الأسباب ، وما كان تدبير فـراره عسيراً على أصدقائه الذين لن يصادفوا فى تخليصه خطراً يـعدل ما سيصيبهم من العار لو تركـوه بين يدى الموت . . . نعم جاء أقريطون قبيل بـزوغ الفجر يغرى الفـيلسوف أن يعمـد إلى الفرار ، فواجـبه أن يفكر فى أبنائه ، وألا يذر نفسه لعبة أعدائه ، وإنه لمستعد أن يمده بالمال ، حتى إذا ما ارتحل عن أثيـنا لم يجد عـسراً فى أن يجد له كثيـراً مـن الأصدقاء الأوفيـاء . فيرد

سقراط بأنه يخشى أن يكون أقريطون قد تأثر برأى الكثرة مع أن سقراط لم يكن يعنى فى ترجيح الرأى بكثـرة قائليه ، بل كان يستـمع إلى ما يمليه العـقل ، وإلى الرجل الواحد الذى يـكون حكيمـا حتى ولو عـارض رأى الكثرة الغـالبة ، أم يسلم أقريطون نفسه فـيما سبق من الأيام بـصحة هذا الرأى ، فلا ينبغى لأحد أن ينساق لرأى الناس إن كـان مخالفاً للعقل ، إذ لا خـير فى الحـياة إلا إذا كـانت خيِّـرة عـادلة ، فلا عـبرة إذن بما يقـوله أقريطون مما قد يلحقهم من سوء الأحدوثة ، أو قد يلحق أبناء سقراط من أذى وإهمـال ، فـلا سـوء الأحـدوثة ، ولا أذى الأبناء بمبـررين كافـيين للفـرار ، إنما السـؤال الذى يجب أن يُلقى هو هذا : هل من الصـواب أن يحاول الهرب ؟ وأقريطون خير من يجيب على هذا السؤال لأنه سـيبحثه بحث المحايد الذى لا يتأثر بموت مقبل كما كان سقراط حينئذ . إنه حدث قبل محـاكمة سقراط أنه ناقش أصدقاءه ومنهم أقريطون فأجمـعوا عندئذ على أنه لا يجوز لأحـد أن يقترف الشر أو أن يرد الشر بالـشر ، فهل من الحكمة أن ينكص سقراط على عقبيـه وينقض ما كان قرره ، لا لشىء إلا لأن ظروفه قـد تغيرت ؟ فلا يسع أقريطون أن يسلم بأن المبادئ الصحيحة يجب اتباعهـا ، فيسأله سقراط : وهل يتفق الفـرار مع تلك المبادئ التى أقـروها مـعاً ، فـلا يسـتطيع أقريطون أن يجيب ، أو قل إنه لم يرد أن يجيب .

فيمضى سقراط قائلاً : هب قوانين أثينا جاءته فحاسبته لماذا يحاول أن

يثور عليها ، فماذا هو قائل ؟ أيقول لأنها أساءت إليه ، وعندئذ تجيبه القوانين بأن ذلك يخالف ما بينها وبينه من اتفاق وعهد ، فإنه قد جاء إلى العالم فى ظلها ، ونشأ وترعرع فى كنفها ، فإذا لم تكن توافقه فلماذا لم يخلّف أثينا ويقصد إلى حيث يشاء من بلاد الأرض حيث تطيب له القوانين ؟ ولكنه على عكس ذلك عاش فى أثينا سبعين عاماً متصلة ، وهو أمد طويل لم يتوفر لأحد غيره من أبناء المدينة .. هكذا بين سقراط لصديقه أقريطون أن بينه وبين قوانين المدينة عهداً لا يقوى على نكثه دون أن يتعرض هو للعار ، ودون أن يتعرض أصدقاؤه للخطر . إنه كان يستطيع أثناء محاكمته أن يقترح على القضاة عقوبة النفى ، لكنه أعلن حينئذ أنه يؤثر الموت على النفى ، وهبه هاجر أثينا فأين يذهب ؟ إنه إذا قصد إلى دولة منظمة القوانين عَدَّتْ قوانينها عدواً لها ، وإذن فلن يستطيع أن يرتحل إلا حيث الفوضى كتساليا مثلاً ، ثم افرض أنه قصد إلى بلد لا قانون فيه مثل تساليا هذه ، فماذا عساه صانع فيها ؟ أيمضى فى إلقائه دروس الفضيلة على الناس ؟ إن ذلك يكون قحة منه لا تحتمل . ثم ماذا يفيد أبناؤه إن هو استصحبهم إلى تساليا فأضاعَ عليهم شرف الانتماء إلى أثينا ؟ فإن قلنا يخلفهم وراءه فى أثينا تحت رعاية أصدقائه ، فماذا يمنع رعاية الأصدقاء لأبنائه بعد موته ، أم الأصدقاء الأوفياء يخلصون له العهد ما دام حيا ؛ فإن تولى ذهب وفاؤهم ؟

كلا إنه ينبغى أن ينظر إلى العدالة أولاً ، ثم إلى الحياة والأبناء ثانياً ،

فليرحل فى براءة وسلام دون أن يلوث نفسه بفعل الشر ، هذا هو صوت وحيه فليصدع بما يأمر الوحى .

*

أراد أفلاطون بهذا الحوار أن يرد التهمة التى طالما ترددت فى سقراط من أنه لم يكن مواطناً صالحاً لمدينته ، ويظهر أن أفلاطون لم يكن يقصد بهذا الدفاع عن أستاذه إلى أهل أثينا فى ذلك الحين ، بل هو يتوجه به إلى الأجيال المقبلة كلها ليريهم كيف كان سقراط على أتم الولاء للقوانين ، وأنه لم يكن قط ثائراً عليها ناقضاً لها .

ونحن لا نستطيع أن نجزم برأى فى صحة زيارة أقريطون لسقراط فى السجن ، واقتراحه عليه الفرار وتزيينه له وإغرائه به ، وليس من العسير على أفلاطون أن ينتحل هذا الحادث انتحالاً ليؤلف عليه الحوار ، وشاء فن أفلاطون أن يختار أقريطون دون سائر الأصدقاء ليعرض على سقراط خطة الفرار ، لأنه كان كهلاً رزيناً ، صديقاً وفيا لسقراط ؛ فكان بهذه الصفات أنسب من يتقدم لسقراط بمثل هذا الاقتراح على فرض حدوثه .

وإن فقهاء القانون ليختلفون فى هل يحق للرجل أن يفلت هارباً إذا قضت عليه قوانين دولته بحكم جائر ، فلا تعدم بينهم من يقول إن سقراط كان يجب عليه أن يهرب ليعيش مؤثرا عمل الخير على موت مجيد ، ولكن أفلاطون لم يتعرض فى الحوار لمثل هذه الاعتراضات واكتفى بأن

يعرض المثل الأعلى للفضيلة التى تأبى أن ترتكب أهون الشر لكى تتخلص من أعظمه ، وإنه ليصور أستاذه متمسكا قرب موته بالآراء التى اعترف بها فى حياته ، فلقد لبث سقراط حتى النهاية متشبثاً بالمبدأ القائل الا نأبه لما يقول الناس بل العبرة بما يقوله «الفرد الحكيم» ، فلا ينبغى أن ننقاد إلا للعقل وحده حتى ولو انتهى بنا إلى الموت .

إن هذا الحوار الصغير مثل رائع للجدل الصحيح ، إذ ترى فيه كيف إذا سلمت بالمقدمة فلا مهرب من نتائجها .

أقريطون
أو واجب المواطن

أشخاص الحوار : سقراط . أقريطون

مكان الحـــوار : سجن سقراط

سقـراط : ما الـذى أتـى بك السـاعة يـا **أقريطون** ؟ إنها الآن جد

أقريطون : بلى إنها لكذلك .

سقراط : كم هى على التحديد ؟

أقريطون : الفجر فى البزوغ .

سقراط : عجيب أن يأذن لك حارس السجن بالدخول .

أقريطون : إنه يعرفنى يا سقـراط لأننى جئت مـراراً ، ولأننى فوق ذو فضل عليه .

سقراط : أجئت الآن تواً ؟

أقريطون : كلا بل جئت منذ حين .

سقراط : إذاً فما الذى أجلسك صامـتاً ، وكان أخلق بك أن توقظنى الفور ؟

أقريطون : حقا يا سقراط إنى لم أكن لأرضى لنفسى كل هذا الغم والأرق ، ولكنى أخذت بالعجب أن رأيتك فى نعاس هادئ ، فلم أرد لهذا أن أوقظك ، وآثرت لك أن تظل بعيداً عن الأسى ، لقد عرفتك دائماً سعيداً بما لك من مزاج هادئ ولكنى لم أر الدهر ضريباً لك فى احتمالك لهذا المصاب مستخفا باسماً !

سقراط : إن الإنسان يا أقريطون إذا عمر ما عمرت فلا ينبغى له أن يجزع من شبح الموت .

أقريطون : ولكن سواك من الكهول ، إذا ما نزلت بهم أشباه هذه الكوارث لا يمنعهم الهرم من الجزع .

سقراط : قد يكون ذاك ، ولكن هلاّ حدثتنى عما أتى بك فى هذه الساعة الباكرة ؟

أقريطون : أتيت أحمل نبأ مؤلماً يبعث على الشجن ، لا بالنسبة إليك فيما أظن ، بل بالنسبة لنا جميعاً - نحن أصدقاءك - وهو عندى أبلغ ما يكون إيلاماً .

سقراط : ماذا ؟ أحسب أن قد عادت السفينة من ديلوس[1] ووصولها نذير بموتى ؟

---

(١) قد كان للأثينيين شهر حرام يمتنع فيه إعدام المجرمين ، وهو شهر كانت تمضى فيه سفينة مقدسة إلى معبد ديلوس ثم تعود ثانية فلم يكن يجوز أن ينفذ الموت فى أحد من أبناء أثينا مادامت السفينة فى رحلتها تلك ولذا كان لابد لسقراط بعد الحكم عليه أن يظل فى سجنه حتى تعود السفينة .

أقريطون : كلا ، لم تبلغنا السفينـة بعد ، ولكنها ربما وصلت اليوم، فقد أنبأنى أناس جاءوا من صونيوم ، أنهم خلفوها هناك ، وإذن فآخر يوم من حياتك يا سقراط هو الغد .

سقراط : مرحى يا أقريطون ، إن كانت هذه إرادة الله فمـرحباً بها ، ولكنى أعتقد أن سيؤجل الأمر يوماً آخر .

أقريطون : ومن أنبأك هذا ؟

سقـراط : هاك الخبر . إنـــى بالغ أجلى فى اليـوم التالى لوصـول السفينة .

أقريطون : نعم ، وهذا ما يرويه أولو الأمر .

سقـراط : ولكنى لا أظن السفـينة بالغتنا إلا غـداً . عرفت ذلك من رؤيا رأيتـها ليلة أمس ، بل كنـت أراها الآن توا ، حين تركتنى - لحـسن حظى - نائماً .

أقريطون : وكيف كانت رؤياك تلك ؟

سقراط : جاءتنى شبيهة امرأة جـميلة وسيمة ، تدثرت بثوب أبيض ، وصاحت بى قائلة : يا سقراط : إنك ذاهب إلى أخراك فى اليـوم الثالث منذ الآن .

أقريطون : ما أعجبه من حلم يا سقراط !

سقراط : معناه ظاهر يا أقريطون ، وليس فيه مجال للريب .

أقريطون : نعم إنه جلى غاية الجلاء ، ولكن ، أواه ! يا عزيزى سقراط ، دعنى أتوسل إليك مرة أخرى ، أن تأخذ بنصحى فتعمد إلى الهروب ، لأنك إذا مت فلن أفقد فيك صديقاً فريداً وكفى ، ولكن ثمة فوق ذلك شرا : سيزعم من لا يعرفك ولا يعرفنى من الناس أنى كنت أستطيع لك النجاة لو أننى رغبت فى بذل المال ، ولكنى لم أعبأ بك ، أفيمكن أن يكون بعد هذا العار عار - أن يقال إنى آثرت المال على حياة صديق ؟ وهيهات أن يقتنع الدهماء بأنى أردتك على الفرار فرفضت .

سقراط : وفيم العناية بحديث الدهماء يا عزيزى أقريطون سترى الفئةُ الصالحةُ فى ذلك رأياً صواباً يطابق ما وقع ، وهى وحدها جديرة بالإعتبار[1] .

أقريطون : ولكنك ترى يا سقراط أن رأى الدهماء لابد من اعتباره وذلك ظاهر فى قضيتك أنت ، ففى مقدورهم أن ينزلوا أفدح المحن بمن لم يظفر عندهم بالرضى كائناً من كان .

سقراط : ليتهم يستطيعون ذلك يا أقريطون فذلك كل ما أرجوه ، إذ لو استطاعوا لكان كذلك فى وسعهم أن يفعلوا أعظم الخير ، فيكون ذلك

---

(١) يعبر سقراط فى هذا عن رأيه الذى أخذ به فى حياته ، وهو الا يعير رأى الناس التفاتاً ، والا يصغى إلا إلى ما يمليه العقل الحكيم دون سواه كائنا ما كان وقعه عند الناس .

منهم جميلا . ولكنهم فى حقيقة الأمر عاجزون عن فعل الخير والشر على السواء ، وليس فى مقدورهم أن يصيّروا الرجل حكيماً او فدماً ، وكل أفعالهم وليدة المصادفة .

أقريطون : نعم ولست منازعك فى ذاك ، ولكن هلاً تفضلت فأنبأتنى يا سقراط - إن كنت لا تغض النظر عنى وعن سائر أصدقائك فيما تصرف من الأمر - ألست تخشى أنك إن فررت من هذا المكان فقد يصيبنا النمامون بالضرب بسبب اختطافك ، وأنا قد نفقد أملاكنا كلها أو جلها ، أو قد ينزل بنا من الشر ما هو أشد من ذلك هولاً ؟ فليطمئن قلبك إن كان ذلك ما تخشاه ، فواجب حتم علينا أن نخاطر بهذا ، وبما هو أعظم من هذا فى سبيل نجاتك ، فاقتنع إذن بما أقول ، وأفعل بما اشير .

سقراط : نعم يا أقريطون وليس هذا الذى ذكرته كل ما أخشى ، وإن يكن جانباً منه .

أقريطون : لا تخف . إن هناك نفراً يرد لو ينجيك فينتزعك من غيابة السجن ، ولن يكلفهم ذلك شططاً ، أما النمامون فهم كما ترى لا يشتطون فى الطلب ، ويقنعهم من المال قليله . إن مالى بأسره رهن إشارتك ، وهو كاف فيما اعتقد ، فإن أشفقت أن ينفد كله ، فها هم أولاء نفر من الغرباء يمدونك بما يملكون ، وهذا أحدهم سمياس الطيبي قد احضر معه لهذا الغرض نفسه مبلغاً من المال . وذلك سيبيس وغيره

كثيرون ، يتمنون أن يبذلوا فى سبيلك أموالهم ، إذن فلا تحسب لذلك حساباً ، ولا تتردد فى تنفيذ الفرار . ولا تقل كما قلت فى المحكمة إنك لا تدرى ماذا عساك أن تفعل بنفسك إن فررت ، فأنَّى حللت نزلت من الناس منزلا كريماً ، وليس ذلك قاصراً على أثينا ، فثمة فى تساليا ستجد من أصدقائى حماية وتقديراً إن أَحْبَبْتَ الذهاب إليهم ، ولن تصادف بين بنى تساليا جميعاً فرداً يصيبك بالأذى ، ولست أرى بعد هذا كله ما يبرر لك يا سقراط أن تفرط فى حياتك ، والنجاة ميسورة مستطاعة . إنك لتلعب بنفسك فى أيدى أعدائك وقاتليك ، بل إنى لأزعم فوق هذا أنك إنما تسىء إلى أبنائك ، لأنك آثرت أن ترتحل تاركهم لما قَسَمْتَ لهم حظوظهم وكان فى وسعك أن تقوم بنفسك على تنشيئهم وتربيتهم ، فإن لم يصبهم ما يصيب اليتامى عادة من قضاء ما استحققت عندهم من الشكر إلا قليلا ، فليس لإنسان أن يقذف فى العالم بأطفال لا يحب أن يستميت حتى النهاية فى إطعامهم وتربيتهم ، ولكنك تختار أيسر الأمرين ، فيما أظن ، لا أحسن الأمرين وألصقهما بالرجولة ، وكان ذلك أجدر برجل مثلك يبشر بالفضيلة فى أفعاله جميعاً . حقا إنى لأستحيى منك بل من أنفسنا نحن أصدقاءك ، كلما دار بخلدى أن قصتك هذه ، ستنسب إلى نقص فى بسالتنا ، فما كان ينبغى أن تكون المحاكمة أو كان أن تختم بغير ما ختمت به ، وهذه النهاية التى أراها أسوأ العبث ، ستبدو للناس كأنما صادفت منا ارتياحا ، لما أبديناه من ضعة وخور ، نحن الذين كان بوسعنا

أن ننجو بك ، كما كان بوسعك أن تنجو بنفسك ، لو كنا نملك لأى شيء نفعاً (إذ لم يكن الفرار أمراً عسيراً) وسيُظن يا سقراط أنا لم نقدر أن ذلك كله سينقلب عليك وعلينا بؤساً وعاراً ، ففكر إذن فى الأمر إن لم تكن قد اعتزمت بعد شيئاً ، فقد انقضت فرصة التفكير ولم يعد لديك إلا أمر واحد يجب إنجازه هذا المساء ، لو كنت تريد له إنجازاً ، فإن أرجأت أمرك تعذر واستحال ، وعلى ذلك فإنا أتوسل إليك يا سقراط أن تسلس لى القياد وأن تفعل بما أشير به .

سقراط : أى عزيزى أقريطون ! ما أعز حماسك وما أنفسه ، لو كان فى جانب الحق ، أما إن كان للباطل فكلما ازداد الحماس اشتعالاً ازداد الأمر سوءاً ، فلننظر إذن إن كانت هذه الأعمال واجبة الأداء أم ليست كذلك ، فقد كنت دائماً ، وما أزال ، من تلك الطبائع التى تلتزم دليل العقل ، كائناً ما كان رأيه ، ما دام يبدو عند التفكير أنه الرأى الأمثل . أما وقد أصابتنى هذه المحنة فلا يسعنى أن أهمل الآن ما آرتأيته قبلاً ، فما زالت مبادئى التى طالما أجللتها وقدستها ؛ تنزل عندى منازل الإجلال والتقديس[1] . فثق أنى لن أظاهرك فى الرأى ، اللهم إلا إذا اهتدينا الآن

---

(١) يشير سقراط بهذا الحديث إلى المحاورات الكثيرة التى عقدها هو وأصحابه قبل محاكمته حول ما يجب على الإنسان من حيث علاقته بالمجتمع ، وكانوا قد انتهوا من تلك المحاورات إلى طائفة من المبادئ أقروها جميعا ، وخلاصتها أنه لا يجوز لإنسان أن يفعل الشر ، أو أن يرد الشر بالشر ، أو أن ينقض الحق مهما كانت الظروف. فهو هنا لا يرضى لنفسه أن يهدم تلك المبادئ التى أقرها هو ومحاوره بحجة أن ظروفه تقتضى منه ذلك .

إلى مبدأ يكون خيراً منها . نعم ، لن أصغى إليك حتى ولو زادنى الدهماء حبساً ومصادرة وموتاً ، ملقين فى نفوسنا من أراجيف الشياطين المفزعة ما نفزع به الأطفال ؟ فأى سبل التفكير أهدى إلى بحث هذا الموضوع ؟ أَعَوْداً إلى رأيك الذى سقته من قبل عما يقول الناس عنا ، وبعضه يستحق الاعتبار دون بعض كما سبق لنا القول ؟ أكنا نصيب لو أننا أخذنا برأيك (وهو أن يقام وزن لما يقول الناس) قبل الحكم بالإدانة ؟ أم هل ينقلب الرأى الذى كان صائبا حيناً ما ، كلاماً لمجرد الكلام ، ويتبين أنه لم يكن فى الواقع إلا عبثاً اتخذ سبيلاً للتسلية واللهو ؟ ابحث معى هذا يا أقريطون : أترى أن لم يعد منطقى الذى اتخذته أولاً يلائم على أية حال ما يكتنفنى الآن من ظروف ؟ أم لست ترى الأمر كذلك ؟ ثم هل هو حقيق عندى بالرفض أم بالقبول ؟ إن كثيراً ممن يزعمون لأنفسهم رجاحة الرأى يذهبون فيما أعتقد إلى هذا الذى أشرت إليه من قبل ، وهو أن من الناس بعضاً يجدر بآرائهم الاعتبار ، وأما بعضهم الآخر فلا يصح أن يؤبه له ، وأنك يا أقريطون لست مقبلاً غداً على موت ، أو ليس هناك احتمال بَشَرِىٌّ بهذا على الأقل فأنت إذن حكم صالح ، لا يؤثر فيك الهوى ولا تميل بك ظروفك وموقفك عن جادة الحق . إذن : ألستُ مصيباً فيما أزعم بألا نقدر من آراء الناس إلا بعضها فقط ؟ لقد أخذت بهذا الرأى ، وأنا أسائلك هلاً ترانى قد أصبت فيما ارتأيت ؟

أقريطون : ليس فى ذلك ريب .

سقراط : ألا يجب أن نحفل بما تقوله أبرار الناس دون شرارهم ؟

أقريطون : بلى .

سقراط : ومـا يرى الحكماء فـهو خيـر ، وما يـرى غـيـر الحكماء فهو شر ؟

أقريطون : لاشك فى ذلك .

سقراط : لننظر ما قيل فى غـير هذا الموضوع ، هل يطلب إلى طالب التمرينات البدنية أن يصـغى إلى القدح والثناء ، وإلى رأى كل إنسان فيه ، أم يجب أن يستمع إلى رأى رجل واحد فقط - هو طبيبه أو مدربه كائنا من كان ؟

أقريطون : إنه يستمع إلى رأى رجل واحد فحسب .

سقراط : أينبغى أن يخاف اللوم وأن يرحب بالثناء يوجهه ذلك الرجل وحده ، وألا يأبه للوم الناس ومدحهم ؟

أقريطون : بدهى ما تقول .

سقراط : ويجب أن يعيش ويُدَرَّب ، وأن يأكل ويشـرب ، على نحو ما يبد صـالحاً لذلك المعلم الأوحد ، وهو عليم بأمـره ، فذلك أجدى من السير تبعاً لما يراه سوى معلمه من الناس ولو كانوا أجمعين ؟

أقريطون : هذا حق .

سقراط : وأنه لو عصى هذا الرجل وحده وغض النظر عن آرائه ومدائحه واضعا فى اعتباره رأى الكثرة التى لا تفقه من الأمر شيئاً ، أفلا يعانى شروراً ؟

أقريطون : إنه بغير شك يعانيها .

سقراط : وماذا عساها تكون تلك الشرور ؟ إلام تنحو ؟ وأى شىء تصيب من الشخص المتمرد ؟

أقريطون : لا ريب فى أنها ستصيب منه الجسد ، فذلك ما تقوى على هدمه الشرور .

سقراط : ذلك جد جميل ، أليس ذلك حقا يا أقريطون بالنسبة إلى الأشياء الأخرى ، ولا حاجة بنا إلى ذكرها تفصيلا ؟ أينبغى أن نتبع رأى الجمهرة ، ونخشاها فى موضوعات العدل والظلم ، والجميل والقبيح ، والخير والشر ، وهى ما نحن الآن بصدد بحثه ، أم نتبع فى ذلك رأى الرجل الواحد الذى يفهمها ، والذى يجب أن يكون له منا هيبة وإجلال أكثر مما يكون لسائر الناس أجمعين ، والذى إن نبذنا قوله فإنما نهدم فى أنفسنا جانبا كان يرجى له أن يُقَوَّمَ بالعدل وأن يسوء بالظلم ، أليس فينا ذلك الجانب ؟

أقريطون : إنه موجود يا سقراط ، ولاشك فى وجوده .

سقراط : خذ مثلا شبيها بهذا : هبنا انتصحنا بما ينصح به هؤلاء

الذين لا يفقهون فأفسدنا من أنفسنا جانبا ، تصلحه الصحة ويتلفه المرض- أفتكون الحياة جديرة بالبقاء ، إذا ما فسد ذاك ؟ وإنما أعنى به الجسد .

أقريطون : نعم .

سقراط : أفى وسعنا أن نعيش وأجسامنا مصابة بالشر والفساد ؟

أقريطون : كلا ولا ريب .

سقراط : وهل تساوى الحياة شيئا إذا ما فسد من الإنسان جزؤه الأسمى ، ذلك الذى تقومه العدالة ويفسده الجور ، أفيمكن أن يكون ذلك العنصر الذى يرتبط أمره بالعدل والجور - مهما يكن شأنه فى الإنسان - أدنى منزلة فى الجسد ؟

أقريطون : كلا ولا شك .

سقراط : هو إذن أرفع مقاما .

أقريطون : هو أرفع مقاما إلى حد بعيد .

سقراط : إذن فلا ينبغى يا صاح أن نأبه لما تقوله الجمهرة عنا ، إنما يجب أن نصغى لحكم الحقيقة ، كما نستمع إلى رأى ذلك الواحد الذى يفهم كنه العدل والظلم ، فأنت إذن قد وقعت فى الخطأ حين ارتأيت وجوب العناية بما يقول الدهماء فى الظلم والعدل ، والخير والشر ، والزائن والشائن ، سيقول أحد :

«ولكن الدهماء فى مقدورها إعدامنا» .

أقريطون : نعم يا سقراط ، سيكون ذلك بغير شك رد ما تقول .

سقراط : هذا حق ، ولكن مع ذلك يدهشنى أن أرى الحجّة القديمة لا تزال فيما أحسب قائمة قوية كما كانت ، وأحب أن أعرف إن كنت أستطيع أن أقول هذا القول فى قضية أخرى - وهى أن ليست الحياة حقيقة بالتقدير ما لم تكن قبل كل شىء حياة خيرة .

أقريطون : نعم بقى لنا أن نبحث هذه أيضاً .

سقراط : والحياة الخيرة تعادل الحياة العادلة الشريفة - أليس كذلك هذا صحيحا ؟

أقريطون : نعم إنه صحيح .

سقراط : سأنتقل من هذه المقدمات إلى البحث عما إذا كان واجبا على أن أحاول الفرار بغير موافقة الأثينيين ، أم أن ذلك لا يجوز ؛ فإن كنت على حق صريح فى الفرار ، حاولته ، وإن لم أكن ، امتنعت . أما سائر الاعتبارات التى ذكرتها عن المال وضيعة الأخلاق وواجب تربية الأطفال ، فهى كما بلغنى ليست إلا تعاليم الدهماء الذين لو استطعوا لما أبوا أن يبعثوا إلى الحياة أناسا ، كما أنهم لا يتعففون عن أن يوردوا الحتف أناسا ، وتكفيهم فى كلتا الحالتين أوهن الأسباب . أما وقد وصلنا بالجدل إلى هذا الحد ، فقد بقيت لنا مشكلة واحدة جديرة بالبحث ، وهى : هل

نكون على حق فى الهروب بأنفسنا ، أو فى تحميل سوانا عناء عوننا فى الفرار ، لقاء نقدهم جزاء وشكورا ، أم لا نكون ، فإن كانت الأخيرة فلا ينبغى أن يحسب حسابا لموت أو لما شئت من الكوارث التى قد تنجم عن بقائى هنا .

أقريطون : أحسبك مصيباً يا سقراط ، فكيف سبيلنا إذن إلى البحث ؟

سقراط : لننظر معا فى الأمر ، فإن استطعت لما أقول تفنيدا فافعل ، وسأقنع بك ، وإلا فأمسك يا صديقى العزيز ، ولا تقل ثانية بأنه يجب علىّ أن ألوذ بالفرار برغم إرادة الأثينيين وليتنى أجد منك إقناعا ، ولشد ما أرغب فى هذا على ألا يكون ذلك مخالفا لما أراه حكما سديداً ، وتفضل الآن فانظر فى موقفى الأول ، وحاول ما استطعت أن تجيب عما أقول .

أقريطون : سأبذل فى ذلك وسعى .

سقراط : أفيجوز لنا القول بأنه لاينبغى لنا قطعاً أن نتعمد الخطأ ، أم أن فعل الخطأ مقبول حينا مرذول حينا آخر ، أم أن فعله أبداً شر ووصمة عار كما سبق لى القول الآن وسلمنا بصحته معاً ؟ أفننبذ الآن كل ما سمحنا لأنفسنا به منذ أيام قلائل ؟ أم أننا قضينا هذا العمر الطويل ، يحاور بعضنا بعضاً فى حماسة وإخلاص لكى نوقن ونحن فى هذه السن بأنا لا نفضل الأطفال فى شىء ؟ أم نثق ثقة قاطعة بصحة ما قيل من

قبل ، من أن الجور دائما شر وعـار على الجائر . برغم ما يرى الدهماء ، وبرغم ما ينجـم عن ذلك مـن نتائج ، حسنـة كانت أم سيئة ؟ هل نؤيد هذا ؟

أقريطون : نعم .

سقراط : إذن يجب ألا نفعل الخطأ .

أقريطون : يقيناً يجب ألا نفعله .

سقراط : وإذا أصابنا الضرر فـلا نرده بضرر مثله ، كما تتخـيل كثرة الناس ، لأنه يجب ألا نصيب أحداً بضر .

أقريطون : واضح أن ذلك لا يجوز .

سقراط : ثم هل يجوز لنا أن نفعل الشر يا أقريطون ؟

أقريطون : لا يجوز قطعاً يا سقراط .

سقراط : وما رأيك فى رد الشر بالشر ، وهى أخلاق الدهماء ، أذلك عدل أم ليس بالعدل ؟

أقريطون : ليس بالعدل .

سقراط : فلأن تصيب أحداً بشر كأن تصيبه بضر .

أقريطون : صحيح جداً .

سقـراط : إذن لا ينبغى لنا أن نـأخذ بالثأر ، ولا أن نرد الشـر بالشر لأحد ما ، كائنا ما كان الشر الذى ابتلانا به ، وأحب أن تنظر فى الأمر .
يا أقريطون : لترى هل كنت حقا تعنى ما تقول ، ذلك لأنه لم يأخذ بهذا الرأى يوماً ، ولن يأخذ به إلى آخر الدهر فريق من الناس كبير . ولا سبيل إلى اتفاق بين من يقرون هذا الرأى ومن لا يقـرونه ، فما بد من أن يزدرى بعضهم بعـضاً ، عندما يرون كم بينهم من شقـة الخلاف . حدثنى إذن : أأنت متـفق معى ومـؤيدى فى مبدئى ذاك ، وهو أن ليـس من الحق إيقاع الضر ، ولا الأخـذ بالثأر ولا رد الشـر بالشر ؟ أمسلم أنـت بهذا مقـدمة لحديثنا ، أم أنـت منكر له راغب عنه ؟ لقد كـان ذلك مذهبى منذ عـهد بعيد ، وما يزال كذلك ؛ فإن كنت ترى غير ذلك رأيا ، فهات ما عندك ؛ أمـا إن كنت بعـد هذا كله لا تزال عند رأيك الأول ، انتـقلت معك فى الحديث خطوة أخرى .

أقريطون : إننى ثابت عند رأيى ، فتستطيع أن تسير فى الحديث .

سقراط : سأنتقل إذن إلى الخطوة الثانية التى يمكن أن توضع فى صيغة هذا السؤال : أينبغى للإنسان أن يفعل ما يراه حقا ، أم ينبغى له أن ينقض الحق .

أقريطون : إنه يجب على الإنسان أن يفعل ما يظنه حقاً .

سقـراط : ولكن مـا تطبيق هذا إن صح ؟ ألست أسىء إلـى أحد إن

تركت السجن برغم إرادة الأثينيين ؟ أو على الأصح ، ألست أخطىء فى حق أولئك الذين ينبغى أن يكونوا من أبعد الناس عن الإساءة ؟ ألا يكون ذلك تطليقاً لمبادئى التى سلمنا معاً بعدلها ؟ ماذا تقول فى هذا ؟

أقريطون : لست أرى يا سقراط ، فلا أستطيع أن أقول شيئاً .

سقراط : إذن فانظر إلى الأمر على هذا الوجه : هبنى هممت بالأيوق (أو إن شئت فسم هذا العمل بما أردت من أسماء) فجاءت إلىّ القوانين والحكومة تسائلنى : حدثنا يا سقراط ، ماذا أنت فاعل ؟ أتريد بفعلة منك أن تهز كياننا - أعنى القوانين والدولة بأسرها بمقدار ما هى فى شخصك ماثلة ؟ هل تتصور دولة ليس لأحكام قانونها قوة ، ولا تجد من الأفراد إلا نبذاً واطراحاً ، أن تقوم قائمتها ، فلا تندك من أساسها ؟ » فبماذا نجيب يا أقريطون عن هذه العبارة وأشباهها ؟ وسيكون مجال القول واسعاً لكل إنسان ! وللخطيب البليغ بنوع خاص ، يهاجمون هذا الشر الذى ينجم عن اطراح القانون الذى لابد لحكمه من النفاذ . وربما أجبنا نحن : «نعم ، ولكن الدولة قد آذتنا ، وجارت علينا فى قضائها» هبنى قلت هذا .

أقريطون : جميل جدا يا سقراط .

سقراط : سيجيب القانون : «أفكان ذلك ما قطعته معنا من عهد ، أما كان لزاما عليك أن تصدع لما حكمت به الدولة؟ » فإن بدت على من قولهم هذا علائم الدهشة ، فربما أضاف القانون قوله : «أجب يا سقراط

بدل أن تفتح لنا عينيك : وقد عهدناك مسائلا ومجيبا . حدثنا ، ماشكايتك منا . تلك التى تسوغ لك محاولة هدمنا وهدم الدولة معاً ؟ فوق كل شيء ، ألم نأت بك إلى الوجود ؟ ألم يتزوج أبوك من أمك بعوننا فأعقباك ؟ قل إن كان لديك ما تعترض به على أولئك الذين ينظمون الزواج منا ؟ » وهنا لابد من إجابتى أن لا ، «أو على أولئك الذين منا ينظمون طرائق التغذية والتربية للأطفال ، وفى ظلها نشأت أنت ؟ ألم تكن القوانين التى نهضت بهذا على حق فى أن طلبت إلى أبيك أن يدربك فى الموسيقى ورياضة البدن ؟ » وهنا يلزم أن أجيب أن قد كانت على حق «حسناً ، فإن كنا قد أتينا بك إلى العالم ، ثم أطعمناك فأنشأناك ، أفأنت جاحد أنك قبل كل شيء ابننا وعبدنا كما كان آباؤك من قبل ؟ فإن صح هذا فلسنا وإياك سواسية ، فلا تظن أن من حقك أن تفعل بنا ما نحن بك فاعلون ، وهل يكون لك أدنى حق فى أن تنال أباك أو سيدك ، إن كان لك أب أو سيد ، بالضرب أو بالشتم أو بغير ذلك من السوء ، إذا وقع عليك منه ضرب أو شتم ، أو أصابك منه غير ذلك من الشر ؟ - لا نخالك قائلا بهذا . وإذا كنا قد رأينا أن من الصواب إعدامك ، أفتظن أن من حقك أن تجازينا إعداماً بإعدام ؟ وأن تجازى وطنك بمقدار ما هو ماثل فيك ؟ وهل تظن يا أستاذ الفضيلة أن يكون لك فى ذلك ما يسرك ؛ أيعجز فيلسوف مثلك أن يرى بأن وطننا أخلق بالتقدير ، وأنه أسمى جداً وأقدس من أم أو أب أو من شئت من سلف ، وهو أجدر

بالإعتبار فى نظـر الآلهة وأهل الفطنة من الناس ؟ وأنه إن غضب وجب أن نهدئ من سورته ، وأن نـلاقيه لقاء وديعاً خـاشعًا أكثر مما نـفعل حتى مع الوالد ، فإن تعذر إقناعه وجبت طاعتـه ! فإذا نالنا منه العقاب بالسجن أو بالجلد ، وجب أن نحـتـمل جزاءه فى صـمت ، وأن سـاقنا إلى حـومـة الوغى حيث الجراح والموت ، كـان لزاما أن ننصاع له باعـتباره مصـيبا ، دون أن يسلم أحـد منا أو يتقـهقـر أو يترك منصـبه ، وواجب حـتم على الإنسان أن يصـدع بما يأمره به الوطن سـواء أكان فى ساحـة الحرب أم فى ساحة القانون ، إلا إذا غير من وجـهة نظره فى ماهية العدل ، وإن كان لا يجوز له أن يقـسو على أبيه أو أمه ، فـما أوجب أن يكون رحيـما علـى وطنه » بماذا نجيب على هذا يا أقريطون ؟ آلقوانين فـيما تقول صـادقة أم ليست بصادقة ؟

أقريطون : أحسبها صادقة فيما تقول .

سقراط : وستقول القوانين بعدئذ : «أعلم يا سقراط ، إن صح هذا ، إنك بهـذه المحـاولة إنما تسيء إلينا ، لأنـنا بعـد إذ أتينا بك إلـى الدنيـا وأطعمنـاك وأنشأناك وأعطيناك كـمـا أعطينا سائر أبناء الوطن قـسطا مـن الخير ، ما استطعنا للخير عطاء ، فقد أعلنا فوق ذلك على رؤوس الأشهاد أن من حق كل أثينى أن يرحل إلى حيث شـاء حاملاً متاعـه معه ، إذا هو نفر منا بعد أن تقدمت به السن فـعرفنا حق المعرفة وعرف على أى الأسس تسير المدينة وليس فينا نحن القوانين مـا يحول دونه أن يتدخل معه فى أمره

فلكل منا إذا ما كرهنا وكره المدينة ، وأراد الرحيل إلى إحدى المستعمرات أو إلى أية دولة أخرى ، أن يذهب حيث شاء ، وأن ينقل متاعه معه ؛ أما ذلك الذى عركنا فعرف كيف نقيم العدل وكيف ندير الدولة ؛ ثم رضى بعد ذلك المقام بيننا ، فهو بذلك قد تعاقد ضمناً على أنه لابد فاعل ما نحن به آمرون فمن عصانا ، ونحن ما نحن ، فقد أخطأت ثلاث مرات : الأولى أنه عصى والديه بعصيانه إيانا ، والثانية أننا نحن الذين رسمنا له طريق نشأته ، والثالثة أنه قطع معنا على نفسه عهداً أنه سيطيع أوامرنا فلا هو أطاعها ولا هو أقنعنا بأنها خاطئة ، ونحن لا نفرضها عليه فرضاً غشوما ، ولكننا نخيره ، وإما طاعتنا ، وإما إقناعنا ، هذا ما قدمناه إليه ، وهذا ما رفضه جميعاً ، تلك هى صنوف المآخذ التى ستقيم من نفسك هدفاً لها يا سقراط إذا أنت أنجزت عزيمتك ، كما سبق لنا بذلك القول . ولاسيما أنت دون الأثينيين جميعاً » وهَبْنى سألت : ولم هذا ؟ فستجيب حقا بأننى قد سلمت بهذا الاتفاق دون سائر الناس . ستقول القوانين «إن ثمة لبرهانا ساطعا يا سقراط ، بأننا والمدينة معنا لم نكن لنعكر عليك صفو العيش ، فقد كنت أدوم الأثينيين جميعا مقاما فى المدينة لم تغادرها قط ، حتى ليجوز لنا الفرض بأنك كنت تحبها . إنك لم تغادرها مطلقا لتشهد الألعاب ، اللهم إلا مرة واحدة حين ذهبت لترى البرزخ[1] ، ولم تفصل عنها لتقصد إلى

---

(١) يرجح أن المقصود هنا برزخ كورنث الذى يصل شبه جزيرة المورة بشبه جزيرة البلقان ، ويقربه تقع أثينا .

أى مكان آخر ، إلا إذا كنت فى خدمة الجيش ، ولم تسافر كما يسافر الناس ، ولم يدفعك حب الاستطلاع إلى رؤية الدول الأخرى لتلم بقوانينها ؛ فقد اختصصتنا بحبك لم تجاوز به حدود دولتنا فكنا نحن أصفياءك المخلصين ، وقد رضيت بحكمنا إياك . إن هذه هى الدولة التى أعقبت فيها أبناءك ، وإن ذلك لينهض دليلا على رضاك . هذا وقد كنت تستطيع لو أردت أن تقرر عقوبة النفى أثناء المحاكمة ، وإن كان الآن ثمة دولة تغلق دونك أبوابها فقد كانت حينئذ تسمح بذهابك إليها ، ولكنك ادعيت أنك تؤثر الموت على النفى ، وأنك لم تبتئس من الموت ، ولكن هأنت ذا الآن قد أنسيت تلك العواطف الجميلة ، وترفض أن تحترمنا - نحن القوانين ، التى أنت هادمها ، وإنك الآن لتفعل ما لا يفعله إلا العبد الخسيس ، فتولى أدبارك هاربا من العقود والعهود التى قطعتها على نفسك باعتبارك واحداً من أبناء الوطن ؛ فأجب لنا أولا عن هذا السؤال : أنحن صادقون فى القول بأنك اتفقت على أن تحكم وفقا لنا ، بالفعل لا بالقول فقط ؟ أهذا حق أم كذب ؟ بماذا نجيب عن ذلك يا أقريطون ألسنا مضطرين إلى التسليم ؟

أقريطون : ليس عن ذلك منصرف يا سقراط .

سقراط : أفلن تقول القوانين إذن : «إنك يا سقراط ناقض للمواثيق والعهود التى أخذتها معنا على نفسك اختياراً ، فما كنت فى أخذها عجلان ولا مجبراً ولا مخدوعا ، ولكنك لبثت سبعين عاما تفكر فيها ،

وكنت خلالها تستطيع أن تغادر المدينة إن كنا لم نصادف من نفسك قبولاً ، أو كنت قد رأيت فيما اتفقنا عليه إجحافاً بك . كنت فى ذلك مخيراً ، وكان فى مقدروك أن ترحل إما إلى لاقيديمون أو إلى كريت اللتين كثيراً ما امتدحتهما لحسن حكومتيهما ، أو ترحل إلى أية دولة أجنبية يونانية أخرى ، ولكنك كنت تبدو ، أكثر من سائر الأثينيين جميعاً ، شغوفاً بالدولة ، أو بعبارة أخرى ، بنا – أى بقوانينها (إذ من ذا الذى يحب دولة لا قوانين لها) فلم تتزحزح عنها قط ، ولم يكن العُمى ، والعُرج ، والمقعدون ، بأكثر منك قبوعاً بها ؛ وهأنت ذا الآن تفر ناقضاً ما قطعته من عهود . ما هكذا يا سقراط إن أردت بنا انتصاحا ، لا تدع نفسك بهروبك من المدينة موضع السخرية .

«وحسبك أن ترى أى خير تقدمه لنفسك أو لأصدقائك ، إن أنت اعتديت أو أخطأت على هذا الوجه ؛ أما أصدقاؤك فالأرجح أن يُشَرَّدوا نفيا ، وأن يسلبوا حق انتسابهم للوطن ، أو أن يفقدوا أملاكهم . أما عن نفسك أنت ، فلو تسلك إلى إحدى المدن المجاورة ، إلى طيبة ، أو ميغارا مثلاً ، وهما مدينتان تسيطر عليهما حكومة حازمة ، فستدخلهما عدواً يا سقراط وستناصبك حكوماتهما العداء ، وسينظر إليك أبناؤهما الوطنيون بعين ملؤها الشر لأنك هادم للقوانين ، وسيقر فى عقول القضاة أنهم كانوا فى إدانتهم إياك عدولاً . فأغلب الظن أن يكون مفسد القوانين مفسداً للشبان ، وأن يكون بلاء ينزل بالغفلة على بنى الإنسان . فلم يبق لديك

إلا أن تفر من هذه المـدن المنظمة ، ومن ذوى الفضل مـن الرجال ، ولكن أيكون الوجود حقيقاً بالبقاء على هذه الحال ؟ أم أنك ستغشى هؤلاء الناس فى صفاقة يا سقراط لتتحـدث إليهم ؟ وماذا أنت قائل لهم ؟ أفتـقول ما تقوله هنا من أن الفضيلة والعدالة والتـقاليد والقوانين أنفس ما أُنعم به على الناس ؟ أيكون ذلك منـك جمـيـلاً ؟ كلا ولا ريب . أمـا إن فـررت من الدول ذوات الحكم الحازم ، إلى تساليـا حيث أصدقاء أقريطون ، وحيث الإباحية والفوضى ، فسيجدون متاعاً فى قصة هروبك من السجن . مضافا إليها ما يبـعث على السخرية من التفصيل عن كيـفية تنكرك فى جلدة عنزة أو ما عداه من أسباب التنكر ، وعـما بـدلته من ملامحك كما جرت بذلك عادة الأبقين - ليس ذلك كله ببعيد ، ولكن الن تجد هناك من يذكرك بأنك وأنت هذا الشيخ الكهل ؛ قد نقضت أشد القوانين تقديسا ، من أجل رغبة حقيرة فى استـزادة الحياة زيادة ضئيلة ؟ قد لا تجد إذا استـرضيتهم ، ولكن لا تلبث أن تثور منهم سورة الغضب ، حتى يصكوا مسمعيك بما يجللك عاراً . إنك ستعـيش ، ولكن كيف ؟ متملقاً للناس جميـعاً وخادماً للناس جمـيعـاً . وماذا أنت صانع ؟ - ستأكل فى تسـاليا وتشـرب ، لأنك قد غادرت البلاد لكى تـصيب فى الغربة طعاما لغـدائك ، وأين ترى ستكون تلك العواطف الجميلة التى تبديهـا حول العدل والفضيلة ؟ قل إنك راغب فى الحـيـاة من أجل أبنائك لتـتـعـهـدهم تربيـة وإنشـاء - ، ولكن أأنت مصطـحبهم إلـى تساليـا ، فتـقضى عليـهم بذلك الا يكون أبناء الوطن

الأثينى ؟ أذلك مـا ستـمنحهم إياه مـن نفع ؟ أم أنت تاركهم واثقـا بأنهم سيكونون أحـسن رعايـة وتربية مـادمت أنت حيا ، حتى ولو كنت غـائبا عنهم ، إذ يعنى بهم أصدقـاؤك ؟ هل تخيل لنفسك أنهم سيـعنون بهم ما أقمت فى تساليا ، أمـا إن صرت من أهل العالم الآخر ، فلن يعنوا بهم ؟ كلا ، فـإن كان من يسمـون أنفسهـم أصدقاء ، أصـدقاءك حقـا ، فإنهم لاشك معنيون بأبنائك .

«اصغ إلينا إذن يا سقراط ، نحن الذين أنشأناك . لا تفكر فى الحـياة والأبناء أولاً ، وفى الـعـدل آخـراً ، بل فكر فـى العـدل أولاً ، وارج أن تصيـب البراءة عند ولاة العالم الأدنى . فـإن فعلت ما يأمرك به أقريطون ، فلن تكون أنت ولا من يتـعلق بك كائنا من كـان ، أسعـد أو أقدس أو أعـدل فى هـذه الحـياة ولا فى أية حـياة أخـرى . فارحل الآن بريـئا ، مجـاهداً لا فاعـلا للرذيلة ، ضحـية الناس لا ضحـية القـوانين . أما إن صمـمت أن ترد الشر بالشر والضـر بالضر ، ناقضـا ما قطعتـه أمامنا على نفسك من عـهود ومواثيق ، مسيـئا إلى أولئك الذين ينبـغى ألا يمسهم من إساءتك إلا أقلها ، أعنى نفسك ، وأصـدقاءك ، ووطنك ، ونحن فسننقم عليك ما دمت حـيا ، وستـستقـبلك قوانين العـالم الأدنى وهى إخوتنا ، عدواً ، لأنها ستعلـم أنك لم تدخر وسعا فى هدمنا . إصغ إذن إلينا ، لا إلى أقريطون» .

هذا هو الصوت الذى كأنى به يهمس فى مسمعى ، كما تفعل نغمات

القيثارة فى آذان المتـصوف . أقول إن هذا هو الصوت الذى يدوى فى أذنى فيمنعنى من أن أستمع إلى أى صوت سواه وإنى لأعلم أن كل ما تقوله بعد هذا أدراج الرياح ومع هذا ، تكلم إن كان لديك ما تقوله .

أقريطون : ليس لدى ما أقوله يا سقراط.

سقراط : ذرنى إذن أتبع ما توحى به إلىّ إرادة الله .

مقدمة «فيدون»

مات سقراط ، ثم انقضت بعد موته شهور أو سنين ، فطلب إلى فيدون، وهو التلميذ المحبب إلى أستاذه ، أن يقص على أهل «فليوس» كيف قضى سقراط ، وكيف أنفق أخريات ساعاته ، فاستجاب فيدون ، وقص هذا الحوار الذى نقدم له ، وإذن فالمحاورة قد صيغت بالضرورة فى أسلوب القصة ، لأنه كان لابد لفيدون أن يصف سقراط فى حديثه وحركاته ، فلم يفته فيما روى أدق التفصيلات وكان السامعون يتابعون الحديث فى شغف لا يقل عن شغف راويه .

حكم على سقراط بالموت ، وكان لابد له أن ينتظر فى سجنه حتى تعود السفينة المقدسة من «ديلوس» ، وهى رحلة تستغرق ثلاثين يوما ، اتخذها الأثينيون شهراً حراماً لا يجوز القتل خلاله . فأنفق سقراط هذه الأيام يتحدث إلى صفوة مختارة من تلاميذه . فلما انتهى الشهر المحرم ، أقبل التلاميذ فى ساعة باكرة لكى يحاوروا سقراط الحوار الأخير ، وكان بين الحاضرين «سمياس» و «سيبيس» و «أقريطون» وحارس السجن الذى اختاره أفلاطون ليصور به تأثير سقراط فى عامة الناس .

لم يكد يدخل هؤلاء التلاميذ والأصدقاء غرفة سقراط حتى هم هذا بإرسال زوجته وأبنائه - وكانوا فى زيارته - إلى الدار لكى يتفرغ إلى

محادثة أصدقائه ، وكان ساعتئذ قد حُلّت عنه القيود لتوّه فانتهز هذه الفرصة وبدأ الحديث بأن لاحظ أن اللذة تعقب الألم (وهنا ينبغى أن نلاحظ أن أفلاطون يمهد بذلك إلى نظريته التى سيبسطها فيما بعد عن تعاقب الأضداد) ، فيقول عن اللذة والألم إنهما كانا جديرين أن يمثلهما «إيسوب» فى قصة فيصورهما مخلوقاً ذا رأسين ، فاستدعى ذكر «إيسوب» سؤالاً ألقاه «سيبيس» يسأل سقراط عن العلة التى دفعته إلى قرض الشعر فى السجن - إذ كان يحاول أن ينظم قصص إيسوب شعراً - مع أنه لم يكن شاعراً ، فأجاب سقراط بأنه إنما لجأ إلى ذلك لأنه أنذر مرات عدة فى أحلامه بوجوب ممارسته الموسيقى ، ولما كان حينئذ يدنو من الموت أراد أن يتحوط لنفسه فينفذ إرادة النذير الذى أهاب به فى رؤاه تنفيذاً حرفيا من ناحية أخرى بنظمه للشعر وبتعليمه للفلسفة ، ويستطرد سقراط فى الحديث فيذكر الموت والرغبة فيه مع تحريم الانتحار لعدم شرعيته ، فيسأل سيبيس» لماذا يكون الانتحار فى رأى الناس خطيئة إذا كان الموت خيراً ؟ فيجيبه سقراط بأن الإنسان سجين لا يجوز له شرعاً أن يفتح باب سجنه بنفسه ليفر هارباً ، وثانياً لأن الإنسان ليس ملكاً لنفسه ولكنه ملك للآلهة ، فليس له الحق فى أن يتصرف فيما ليس ملكا له ؛ فيسأل «سيبيس» قائلاً لماذا يرغب الإنسان فى الموت ما دام ملكاً للآلهة مع أنه سيغادر أصدقاءه (هو هنا يعرض بسقراط) فيقول سقراط إن الإنسان يرغب فى الموت لأنه سيكون فى حماية الآلهة وهو من غير شك لا يستطيع أن يعنى بنفسه كما تعنى به الآلهة ... ثم يستطرد سقراط فيقول إن

الفيلسوف يريد الموت ، ولكن ليس معنى الموت الذى يريده الفيلسوف هو ما يفهمه الناس ، فما معناه إذن ؟ هو انفصال الروح عن الجسد ، والفيلسوف يريد هذا النوع من الانفصال لأنه يود أن يتحرر من عالم اللذة الجسدية ومن الحواس التى تشوش التفكير العقلى . إن الفيلسوف يريد أن يتخلص من عينيه وأذنيه ليشهد الحقيقة بضوء العقل وحده . فكل ما يصيب الناس من شر وكل ما ينغمسون فيه من أسباب الفجور وألوان الرغبة إنما مصدره الجسد ، والموت هو الذى ينجيه من تلك المفاسد التى لا يستطيع وهو حىّ أن يتخلص منها ، فإذا كان الفيلسوف يزيد هذا الانفصال ويتمناه فهل يندم إذا حانت ساعته ؟ إذا كان ميتاً فى حياته فلماذا يخشى هذا النوع الثانى من الموت مع أنه وحده السبيل إلى مشاهدة الحكمة فى صفائها ؟

هذا إلى أن سقراط يخالف سائر الناس فى رأيه عن الخير والشر ، فالناس شجعان حين يخشون خطراً أعظم مما يقبلون عليه بشجاعتهم ، وهم معتدلون حين ينشدون باعتدالهم لذة أعظم من اللذة التى يصيبونها في إسرافهم ، فأما الفيلسوف فيزدرى هذه الموازنة بين اللذة والألم ، لأنها موازنة تصلح لتبادل السلع فى التجارة ولكنها لاتصلح لتبادل الفضائل بحال من الأحوال ، فالفيلسوف لا يعتبر الفضائل جميعاً بكل ما فيها من حكمة إلا وسائل تطهير للروح ، وفى سبيل هذا التطهير الروحى يقبل سقراط على الموت راضيا .

ولكن ألا يُخشى أن تفنى الروح إذا ما فارقت جسدها كما يتلاشى الدخان أو كما يتبعثر الهواء ؟ فيجيب سقراط على هذا الاعتراض أولاً بأن يحتج قبل كل شيء بما ذهب إليه رجل المذهب الأورفى منذ القدم من أن أرواح الموتى كائنة فى العالم الأدنى ، وأن الأحياء إنما يستمدون أرواحهم منها ، وهنا يحاول سقراط أن يؤيد هذا المذهب برأى فلسفى وهو أن الأضداد كلها - كالأصغر والأكبر والأضعف والأقوى ، والنائم والمستيقظ، والحياة والموت - يتولد أحدها من الآخر ، ويستحيل أن تكون عملية التوليد هذه مجرد انتقال من ضد إلى ضده وكفى ، أعنى مثلاً أن تنتقل الحياة إلى الموت ثم يقف الأمر عند هذا الحد ، إذ لو صح ذلك لانتهى كل شيء إلى الموت ، ولما أمكن لدورة الطبيعة أن تتم إلا إذا انتقل الموت بدوره إلى الحياة ، فيصدر الأحياء عن الأموات كما يعود هؤلاء الأحياء أنفسهم فيمضون إلى عالم الأموات .

وهنا يسوق أفلاطون نظريته فى التذكر ليؤيد بها وجود الروح قبل حلولها بالجسد ، وهو يقيم البراهين على هذه النظرية ، وأول برهان يؤيد ذلك أنك تستطيع أن تستنتج من الجاهل بعض النتائج الرياضية الصحيحة بأن ترسم له شكلا هندسيا وتأخذ فى سؤاله فيجيبك بالعلم الصحيح ولا يكون ذلك إلا أن يكون العلم الرياضى كامناً فى الروح ، والبرهان الثانى ما للروح من مقدرة على ترابط المعانى ، أى استثارة بعضها ببعض ، فترى سمياس مثلا فيذكرك بسيبيس، أو ترى صورة سمياس

فتـذكر بذلك سميـاس نفسه ، كـذلك قد ترى القيـثارة فتذكـرك بالعارف عليها، وقد ترى الـقطع المتساوية من الخشب أو الحجر فـيستدعى ذلك فى نفسك فكرة سـامية هى فكرة المساواة المطلقـة ، وجدير بنا فى هذا الموضع أن نلاحظ أن الأشيـاء المادية المتساوية لا يبلـغ تساويها مـبلغ فكرة المساواة المطلقة التى تقارن بها تلك الأشياء ونتخذها مـقياساً لها ، ولما كان المقياس لابد أن يكون سابقاً للشىء المقيس، وجب أن تكون فكرة المساواة أسبق من المتساويات المادية . وإذا كانت سابقة لها فهى كذلك أسبق من الحواس التى أدركتهـا ، وإذن فقد أوتيناها قبل الميـلاد، أو ساعة الميلاد نفـسها ، ولكن الناس جميعاً لا يعرفون شيئاً إلا إذا استذكروه ، فمتى أنسوا العلم إن كانوا قد أوتوه سـاعة الميلاد ؟ هل يعـقل أن يوهبوه ويسلبوه فى لحظة بعـينها ؟ وإذن فلم يبق إلا أن يكون العـلم مفطوراً فـى الروح قبل الميـلاد أى قـبل حلولها بالجسد . وهذا دليل على وجود الروح قبل اتصالها بالجسد ، وأنها كانت حينئذ على شىء من الذكـاء والإدراك ، وإذا صح ذلك فقد صدقت نظرية المُثل كلها .

فيعـترض سميـاس وسـيبـيس بأن هذه الأدلة إنما تبـرهن على وجود الروح قبل اتصالها بالجسد ولكنها لا تدل على خلودها بعد انفصالها عنه ، فيرد سـقراط عليهمـا بأن يذكرهما بما اتفقـوا عليه جميعـاً منذ حين بشأن الأضداد ومـا يتبع ذلك من اشتقـاق الأحياء من الأموات . أمـا أن تخشى على الـروح أن يبـددها الهواء عـند رحيلهـا ، لا سيـما إن كـانت الريح عاصفة ، فـتفنى بذلك وتزول ، فخوف لا يعتمـد على أساس صحيح .

ولنسائل أنفسنا : أى الأشياء يجوز عليه التحلل والفساد ؛ أهو البسيط أم المركب ؟ الثابت أم المتغير ؟ الفكرة الخفية أم المرئى المحسوس ؟ لاشك فى أن المركب المتغير المرئى هو ما يجوز عليه الفساد ، وذلك هو الجسم ، أما الروح وهى فكرة خالصة لا تعرف التغير والتبدل فلا يعتريها الفساد . هذا إلى أن الروح تأمر والجسم يطيع ، وإذن فالروح شبيهة بالإلهى الخالد ، وأما الجسد فقريب من الزائل الفانى . وهكذا مهما قلبت وجهة النظر رأيت الروح تصور القداسة والخلود ، والجسد يصور الخصائص البشرية الفانية ، فبينا ترى الجسد يتعرض للتحلل السريع ترَى الروح تستعصى على الفساد ، أو تكاد تستعصى عليه ، ومع ذلك فقد يمكن للجسد أن يصان بالتحنيط حينا طويلا من الدهر ، فهل تحتمل للروح بعد ذلك أن تفنى وتتبعثر فى الهواء وهى فى طريقها إلى الله الخيِّر الحكيم ؟ إن الروح بعد الموت تتجمع فى نفسها وترتفع عن الجسد وتتخلص من أدران الناس وسخفهم لتعيش مع الآلهة إلى الأبد .

أما الروح التى دنستها الصفات الجسدية وأثقلتها ، والتى لا تبصر إلا بأعين الحواس والتى انغمست فى الشهوات الجسدية فيتعذر عليها بعدئذ أن تتجرد ؛ مثل هذه الروح تخاف الدنو من العالم الأدنى فتتلكأ وتتثاقل حول المقابر ، مشفقة أن تفارق الجسد الذى أحبته ، فتراها تدور حول الرموس في صورة الجن ، ويمكن للعين البشرية أن تراها لأنها تكون مشبعة بالمادة حتى تنقلب شيئاً محسوساً ، وينتهى بها الأمر أن تتقمص حيوانا

تتفق طبيعـته مع حياتها الأولى ، حياة الحس والمادة ، فتتقمص حماراً أو ذئبا أو حدأة . وأسعـد هذه الأرواح الأرضية ما مارس منها الفـضيلة بغير فلسفة ، ويؤذن لهـذا الضرب من الأرواح أن يتقمص حـيوانا وديع الطبائع ذا نظم اجتمـاعية كالنمل والنحل . . . والفـيلسوف وحده هو الذى يرحل نقـيا طاهراً ، وهو وحـده الذى يؤذن له أن يضـاف إلى عشـيرة الآلهـة ، وذلك ما يدعـو إلى الترفع عن شـهوات الجـسد ، فهـو لا يمتنع عن تلك الشهوات خشـية الخسارة والعار كمـا يفعل سائر الناس ، بل لأنه يريد ألا يمتـزج بالمادة حـتى لا تثقله فـى رحلته الروحـيـة بعـد الموت . لقد كـان الفيلسوف فى حياته مكبـلا بما يكبل سائر الناس من أغلال الجسد ، ولكن الفلسـفة تحدثت إليـه فأصـغى إلى حديثـها ، فكانت خلاصـا له من هذا العنصر الجـسدى الدنىء ، وأزجت عن بصيـرته غمائم العـواطف وخداع الحواس . وبذلك استطاعت روحه أن تنجو من تأثير اللذائذ والآلام ، التى من خصائصهـا أن تربط الروح بالجسد كأنها المسامـير ، لا رغبة منه فى أن يظفر بلذة أعظم ولكن لأنه يعلم أنه لا يستطيع أن يشهـد ضوء الحقيقة إلا إذا هدأ وتحرر من قيود الجسد .

ولكن ذلك لا يزيل الشك عند سمـياس وسـيبيس ، ومع ذلك فلم يعترضا فيستطرد سقراط متعجباً كيف يحاول أصدقاؤه أن يصرفوه عن رغبة الموت ، ولماذا لا يكون كالتّم (Swan) الذى ينفق حـياته كلهـا فى الإنشاد حتى إذا مـا جاءه الموت ازداد إنشـاداً بل كان أشـجى فى غنائه منه فى أى

وقت مضى ؟ . . وهنا يقول سمياس إن الحقيقة وإن تكن مستحيلة الإدراك فى صورتها الإلهية ، غير أنه من الضعف ألا يحاول الإنسان أن يدرك منها أقوم ما يستطيع البشر إدراكه ، وإن ذلك ليكفيه ليتخذ منه فلكا يسبح عليه فى خضم الحياة ، ويمضى فى بسط إشكاله قائلا : لقد أقمنا الدليل على أن الروح خفية لا ترى ، وأنها غير مجسدة ، وأنها لذلك خالدة بعد انفصالها عن الجسد وموجودة قبل اتصالها به ، ولكن ألسنا نزعم أنها عبارة عن انسجام ، وإذن فيكون ما يربطها بالجسد هو ما يربط النغمة بالقيثارة ؟ فما القول إذا كانت النغمة لا تبقى بعد فناء القيثارة ؟ وهنا يتقدم سيبيس أيضاً باعتراض يسوقه فى تشبيه كما فعل سمياس باعتراضه ، فسلم أن الروح أطول بقاء من الجسد ، غير أنه اعترض بأن طول بقاء الروح بالنسبة لبقاء الجسد لا ينهض دليلا على خلودها ، لأننا لو فرضنا أن الروح ستبقى وستحل فى جسد آخر ثم فى ثالث ورابع وهكذا ، فماذا يمنع أن يصيبها الفناء بعد هذا كله ؟ أليس من الجائز أن تفنى الروح فى إحدى هذه المرات ويبقى آخر جسد حلت فيه مدة بعد فناء الروح ، كما يقال فى العطاف الذى يبقى بعد فناء ناسجة مع أن الناسج أطول بقاء من عطافه الذى ينسجه ، فإن من يريد البرهنة على خلود الروح لا يكفى أن يقصر برهانه على أن الروح أطول بقاء من الجسد ، أو أنها أطول بقاء من أجساد عدة ، بل لابد من إقامة الدليل على أنها دائمة بعد أن تُفْنِىَ كلَّ ما تحل فيه من أجساد .

إن الناس يميلون إلى مخادعة بعضهم بعضاً ، ويكره المخدوع منهم أن يثق بأحد ، إذ يخيل إليه أنه مادام قد نصبت له شراك الخداع فانخدع فليس بين الناس إطلاقاً من يُركن إليه ويوثق به ؛ وإنه لمما يؤسف له أن ينظر بعضنا إلى الأدلة نظرته إلى الناس ، فلا يؤمنون بكل ما يقام لهم من البراهين لأن أحداً قد ألبس لهم الباطل بالحق . ولكننا لا ينبغى بحال أن نعادى الناس جميعاً لأننا نكره واحداً أو جماعة من الناس ، ولا أن نمقت الأدلة كلها لأننا نمقت طائفة معينة من الأدلة ، فليس المسئول عن النقص والخطأ هو الأدلة نفسها بل نحن أنفسنا ، ولما كان سقراط على حافة الموت فهو يخشى أن يكون ظرفه الخاص داعياً لتجيزه وسيلة إلى تصديق برهان الخلود ، وهو لذلك يستحث أصدقاءه أن يختبروا قوله ويفندوه ما وسعهم التفنيد .

فلا يلبث سمياس وسيبيس أن يعيدا اعتراضيهما ، فيقول سيماس إنه لا ينكر أزلية الروح ، ولكنه فى الوقت نفسه يرى الروح عبارة عن انسجام الجسد ، غير أنه يجد فى التسليم بأزلية الروح نقضاً لكونها إنسجاماً للجسد ، وذلك لأنه الانسجام معلول فى حين أن الروح علة وليست بمعلول . الانسجام يتبع وجود القيثارة ، أما الروح فتستتبع وجود الجسد ، والانسجام تتفاوت درجاته وليس للروح درجات ، إذ لا مبرر أن تكون روح أفضل من روح ، وإلا فما معنى هذا التفاضل ؟ أيكون معناه تفاوتًا فى درجة انسجامها ؟ ولكن الروح لا تقبل التدرج وإذن فيستحيل أن

تكون روح أكثر أو أقل انسجاما من روح أخرى . هذا إلى أن الروح لا تنفك تقاوم ميول الجسد ورغباته ، وهذه المقاومة لا تتفق مع قولنا إنها انسجام الجسد .

وهنا يلاحظ سقراط أن اعتراض سيبيس هذا يتناول مشكلة السببية كلها ، ويرجو سامعيه أن يأذنوا له أن يقص عليهم تجربته فى هذا الموضوع . فقد كان يدرس علم الطبيعة أيام صباه وأخذ حينئذ يبحث فى كون الحيوان وفساده وفى أصل الفكر ، حتى انتهى به الأمر إلى الشك فى صحة البديهية القائلة بأن النمو نتيجة الأكل والشرب ، فلم يتردد فى أن يعرض عن هذا الموضوع موقنا أنه لم يخلق لمثل هذه البحوث . كذلك أربكته المقارنة بين الأشياء كما حيرته فكرة العدد ، فقد خيل إليه فى أول الأمر أنه يفهم الفرق بين الأكبر والأصغر ، وأن العشرة أكبر من الثمانية باثنين وما إلى ذلك ؛ أما الآن فهو يرى فى هذه الآراء شيئا من التناقض : فكيف تمكن قسمة الواحد إلى اثنين أو تكوين الواحد من اثنين ؟ لم يستطع سقراط أن يفسر هذا الإشكال .

ولقد سمع سقراط مصادفة قارئا يقرأ كتابا لأناكسجوراس يقول فيه إن العقل سبب كل شىء فسأل نفسه : إذا كان العقل سبب كل شىء ، فهو من غير شك يسيطر على كل شىء ويسير به نحو الأفضل . ورجا سقراط أن يجد عند هذا المعلم الجديد أناكسجوواس ما يوضح له هذا

«الأفضل» فى الإنسان والطبيعة ، ولكن سرعان ما خاب رجاؤه ، إذ ألفى صديقه الجديد مخطئا غير منسجم الفكر باتخاذه العقل سببا للأشياء ، فقوله هذا مساو لقولك إن سقراط جالس فى هذا المكان المعين ، لأنه مصنوع من عظام وعضلات . وبديهى أن ليس ذلك هو السبب ، فالسبب الحقيقى هو أن الأثينيين قد رأوا من الخير أن يحكموا عليه بالإعدام ، وأنه رأى من الخير أن يجىء إلى حيث هو لينتظر تنفيذ الإعدام ، فلو أنه سمح لعظامه وعضلاته أن تفعل ما تشاء وما تراه واجبا ، لنفرت من ذلك المكان منذ زمن بعيد . وإذن فلا ريب فى أن فى هذا القول خلطا كثيراً بين السبب والحالة ، ويؤدى هذا الخلط بالناس إلى نظريات خاطئة فى وضع الأرض وحركاتها . فليس بين الناس من يعلم ما هو «الأفضل» الذى تسعى إليه الدنيا ، والذى هو علة تحركها .

ويقول سقراط إن التأمل فى طبائع الأشياء تأملا مباشراً قد يضر ويؤذى كما يؤذى العين أن تنظر إلى الشمس أثناء كسوفها ، فإذا أرادت أن ترى الشمس فى هذه الحالة وجب أن تأخذ لنفسك الحيطة اتقاء للأذى فتكتفى بالنظر إلى صورة الشمس المنعكسة على سطح الماء أو على سطح المرآة ، وكذلك إذا أردت أن تنظر فى طبائع الأشياء فلا ينبغى أن تتجه بروحك إلى الأشياء نفسها وإلا أصبيت روحك بالأذى ؛ وحسبك أن تتأمل فى المُثُل لترى الوجود خلالها .

ويعتقد سقراط أنك إذا سلمت بوجود المُثل هانت عليك البرهنة على خلود الروح ، ثم يطلب إلى مناقشيه أن يسلموا معه بشيء آخر وذلك أن الجمال سبب الجميل والعظمة سبب العظيم والصغر سبب الصغير ، وهكذا قل عن سائر الأشياء ، ثم يمضى يشرح لتلاميذه كيف تتعارض المُثل المتناقضة على الوجود ولكنها لا توجد معاً فى شيء واحد بعينه ، فقد يقال مثلا إن سمياس له كبر وصغر فى آن واحد لأنه أكبر من سقراط ، وأصغر من فيدون ، ولكن سمياس ليس فى حقيقة الأمر كبيراً وصغيراً فى وقت واحد ، إنما يكون كذلك إذا قورن بفيدون وسقراط ، لأن الأضداد يطرد أحدها الآخر ، فإن كان الشخص صغيراً لزم ألا يكون كبيراً ، إذ الصغر الكائن فيه يطرد عنه الكبر .

وهنا يلاحظ أحد الحضور أن هذا القول يناقض ما سلموا به من قبل وهو أن الأضداد تولد أضدادها ، فيجيب سقراط بأن ذلك يصدق على الأضداد الحسية فقط ، ولا ينصبُّ على الأضداد المثالية أعنى أنه صادق بالنسبة للأحياء والأموات ، ولكنه لا يصح فى الحياة والموت . . . ويستطرد سقراط فى الكلام عن مطاردة الأضداد بعضها لبعض فيقول إن تلك المطاردة لا تقع فى الأضداد نفسها فقط بل فى الأشياء المتصلة بها أيضاً على أن يكون اتصالها بها قويا ودائماً ، مثال ذلك أن البرودة والحرارة ضدان ، وكذلك النار التى لا تنفصل عن الحرارة ضد للبرودة ، ولا يمكن

أن توجد معها جنباً إلى جنب ، والثلج الذى لا ينفصل عن البرودة ضد للحرارة ، ويستحيل أن يوجد معها ، كذلك العدد ثلاثة يطرد العدد أربعة ؛ لأن الأول عدد فردى والثانى عدد زوجى ، والفردى ضد الزوجى ، وبذلك نستطيع أن نخطو خطوة إلى الأمام ؛ فنقول إن الفردى لا يتضمن الزوجى ، وليس هذا فحسب ، ولكن العدد ثلاثة الذى يساهم فى الفردية لا يتضمن الزوجى ، وعلى هذا القياس يمكنك أن تقول إن الحياة لا تتضمن الموت ، ولا يقتصر الأمر على هذا ، بل إن الروح الذى من صفاته اللازمة الحياة يستحيل أن يتضمن الموت ، وإن ما تكون الحياة صفته اللازمة لا يكون قابلا للفناء بحكم مدلول اللفظ نفسه . إنه إذا كان مبدأ الفردية غير قابل للزوال ؛ فالعدد ثلاثة إذن لن يفنى ، ولكنه يتوارى فقط إذا اقترب منه مبدأ الزوجية ، وكذلك الخالد لا يقبل الفناء ، والروح عند اقتراب الموت لا تفنى ، ولكنها تتوارى فحسب .

هكذا أجاب سقراط عن اعتراضات محاوريه ، ثم انتقل إلى التطبيق فقال : إذا كانت الروح خالدة ، فكيف ينبغى لنا أن نكون ، إذا لم يكن الإنسان محدوداً بعمره ، وكان أبديا خالداً ، فلن يتخلص الشرير من شره بالموت ؛ لأن الموت ليس نهاية وجوده ، فكل إنسان يحمل معه إلى العالم الأدنى ماهيته ، وذلك لأن الروح تتقدم بعد الموت إلى المحاكمة ، فإن

كانت روحاً حكيمة اهتدت فى طريقها إلى العالم الآخر ، بمَلَكٍ أمين فلا تضل طريقها ، أما الروح الدنسة فتتخبط هنا وهنالك دون أن تجد لها رفيقاً يؤنسها أو دليلا يهديها .

وينتقل سقراط بعدئذ إلى وصف الأرض ووصف العالم الأدنى وكيف يلاقى الأشرار عذابهم ، والأبرار جزاءهم وثوابهم ، ويستدرك سقراط بعد وصف مطنب فيؤكد أن هذا الوصف الذى قدمه لا يتحتم أن يكون دقيقا مضبوطا ، بل إنه يصور به شيئاً كالحقيقه لا أكثر .

وأزفت ساعة الموت فسأله سائل كيف يريد أن يُدفن بعد موته ، فأبى أن يجيب عن ذلك قائلا : أنهم لن يدفنوه هو بل سيدفنون جسده الميت وحده ، ثم يجرع بعد ذلك كأس السم ، وإذ هو يلفظ أنفاسه الأخيرة تقدم إلى أصدقائه بطلب أخير لم تستطع الأجيال المقبلة أن تفسره ، فقد قال فى شىء من التهكم إن عليه واجباً دينيا صغيراً لم يؤده بعد ، ورجا أصدقاءه أن يؤدوه نيابة عنه ، ولعله كان يريد أنه بموته إنما يستقبل السعادة والعافية فعلية أن يقدم للآلهة آية شكره وولائه ، أو لعله أراد ألا يرحل وفى ضمير لذعة من التقصير الدينى .

فيدون
أو خلود الروح

أشخاص الحوار

فيدون (وهو راوى الحوار إلى أشكراتس من أهالى فيلوس)

سقراط ، أبولودورس ، سمياس ، سيبيس ، أقريطون ، حارس السجن

مكان الحوار : سجن سقراط

مكان الرواية : مدينة فليوس

أشكراتس : أى فيدون ! هل كنت بنفسك فى السجن مع سقراط يوم تجرع السم ؟

فيدون : نعم كنت يا أشكراتس .

أشكراتس : أود لو حدثتنى عن موته ، ماذا قال فى ساعاته الأخيرة؟ لقد أنبئنا أنه مات باجتراعه السم ، ثم لم يعلم أحد منا فوق ذلك شيئاً ، فليس ثمة اليوم بين بنى فليوس من يذهب إلى أثينا ، كما أن أحداً من الأثينيين لم يجد سبيله إلى فليوس منذ عهد بعيد ، ولذا لم يأتنا عنه نبأ صريح .

فيدون : هل أتاك حديث المحاكمة وكيف سارت ؟

أشكراتس : نعم ، لقد حدثنا بعض الناس عن المحاكمة ، فلم ندر

لماذا نفذ فيه الإعدام بعد الإدانة بزمن طويل ، كما رأينا ، ولم ينفذ فى حينه ؟ فما علة ذلك ؟

فيدون : علته حادث وقع فى اليوم السابق لمحاكمته يا أشكراتس ، وهو تكليل مؤخرة السفينة التى يبعثها الأثينيون إلى دلفى .

أشكراتس : وما تلك السفينة ؟

فيدون : يروى الأثينيون أنها السفينة التى كان قد أبحر عليها تسيوس Tescus وصحبه الشبان الأربعة عشر إلى أقريطش ، حيث نجا وإياهم ، وكان قد قيل وقتئذ أنهم نذروا لأبولو أن لم سلموا ليحجُّن إلى دلفى فى كل عام ، وما تزال تلك العادة متصلة إلى اليوم . فهذه الفترة كلها ، التى تنفقها السفينة فى رحلتها إلى دلفى ، ذهاباً وإياباً ، منذ الساعة التى يكلل فيها كاهن أبولو مؤخرة السفينة ، فترة حرام ، لا يجوز خلالها أن تدنس أرضها بقتل أحد من الناس ؛ وكثيراً ما اعترضت السفينة ريح أخرتها ، فأرجئ الإعدام أياماً طوالاً . فهذه السفينة كما سبق لى القول قد كللت فى اليوم السابق لمحاكمة سقراط . فدعاه ذلك إلى أن يلبث فى السجن ولم يعدم إلا بعد الإدانة بزمن طويل .

أشكراتس : كيف كان موته يافيدون ؟ ماذا عُمل وماذا قيل ؟ ومن ذا جاوره من أصدقائه ؟ أم لم يأذن لهم ذوو السلطان بالحضور فمات وحيداً؟

فيدون : لا ، بل رافقته من أصدقائه طائفة كبيرة .

أشكراتس : إن لم يكن لديك ما يشغلك ، فأرجو أن تقص على ما حدث ، دقيقاً ما استطعت إلى الدقة سبيلاً .

فيدون : لا شاغل عندى ، وسأحاول أن أجيبك إلى ما رجوت ، فليس كذلك أحب إلى من أن أكون دائم الذكر لسقراط ، سواء أكنت أنا محدثاً ، أو كنت مستمعاً إلى من يتحدث عنه .

أشكراتس : لن تجد من سامعيك إلا نفوساً ترغب فيما رغبت فيه ، وإنى لآمل أن تكون دقيقاً ما وسعتك الدقة .

فيدون : إنى لأذكر ما اعترانى من إحساس عجيب ، إذ كنت إلى جانبه ، لقد كنت بإزائه غليظ القلب ، يا أشكراتس ، لأنى لم أكد أصدق أنى إنما أشهد صديقاً يلفظ الروح . إن كلماته وقسماته ساعة الموت ، كانت من النبل والجلد ، بحيث بدا فى ناظرى كأنه رافل فى نعيم ، فأيقنت أنه لابد أن يكون بارتحاله إلى العالم الآخر ملبياً لدعوة من ربه ، وأنه سيصيب السعادة إذا ما بلغ ذلك العالم ، إن كان لأحد أن يعيش ثمة سعيداً ؛ فكان طبيعياً ، وتلك حاله ، ألا تأخذنى عليه الرحمة ، ولكنى مع ذلك لم أجد فى الحوار الفلسفى (إذ كانت الفلسفة موضوع حديثنا) ما تعودت أن أجده فيه من متاع ؛ لقد كنت مغتبطاً ولكنى أحسست إلى جانب الغبطة ألماً ، أن علمت أنه لن يلبث طويلاً حتى يموت . لقد ساهمنا جميعًا فى هذا المزيج العجيب من المشاعر ، فكان

يتناوبنا الضحك والبكـاء ، ولا سيما أبو لودورس لأنه سـريع التأثر - هل تعرف هذا الضرب من الرجال ؟

أشكراتس : نعم .

فيدون : لقد غُلب على أمره وتخاذلت قواه ، وأنا نفسى ، بل وكلنا جميعاً ، قد بلغ منا التأثر مبلغاً عظيماً .

أشكراتس : من كان الحضور ؟

فيدون : حضـر سوى أبولودورس من بنى أثينا ، كـريتوبولس وأبوه أقريطون ، وهرمـوجينس ، وأبيجـينس ، وإيشينس ، وانتسـتين . كذلك أكتيسبّس من أهل بيانيا ، ومينكسينوس وغيرهم كثيرون . أما أفلاطون فقد كان مريضاً فيما أظن .

أشكراتس : أكان ثمة أحد من الغرباء ؟

فيدون : نعم . كان هناك سمياس الطيبى ، وسيبيس ، وفيدوندس ، وأقليدس ، وتربيزون الذين جاءوا من ميغارا .

أشكراتس : وهل كان أرسطبّس وكليومبروتس حاضرين ؟

فيدون : لا . فقد قيل إنهما كانا فى أيجينا .

أشكراتس : ومن غير هؤلاء ؟

فيدون : هم فيما أحسب كل الحاضرين على وجه التقريب .

أشكراتس : وأى حديث تناولتم بالحوار ؟

فيدون : سأسوق الحديث من أوله، محاولاً أن تكون الرواية شاملة.

ولعلك تعلم أنا قد كنا من قبل نجتمع مع الصباح الباكر فى المحكمة التى جرت فيها المحاكمة ، وهى على مقربة من السجن ، فنظل نتجاذب أطراف الحديث حتى تفتح أبواب السجن (وقد كانوا لا يبادرون بفتحها) فندخله لننفق معظم النهار مع سقراط ، فلما كان الصبح الأخير ، بكرنا باللقاء عن الموعد المعهود[1] إذ علمنا فى الليلة السالفة أن السفينة المقدسة قد عادت من دلفى فتواعدنا على اللقاء فى المكان المضروب جد مبكرين ، فما كدنا نبلغ السجن حتى طلع السجان المسئول عن حراسة السجن ، ولم يأذن لنا بالدخول ؛ بل أمرنا أن ننتظر حتى يدعونا ؛ «لأن الأحد عشر مع سقراط الآن ؛ يرفعون عنه الأغلال ، ويأمرون بأن يكون اليوم قضاؤه المحتوم» كما قال . ولم يلبث أن عاد يجيز لنا الدخول ، وإذ فعلنا ألفينا سقراط قد خلص لتوه من الأصفاد واكزانثيب[2] ، التى تعرفها ، جالسة إلى جانبه تحمل وليده بين ذراعيها ، فلم تكد تبصرنا حتى صاحت قائلة

(١) اضطر الأثينيون إلى تأجيل تنفيذ الإعدام حتى تعود السفينة المقدسة من دلفى ، وقد استغرقت تلك السفينة فى رحلتها ثلاثين يوماً قضاها سقراط فى محاورة صفوة تلاميذه ، ويشير هنا فيدون إلى أن هؤلاء التلاميذ قد قصدوا إلى سقراط فى سجنه مبكرين فى آخر يوم من أيامه أى حينما علموا أن السفينة باتت على مقربة من أثينا لتطول مدة الحوار الأخير .

(٢) إكزانثيب هى زوج سقراط .

ما ينتظر أن تقوله النســاء : «أواه يا سقراط ! لتلك آخر مرة يتاح لــك فيها أن تتحــدث إلى أصدقائك أو يتحــدثون إليك» فنظر سقراط إلى أقريطون، وقال : «مر أحداً يا أقريطون أن يذهب بها إلى الدار» فساقها بعض حاشيته صارخــة لادمة ، وما كــادت تغيب عن النظر حــتى انثنى سقــراط ، وكان جالساً على سريره ، وأخذ يربت على ســاقه قائلاً : «ما أعجب هذا الشئ الذى يســمونه اللذة ، مــا أغرب صلــته بالألم ، الذى قــد يظن أنه واللذة نقيضان لأنهما لا يجتمعان معاً فى إنسان ، مع أنه لابد لمن يلتمس أحدهما أن يحمل معه الآخر ؛ إنهما اثنان ، ولكنهــما ينبتان معاً من أصل واحد ، أو يتفــرعان من أرومــة واحدة ، ولست أجــد سبيــلاً إلى الشك فى أنه لو رآهما إيسوب Aesop لأنشأ عنهما قصة ، يصور فيها الله وهو يحاول أن يوفق بينهما فى الخصومة القائمة ، فإن لم يوفق شد رأسيهما إلى بعض فى وثاق واحد[1] ، وذلك علة أن يجئ الواحــد فى أعــقاب أخيــه ، كمــا شاهدت فى نفسى ، إذ أحســست لذة فى ساقى جاءت فى أثر الألم الذى أحدثه القيد فيها[2] .

وهنا قال سيبيس : كم يسرنى حقاً يا سقراط أن تذكر إيسوب ، فقد

---

(١) أى خلقهما فى حيوان واحد ذى رأسين ، إشارة إلى شدة الاتصال بينهما .

(٢) تعمــد أفلاطون أن يســوق على لسان سـقراط هذه الملاحظة، أى أن اللذة تـعقب الألم، تمهيـداً لنظريته فى التبادل بـين الأضداد ، التى سيجئ ذكـرها بعد فى هذا الحوار .

ذكرنى ذلك بمسألة طرحها بعض الناس واستجابنى عنها أفينوس الشاعر أمس الأول ، ولا ريب فى أنه سيعود إلى السؤال ، فحدثنى بماذا أجيبه ، إن كنت تحب أن يظفر بالجواب . إنه أراد أن يعرف لماذا ، وأنت رهين السجن ، ولم تكتب من قبل بيتاً واحداً من الشعر ، تنظم قصص إيسوب وتنشئ تلك الأنشودة إجلالاً لأبولو .

فأجاب أن حَدِّثه ياسيبيس بأنى لم أفكر فى مُنافَستِه ومنافسة أشعاره، وحق ما أقول ، لأننى كنت أعلم أن لا قبل لى بذلك ، إنما أردت أن أرى هل أستطيع أن أمحو وهماً أحسسته عن بعض الرؤى ، فلكم أشارت إلى هواتف الأحلام فى أيام الحياة «بأننى سأنشئ الموسيقى» وقد كان يطوف بى هذا الحلم فى صور متباينة ، ولكنه لازم عبارة بعينها ينطق بها أو بما يقرب منها دائماً : أنشئ الموسيقى وتعهدها بالنماء ، هكذا كانت تهتف الرؤيا ، وقد خيل إلى منذ ذلك الحين أنها لم ترد بذلك إلا أن تحفزنى وتبعثنى على دراسة الفلسفة التى كانت دوماً قصد الرمىّ من حياتى ، والتى هى أسمى جوانب الموسيقى وأرفعها شأناً فكما ترى النظارة فى حلبة السباق يهيبون بالمتسابق المتحمس أن يجرى مع أنه يجرى فعلاً، كذلك كانت رؤياى تأمرنى أن أؤدى ما كنت بالفعل قائماً بأدائه ؛ ولكننى لم أكن على يقين من هذا ، وربما قَصَدت الرؤيا بالموسيقى معنى الكلمة المعروف ، فرأيت أنى أكون آمن ، لو أرضيت هذا الشك ، وأطعت الرؤيا فيما تأمر به ،

فأنشأت قبل رحيلى قليلاً من الشعر ، فهذا قضاء الموت يرقبنى ؛ وقد أمهلنى العيد قليلاً . فكتبت بادئ ذى بدء نشيداً فى تمجيد إله هذا العيد ، ثم لما رأيت أن الشاعر الذى يراد له أن يكون شاعراً مبدعاً حقاً ، لا ينبغى أن يحشد ألفاظاً وكفى ، بل لابد له أن ينشئ قصصاً ، ولما لم تكن لدى قوة الإنشاء ، أخذت طائفة من قصص إيسوب ، ونظمتها شعراً ، فقد كانت مُيسرة سهلة التناول ، وإنى بها لعليم . أنبئ أفينوس بهذا ولا تجعله يبتئس ، وقل له إنى أود أن يَتّبعنى ، وألا يتلكأ إن كان رجلاً حكيماً ، فأغلب الظن أنى مرتحل عنكم اليوم ، إذ قال الأثينيون أن ليس لى من ذلك بد .

قال سمياس : يا له من نبأ يُحمل لذلك الرجل ! إنى أقرر لكم وقد كنت رفيقاً له ملازماً ، أنه - كما عهدته - لن يأخذ بنصحك إلا مجبراً.

قال سقراط : ولماذا ؟ أليس أفينوس فيلسوفاً ؟

قال سمياس : أحسبه كذلك .

إذن فسيكون راغباً فى الموت ، شأن كل رجل عنده روح الفلسفة ، ولو أنه ينتزع روحه بيده ، فقد أجمع الرأى على أن ليس ذلك صواباً .

وهنا بَدّل فى وضعه ، فأنزل ساقيه من السرير إلى الأرض ، ولبث جالساً حتى ختم الحوار .

تساءل سيبيس : فيم قولك إن الإنسان لا ينبغى أن يستل حياته ، وأنه يجب على الفيلسوف أن يعد نفسه ليلحق بالموتى[1] ؟

فأجاب سقراط : إنكما يا سيبيس وسمياس ، تعرفان فيلولاوس[2] فهلا سمعتماه يتحدث عن هذا ؟

- إنى يا سقراط لم أفهم قوله أبداً .

- ليست كلماتى كذلك إلا صدى ، ولكنى شديد الرغبة فى أن أروى ما سمعته ، فالحق أنى مادمت مرتحلاً إلى غير هذا المكان فيجب ألا يُشغَل الفكرُ ويدور الحديث إلا حول هذا الرحيل الذى أوشك أن أقوم به ، وماذا عساى أن أفعل خيراً من هذا منذ الآن إلى أن تغرب الشمس ؟

- إذن فحدثنى يا سقراط ، لماذا استقر الرأى على ألا يكون الانتحار حقاً مشروعاً ؟ لقد سمعت فيلولاوس يقيناً يؤكد ذلك عندما كان يجلس بيننا فى طيبة ، وثم أناس آخرون يقولون مثل هذا القول ، ولو أن أحداً منهم لم يستطيع قط أن يفهمنى ما يقول .

---

(١) يلاحظ سيبيس تناقضاً بين تحريم الانتحار ، واعتبار الموت خيراً ولكن سقراط أجابه بأن الإنسان : (١) سجين ولا يجوز له أن يفتح باب سجنه ويفر هارباً ؛ (٢) لأن الإنسان ليس ملك نفسه ، لكنه ملك للآلهة ، فليس له الحق أن يتصرف فيما ليس له عليه سطان المالك .

(٢) فيلسوف كان مقيماً فى مدينة طيبة ، وكان سمياس وسيبيس هذان تلميذيه .

فأجاب سقراط : ولكنك يجب أن تحاول الفهم ما استطعت ولابد أن يأتى اليوم الذى تفهم فيه ، أحسبك تعجب لماذا تشذ هذه الحالة وحدها ، ومعظم الشرور قد تجئ بالخير عرضاً (لأنه أليس من الجائز أن يكون الموت كذلك أفضل من الحياة فى بعض الظروف ؟) وإذا كان خيراً للإنسان أن يموت ، فما الذى يمنع أن يقدم لنفسه الخير بنفسه ؛ ألزمٌ عليه أن ينتظر من غيره يد الإحسان ؟

فقال سيبيس ضاحكاً فى لغته الدّورية القومية : أى وحق جوبتر !

فأجاب سقراط : إنى أُسَلّم بأن هذا تناقضاً ظاهراً ، ولكن مع ذلك قد لا يكون هذا التناقض حقيقياً ، هناك مذهب جرت به الألسنة فى الخفاء بأن الإنسان سجين ، وليس له الحق فى أن يفتح باب سجنه ليفر هارباً ، إن ذلك إشكال عظيم لست أفهمه فهماً دقيقاً ، ولكنى أعتقد مع ذلك أن الآلهة هم أولياؤنا وأننا مِلْكٌ لهم ، أفلست ترى ذلك ؟

قال سيبيس : بلى ، إنى أوافق على ذلك .

– فلو أن ثوراً مثلاً مما تملك أنت أو حماراً ، شاءت له إرادته أن يحيد بنفسه عن الطريق ، على حين أنك لم تُشر له برغبتك فى وجوب حيدته ، أفلا تسخط عليه ، ثم ألا تعاقبه إن استطعت ؟

فأجاب سيبيس : يقينا .

– وإذن فقد يكون فى القول بأن الإنسان يجب أن ينتظر ، وألا يُهلك

حياته بنفسه ، حتى يقضى الله فيه أمراً ، كما فعل بى الآن ، سندٌ من العقل .

قال سيبيس : نعم يا سقراط ، إن فى ذلك ولا ريب سنداً من العقل ، ولكن كيف بعد هذا تستطيع أن توائم بين هذه العقيدة الصحيحة فى ظاهرها وهى أن الله مولانا ونحن له عبيد ، وبين ما كنا نضيفه إلى الفيلسوف من رغبة فى الموت ؟ أما أن يرغب من هم أبلغ الناس حكمة ، فى ترك هذا العمل الذى تحكمهم فيه الآلهة ، وهم خير الحاكمين ، فلا يسلم به العقل ، لأنه يستحيل على صاحب الحكمة أن يظن بنفسه المقدرة، لو أطلقت له حرية العمل ، على أن يعنى بنفسه أكثر مما تعنى به الآلهة ، ربما توهم ذلك المأفون ، وقد يحتج بأن خيراً له أن يفر من سيده دون أن يضع فى اعتباره بأن واجبه هو أن يثبت حتى النهاية ، لا أن يفر من الخير فرراً لا حكمة فيه . أما الرجل الحكيم فلا إخاله إلا راغباً فى أن يكون أبداً مع من هو خير منه . انظر يا سقراط . فهذا يناقض ما قد قيل الساعة توا ، إذ يترتب على هذا الأساس أن يأسف ذو الحكمة لفراق الحياة ، وأن يغتبط له الجهول .

فصادفت حماسة سيبيس فيما يظهر غبطة من سقراط ، فالتفت إلينا وقال : هاكم رجلاً لا يبرح متسائلاً ، ولا تكفى لإقناعه الفترة القصيرة ، وليست كل حجة ترضيه .

فأضاف سمياس: ولكن اعتراضه الآن يبدو لى على شىء من القوة ،

فـأى غنـاء عسى أن يكون فى ذى الحـكمة الحق ، إذا هو ابتـغى أن يلوذ بالفـرار ، وأن يستخف بـترك سيـده الذى هو أفضل منه ؟ ولـست إخال سيبـيس إلا مشيراً إليك ، فهو يظـن أنك لا تتردد فى تركنا ، بل لا تتردد فى ترك الآلهة الذين هم كما اعترفت أولو أمرنا الصالحون .

فأجـاب سقراط : نعم ذاك قـول يستقيم مـع العقل ، ولكن أهو فى ظنك دعوى ينبغى أن أجيب عنها كما لو كنت أمام القضاء ؟

قال سمياس : ذلك ما كنا نبتغى .

إذن فـلأحاول أن ألقى فى نفـوسكم أثراً خـيراً مما تركت حـيث كنت أدافع عن نفسى أمام القـضاة ، فلست أتردد يا سيبيس وسـمياس فى الاعتـراف بوجوب الأسى من الموت . إذ لم أكن راسخ العقـيدة بأنى ذاهب إلى طائفة أخـرى من الآلهة ذوى الخيـر والحكمة (وإنى لأوقن بهذا يقـينى بأى شئ آخر من هذا القبـيل) وإلى الراحلين من الرجال (وإن كنت لا أقطع بهـذا قطعى بالأولى) وهم يُفْـضُلون هؤلاء الذى أُخَلفُهم ورائى ، فلست لهذا أبتئس ، كما كان ينتظر أن أفعل ، لأنى آمل خيراً ، بأن ثمة شيئاً لا يزال مـدخراً للموت ، وهو كما قد قيل منذ القدم أدنى جداً إلى الخير منه إلى الشر .

قال سمـياس : ولكن هل تريد أن تستصحب أراءك مـعك يا سقراط فـلا تنقلها إلينا َ إنا قـد نرجـو أيضاً أن نسـاهم فى ذلك النفع ، وأنت إذا وفقت بعد ذلك لإقناعنا ، كان ذلك منك رداً على ما اتهمت به .

فأجاب سقراط : سأبذل وسعى ، ولكن دعونى أستمع أولاً لما يريده أقريطون . إنه كان قد هم أن يقول لى شيئاً .

فأجاب أقريطون : أردت أن أقول يا سقراط إن الخادم الذى أمر بإعطائك السم قد أنبأنى ، لأبلغك ، بأنه يحسن بك ألا تكثر الكلام لأنه يزيد من الحرارة ، وهذه تؤثر فى فعل السم ؛ لقد اضطر أحياناً أولئك الذين أثاروا نفوسهم أن يجرعوا السم مرتين أو ثلاثاً .

قال سقراط : إذن فليؤد واجبه ، وليتأهب لإعطاء السم مرتين أو ثلاثاً إذا لزم الأمر ، وحسبنا هذا .

فأجاب أقريطون : لقد كدت أوقن بأنك ستقول ذلك ، ولكنى لم أجد محيصاً عن إرضائه .

قال سقراط : لا تأبه به .

وهأنذا الآن أجيبكم - أنتم يا قضاتى - فأبين لكم أن من عاش فيلسوفاً حقاً ، معه الحجة فى أن ينعم بالاً إذا ما اقترب من الموت ، وأنه قد يرجو أن يصيب فى العالم الآخر بعد الموت أعظم الخير . سأشرح لكما ، أى سيبيس وسمياس ، كيف يمكن أن يكون هذا ، فيغلب فيما أرى أن يسئ الناس الظن بطالب الفلسفة الصحيح ؛ لأنهم لا يدركون أنه أبداً دائب السعى وراء الموت والموتى . وإن صح أنه ما برح راغباً فى الموت طوال حياته ، ففيم الجزع إذا ما تهيأت له غايته التى كان لا يفتأ ساعياً إليها راغباً فيها .

فضحك سمياس وقال : إنى وإن كنت لا أسوق القول متندراً هازلاً، لأقسم بأنه لا يسعنى إلا أن أضحك إذا ما فكرت فيما سيقوله هذا العالم اللعين ، حين يخبر بهذا - سيقولون بأن هذا بالغ الحق - ومن فى دورنا من أهل ، سيؤيدونهم ، فى قولهم بأن الحياة التى يتمناها الفلاسفة هى لاشئ غير الموت ، وإنهم قد تبينوهم فإذا هم حقيقيون بالموت الذى يتمنون .

- وهم على حق يا سمياس فى قولهم هذا ، إذا استثنيت منه هذه العبارة: «إنهم تبينوهم» لأنهم لم يتبينوا طبيعة هذا الموت الذى يتمناه الفيلسوف الحق ، ولا كيف هو حقيقى بالموت أو رغب فيه ، فلندعهم وليتحدث بعضنا إلى بعض قليلاً : أنحن معتقدون فى وجود ما يسمى بالموت ؟

فأجاب سمياس : كن من ذلك على يقين .

- وهل يكون الموت إلا انفصال الروح عن الجسد ؟ والإنسان إنما يبلغ هذا الانفصال إذ ما قامت الروح بذاتها مفصولة عن الجسد ، وقام الجسد مفصولاً عن الروح - أليس ذلك هو الموت ؟

فأجاب : هو كذلك ، وليس شيئاً غير هذا .

- ما قولك يا صديقى فى مسألة أخرى ، أحب أن تدلى إلىّ برأيك فيها ، وقد تلقى إجابتك عنها ضوءاً على موضوع بحثنا ، هل ترى

جديراً بالفيلسوف أن يعنى بلذائذ الأكل والشرب - إن صح أن تدعى هذه لذائذ ؟

فأجاب سمياس : لا ، ولا شك .

- وماذا تقول فى لذة الحب ، أينبغى له أن يعنى بها ؟

- لا ينبغى بحال من الأحوال .

- وهل يجوز له أن يطيل الفكر فى غير ذلك من ألوان لذة الجسد - كحيازة اللباس الفاخر ، والنعال ، مثلاً ، أو غيرها من زينات البدن؛ ألا يجدر به بدلاً من أن يعنى بهذا أن يزدرى كل شئ مما يزيد على حاجة الطبيعة ؟ فماذا تقول ؟

- يجب أن أقرر بأن الفيلسوف الحق ينبغى أن يزدريها .

- ألست ترى أن ينصرف بكليته إلى الروح لا إلى البدن ؟

إنه يود أن يتخلص من البدن ، وأن يعود إلى الروح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ؟

- ذلك حق .

- وترى الفلاسفة يلتمسون فى مثل هذا الأمر كل سبيل لفصل الروح عن الجسد أكثر مما يفعل سائر الناس جميعاً .

- ذلك صحيح .

- بينما يعتــقد سائر الناس يا سمياس أن حــياة تخلو من لذائذ البدن ولا تأخذ منها بقسط ، ليست حقيقة بالبقاء ، بل يرون أن إنساناً لا يفكر فى مسرات الجسد ، يكون كالأموات .

- ذلك جد صحيح .

- وبعد فماذا عسانا أن نقول عن السبل الحقيقية التى تقتضيها المعرفة ؟ إن كان ثمة ما يدعو الجسم للمساهمة فى تحصيلها ، فهل يكون عائقاً لها أم معيناً عليها ؟ أعنى هل يأتينا السمع والبصر بحقيقة ما ؟ أليس هما دليلين خاطئين كما لا يفتأ ينبئنا الشـعراء ؟ فإن كانا خاطئين ومبهمين فماذا عـسى أن يقال عن سائر الحواس ؟ ولا أحسـبكم معارضين فى أنهما أضبط الحواس .

فأجاب سمياس : يقيناً .

- وإذن فمتى تدرك الروح الحقيقة ؟ - لأنها إن أشركت معها الجسم فيما تحاول أن تبحثه ، فهى مخدوعة لا محالة .

- نعم ، هذا صحيح .

- أفلا يجب إذن أن ينكشف لها الوجـود بوساطة الفكر ، إن كان له أن ينكشف .

- نعم .

- أحسن ما يكون الفكر حينما ينحصـر فى حدود نفسه ، حتى لا يشغله

شيء من هذه - فلا أصوات ولا مناظر ولا ألم ولا لذة مطلقاً - وذلك إنما يكون عندما يصبح الفكر أقل اتصالاً بالجسد ، فلا يصله منه حس ولا شعور بل ينصرف بتطلعه إلى الكون .

- هذا جد صحيح .

- وفى هذا يزدرى الفيلسوف البدن ، فتفر منه روحه وتود أن تنعزل بنفسها .

- هذا صحيح .

- حسناً ، ولكن بقى شيء آخر ياسمياس ، أثمة عدل مطلق أم ليس له وجود ؟

- لا ريب فى أنه موجود .

- وجمال مطلق وخير مطلق ؟

- بالطبع .

- ولكن هل حدث لك أن رأيت واحداً منها بعينيك ؟ .

- يقيناً لم أره .

- ألم تدركها قط بأية حاسة جثمانية أخرى ؟ (ولست أتحدث عن هذه وحدها ، بل كذلك عن العظمة المطلقة وعن الصحة وعن القوة وعن ذات كل شيء ، أى حقيقة طبيعته) ألم يأتك علمها قط خلال أعضاء

الجسد ؟ أليس الذى يريد عقله على أن يتصور ذات الشىء الذى هو بصدد بحثه أضبط تصور ، إنما يسلك بذلك أخصر السبل التى تؤدى إلى معرفة طبائعها الكثيرة .

- يقيناً .

- أما من يظفر بمعرفتها أسمى ما تكون نقاء فهو ذلك الذى يسعى إليها واحدة واحدة ، فيتناولها بالعقل وحده ، دون أن يأذن للبصر أو لغيره من الحواس الأخرى بالتطفل أو التدخل فى مشاركة العقل وهو منصرف إلى التفكير ، بل ينفذ بأشعة العقل ذاتها ، بكل صفائها ، إلى ضوء ما فيها من حقائق ، بعد أن يكون قد تخلص من عينيه وأذنيه ، بل ومن كل جسده ، الذى لا يرى فيه إلا عنصر تهويش ، يعوق الروح عن إدراك المعرفة مادام متصلاً بها - أليس أرجح الظن أن يظفر مثل هذا الرجل بمعرفة الوجود ، إن كانت معرفته فى مقدور البشر على الإطلاق ؟

فأجاب سمياس : إن فى ذلك يا سقراط لحقاً رائعاً .

- أو ليس لزاماً على الفلاسفة الحق إذا هم اعتبروا ذلك كله أن يغوصوا فى أفكارهم ، فإذا ما التقوا تحدث بعضهم إلى بعض عن تفكيرهم بمثل هذه العبارة : إنا قد اهتدينا إلى سبيل من التأمل قمينة أن تنتهى بنا وبالجدل إلى هذه النتيجة : وهى أنه مادمنا فى أجسادنا ومادامت

الروح ممتزجة بهذه الكتلة من الشر ، فلن تبلغ شهوتنا حد الرضى ، وإنها لشهوة الحقيقة ، ذلك لأن الجسد مصدر لعناء متصل، علته هذه الحاجة إلى الطعام ، وهو كذلك عرضة للمرض الذى يتتابنا فيحول بيننا وبين البحث عن الحقيقة ، وهو كما يقول الناس ، أبداً لا يدع لنا السبيل إلى تحصيل فكرة واحدة ، لما يملأنا به من صنوف الحب والشهوات والمخاوف والأوهام والأهواء ، وكل ضرب من ضرب الجهالة ، وإلا فمن أين تأتى الحروب والمعارك والأحزاب إن لم تكن آتية من الجسد وشهوات الجسد ، فالحروب يثيرها حب المال ، والمال إنما يُجمع من أجل الجسد وخدمته ، ومن جراء هذا كله يضيع الوقت الذى كان ينبغى أن ينفق فى الفلسفة ، هذا ولو تهيأ للفلسفة الميل والفراغ لنفث الجسد فى مجرى التأمل الشغب والاضطراب والخوف ليحول بيننا وبين رؤية الحقيقة ، وقد دلت التجارب جميعاً على أنه لو كان لنا أن نظفر عن شىء ما بمعرفة خالصة لوجب أن نتخلص من الجسد ، ولزم على الروح أن تشهد بجوهرها جواهر الأشياء جميعاً ؛ ولست أحسبنا إلا ظافرين بما نبتغى، وهو ما نزعم أننا محبوه ، وأعنى به الحكمة ، لا أثناء حياتنا بل بعد الموت كما تبين من الحديث ، فإن كانت الروح عاجزة عن تحصيل المعرفة وهى فى رفقة الجسد ، فالنتيجة كما يظهر أحد أمرين : إما أن تكون المعرفة ليست على الإطلاق حقيقة بالتحصيل ، وإما أن تحصيلها يكون بعد الموت إن كانت جديرة به؛ فعندئذ ، وعندئذ فقط ، تنعزل الروح فى نفسها

مستقلة عن الجسد ، وأحسب أننا فى هذه الحياة الحاضرة نسلك أخصر السبل إلى المعرفة، لو كنا نبذل نحو الجسد أقل ما يمكن بذله من عناية وشغف، فلا نصطبغ بصبغة الجسد ، بل نظل أصفياء إلى الساعة التى يشاء فيها الله نفسه أن يحل وثاقنا ، فإذا ما تطهرنا من أدران الجسد ، وكنا أنقياء ، وتجاذبنا مع سائر الأرواح النقية أطراف الحديث ، تعرفنا أنفسنا فى الأشعة الصافية التى تضىء فى كل مكان، فلا ريب أن ذلك هو ضوء الحقيقة ، فلن يُؤذَنَ لشىء دنس أن يدنو مما هو طاهر ، إنه لن يسع محبى الفلسفة الحقيقية ، يا سمياس ، إلا أن يفكروا فى هذه الألفاظ وأشباهها ، وأن يقولها بعض لبعض ، أفأنت موافق على ذلك ؟

- يقيناً يا سقراط .

- ولكن إن صح هذا يا صديقى ، فما أعظم الأمل إذن فى أننى إذا ما بلغت غاية رحلتى ، فلن يقلقنى هذا الهم الشاغل الذى صادفنى وإياكم فى حياتنا الأولى ؛ أما وقد تحددت ساعة رحيلى ، فذلك ما أرحل به من رجاء ، ولست فى ذلك فريداً ، بل هكذا كل رجل يعتقد أن عقله قد تطهر .

فأجاب سمياس : يقيناً .

- وماذا يكون التطهير غير انفصال الروح عن الجسد ، كما سبق لى

القول ، واعتياد الروح أن تجمع نفسهـا وتحصرها فى نفسها بعيداً عن مطارح الجسد جميعاً ، وانعـزالها فى مكانها الخاص ، فى هذه الحياة الأخرى ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، وفكاكها من أغلال البدن؟

فقال : هذا جد صحيح .

– وماذا يكون ذلك الذى يدعى الموت سوى هذا الانفصال نفسه : وتحلل الروح من الجسد ؟

فقال : لا شك فى ذلك .

– والفلاسفـة الحق وحدهم دون غيرهم ينشـدون خلاص الروح ويتمنون أن يكون . أليس انفـصال الروح وفكـاكهـا من الجسـد هو موضـوع بحثهم الخاص ؟

– هذا صحيح .

– إنه لتناقض مضحك كما قلت فى بادئ الأمر ، أن ترى أناساً يحاولون بالدراسة أن تكون حياتهم قريبة من حالة الموت ما استطاعوا ، فإذا ما أدركوا الموت أشفقوا منه .

– يقيناً .

– إذن ياسمـياس . فمـا دام الفلاسفـة الحق لا ينفكون يعدون أنفسهم للمـوت ، فالموت عندهم ، دون الناس جـميعـاً ، أهون الخطوب .

انظر إلى الأن على هذا النحـو : كم يبلغ منهم التناقض أن يناصـبوا الجسد عداوة متـصلة ، ويتمنوا لو خلصت لهم الروح وحدها ، فإذا ما أجيبوا إلى ذلك ، كان منهم السـخط والجزع ، فى مكان اغتباطهم بالرحيل إلى ذلك المكان ، حيث يؤملون إذ ما بلغوه أن يظفروا بما قد أحبوا فى الحياة (ألا وهى الحكمة) ، أن يتخلصوا فى الوقت نفسه من مرافقة عدوهم . وكأين من رجل تمنى أن يذهب إلى العالم الأدنى ، آملاً أن يصادف هناك معشوقة دنيوية ، أو زوجاً ، أو ولداً، ليتحدث إليهم . أبعد ذلك يشفق من الموت من هو للحكـمة محب صحيح ، ويعتقد كذلك أن لن يتاح له بحق إلا فى العالم الأدنى ؛ أليس يقابل الرحيل بالبشر ؟ إنه يا صديقى لابد فاعل إن كان فيلسوفاً حقاً ، لأنه سيوقن يقيناً ثابتاً أنه لا يسـتطيع أن يلتمس الحكمة فى نقائها إلا هناك فقط ، دون أى مكان آخر ، وإن صح هذا فأبلغ به من أحمق - كما سبق لى القول - إن كان يفرَق من الموت.

- فأجاب سمياس: لا ريب فى أنه فاعل .

- وأنت إذا رأيت رجلاً يجزع من اقتراب الموت ، كان جزعه دليلاً قاطعاً على أنه ليس محـباً للحكمـة ، ولكنه محب للجسـد ، ربما كان فى الوقت نفسه محباً للمال ، أو القوة ، أو كليهما .

فأجاب : هذا جد صحيح .

- إن ثمة ياسمياس لفضيلة تدعى الشجاعة . أليست هذه صفة خاصة بالفلسفة ؟

- يقينا .

وكذلك الاعتدال . أليس الهدوء ، وضبط النفس ، وازدراء العواطف ، التى يسميها الدهماء أنفسهم بالاعتدال ، صفة مقصورة على أولئك الذين يحتقرون الجسد ويعيشون فى الفلسفة ؟

- ليس فى ذلك خلاف .

- وأنت إذا نظرت إلى الاعتدال والشجاعة عند سائر لناس ، ألفيت بينهما ، فى حقيقة الأمر ، تناقضاً .

- وكيف ذلك يا سقراط ؟

فقال : إنك عليم بأن الناس بصفة عامة ينظرون إلى الموت شراً وبيلاً .

فقال : هذا صحيح .

- أوليس البواسل من الرجال يحملون الموت ، لأنهم يخشون ماهو أعظم من الموت شراً ؟

- هذا صحيح .

- إذن فكل الناس ما خلا الفلاسفة شجعان ، إلا أنها شجاعة من الخوف

والوجل . وإنه لعجيب ولاشك أن يكن الرجل شجاعاً لأنه مذعور جبان !

- صحيح جداً .

- أوليس هذا بعينه شأن المعتدلين ؟ إنهم معتدلون لأنهم مفرطون - قد يبدو ذلك متناقضاً ، ولكنه مع ذلك هو ما يحدث فى هذا الاعتدال الأحمق - فهنالك من اللذائذ ما يحرصون على تحصيلها ويخشون ضياعها ، فهم لذلك يتعففون عن نوع من الملذات لأن نوعاً آخر قد استولى عليهم ، وإذا عرف التفريط بأنه «الخضوع لسلطان اللذة» فإنهم لا يقهرون لذة ، إلا لأن لذة تقهرهم ، وذلك ما أعنيه بقولى إنهم معتدلون لأنهم مفرطون !

- يظهر أن ذلك حق !

- ومع ذلك فليس من استبدال خوف أو لذة أو ألم ، بخوف آخر أو لذة أو ألم ، وهى متساوية كلها ، أكبرها بأصغرها ، تساوى النقد بالنقد . أى عزيزى سمياس ، أليس فى النقد قطعة واحدة صحيحة هى التى ينبغى أن تستبدل بالأشياء جميعاً ؟ - وتلك هى الحكمة ، ولن يشرى شىء بحق أو يباع شجاعة كان أم عفة أم عدلاً ، إلا إن كان للحكمة ملازماً ، وإلا إن كانت هذه الحكمة له بديلاً . ثم أليست الفضيلة الحق بأسرها رفيقة الحكمة بغض النظر عما قد يكتنفها أو لا يكتنفها من المخاوف واللذائذ أو ما إليهما من الخيرات أو

الشرور ؟ إلا أن الفضيلة التى يكون قوامها هذه الخيرات التى تأخذ فى استبدال بعضها ببعض بعد أن تكون قد انفصلت عن الحكمة ، ليست من الفضيلة إلا ظلها ، ولا يكون فيها من الحرية أو العافية أو الحقيقة شىء ، أما التبادل الحق فيقتضى أن تمحى هذه الأشياء محواً ، وما طهورها إلا العدل والشجاعة والحكمة نفسها . وإنى لأتصور أن أولئك الذين أنشأوا الأسرار ، لم يكونوا مجرد عابثين ، بل قصدوا إلى شكل فرمزوا به إلى أن من يمضى إلى العالم الأدنى دنساً جاهلاً سيعيش فى حمأة من الوحل ، أما ذلك الذى يصل إلى العالم الآخر بعد التعليم والتطهير فسيقيم مع الآلهة. وكما يقولون فى الأسرار : «كثيرون هم من يحملون عصا السحر ، أما العالمون بالسحر فقليل»[1] وهم يريدون بهذه العبارة فيما أرى ، الفلاسفة الحق ،

(١) يريد سقراط بهذا القول كله أن الفيلسوف يفهم الخير والشر خلافاً لما يفهمه منهما أو سائر الناس ، فعامة الناس لا يقفون مواقف الشجاعة إلا حينما يتهددهم خطر أعظم مما هم فيه ، فإن أقدموا مثلاً على الموت فلأنهم يخشون العار أو الهزيمة أو ما إليها مما يعتبر شراً من الموت ، كذلك من يزعمون فى أنفسهم العفة ، لا يمتنعون عن لذة إلا لأنهم يطمعون فى أكبر منها . أما الفيلسوف الحق فيحتقر هذه الموازنة بين اللذة والألم ، ولا يعترف بفضيلة إلا إن كانت ملازمة للحكمة ؛ وكل الفضائل بما فيها الحكمة نفسها إن هى فى نظر الفيلسوف إلا طهور للنفس من أدرانها ، وذلك ما عناه مؤلفو الأسرار حينما قالوا : كثيرن هم من يحملون عصا السحر ولكن العالمين بالسحر قليل .

الذين أنفقتُ حياتى كلها أبحث بينهم لعلى أجد مكاناً ، ولست أشك فى أننى عندما أبلغ العالـم الآخر بعد حين قصير ، سـيأتينى إن شاء الله علم يقين ، عما إذا كنت قد التمـست فى البحث سبيلاً قويمة أم لا ، وإن كنت قد أصبت التوفيق أم لم أصبـه . أى سمياس وسيبيس ، لقد أجبت بهذا على أولئك الذين يؤاخـذوننى بعدم الحزن أو الجزع لفراقكم وفـراق سادتى فى هذا العـالم ، فقد أصـبت بعدم الخـوف لأننـى أعـتقـد إننـى سأجـد فى العـالم الأدنى أصدقـاء وسـادة آخرين ، يعدلونكم خيراً ، ولكن الناس جميعاً لا يسيغون هذا ، وإنه ليسرنى أن تصـادف كلماتى عندكم قبولاً أكثر مما صـادفت عند قضاة الأثينيين .

أجاب سيبيس : إنى موافـقك يا سقراط على معظم ما تقول ، ولكن الناس أميل إلى عدم التصديق فيما يتصل بالروح . إنهم يخشون ألا يكون لها مستقر إذا مـا فصلت عن الجسد ، وأنها قد تذوى وتزول فى يوم الموت ذاته - فـلا تكاد تتـحلل من الجسـد حـتى تنطلق كـالدخان أو الهـواء ثم تتلاشى فى العدم . فلو قد تستطيع أن تتـماسك أجزاؤها ، وأن تظل كما هى بعـد أن تكون قد خلصت من شـرور الجسـد ، لرجونا يا سـقراط ، محقين فيما نرجو ، أن ما تقوله حق ، ولكنا بحاجة إلى كثير من البراهين ووفـير من الحـجج ، لإثبات أنه إذا مـات الإنسـان فروحـه تظل مع ذلك موجودة ، وتكون على شىء من قوة الذكاء .

قال سقراط : هذا حق يا سيبيس ، فهل لى أن أقتـرح حديثاً قصيراً عما يحتمل لهذه الأشياء من وجوه ؟

قـال سيـبيس : لست أشك فـى أنى شديـد الرغبة فى معـرفة رأيك عنها .

فقال سقراط : لا أحسب أن لأحد ممن سمـعنى الآن ، حتى ولو كان أحد أعدائى القدماء من الشعـراء الهازلين ، أن يتهمنى بالخبط فى الحديث عن موضوعات لا شأن لى فيها . فأذنوا إن شئتم بأن نمضى فى البحث .

إن مشكلة أرواح الناس بعد الموت : أهى موجودة فى العالم الأدنى أم غير موجودة ؟ يمكن مناقشـتها على هذا النحو : يؤكد المذهب القديم الذى كنت أتحدث عنه ، إنها تذهب من هذا العـالم إلى العالم الآخر ، ثم تعود إلى هنا حيث تولد من الميت ، فإن صح هذا وكان الحى يخرج من الميت ، للزم أن تكون أرواحنا فى العـالم الآخر ، لأنهـا إن لم تكن، فكيف يمكن لها أن تولد ثانياً ؟ إن هذا القول حاسم ، ولو كـان ثمة شاهد حقيقى على أن الحى لا يولد إلا من الميت ؛ أمـا إذا لم ينهض على هذا دليل ، فـلابد من سوق أدلة أخرى .

فأجاب سيبيس : هذا جد صحيح .

إذن فدعنا نبـحث هذه المسألة ، لا بالنسـبة إلى الإنسـان وحده ، بل بالنسبة إلى الحـيوان عامة ، وإلى النبات ، وكل شىء يكون فـيه التوالد ،

وبذلك تسهل إقامة الدليل . أليست كل الأشياء التى لها أضداد تتولد من أضدادها ؟ أعنى الأشياء التى كالخيِّر والشرير ، والعادل والجائر - وهناك من الأضداد الأخرى التى تتولد من أضدادها ، عدد ليس إلى حصره من سبيل وإنما أريد أن أبرهن على أن صحة هذا القول شاملة لما فى الكون من أضداد ، أعنى مثلاً أن أى شىء يكبر ، لابد أنه قد كان أصغر قبل أن أصبح أكبر .

- صحيح .

- وأن أى شىء يصغر ، لابد أنه قد كان يوماً أكبر ثم صار أصغر .

- نعم .

- وأن الأضعف يتولد من الأقوى والأسرع من الأبطأ ؟

- جد صحيح .

- والأسوأ من الأحسن ، والأعدل من الأظلم ؟

- بالطبع !

- وهل هذا صحيح عن الأضداد كلها ؟ وهل نحن مقتنعون بأن جميع الأضداد ناشئة من أضداد ؟

- نعم .

- ثم أليس ثمة كذلك فى هذا التضاد الشامل بين الأشياء جميعاً ،

فعلان متـوسطان ، لا ينفكان يسيران من ضد إلى الضد الآخـر جيئة وذهاباً فحيث يوجد أكبر وأصغر ، يوجد كذلك فعل متوسط بينهما، يعمل للزيادة والنقصـان ، ويقال للشيء الذى ينمو إنه يزيد، وللشيء الذى يتناقص إنه يذوى .

فقال : نعم .

- وهناك غير ذلك عمليـات كثيرة أخرى ، كالتجـزئة والتكوين والتبريد والتسخين ، التى تتـضمن تساوياً بين ما يخـرج من شيء وما يضاف إلى شيء آخر . ألـيس ذلك صحيـحاً بالنسـبة إلى الأضـداد كلها - حتى ولو لم يعبر عنها باللفظ دائمـاً - فهى تتولد الواحد من الآخر، وثمة انتقال ، أو فعل ، بين بعضها وبعض .

فأجاب : هذا جد صحيح .

- جميل ، أفليس هناك ضد للحياة ، كما أن النوم ضد اليقظة ؟

- فقال : بل هذا حق .

- وماهو ذاك ؟

فأجاب : هو الموت .

- فإن كـان هذان ضدين ، فـهمـا متـولدان إذن أحدهمـا من الآخر ، وبينهما كذلك فعلان متوسطان ؟

- بالطبع .

فقال سقراط : سأعمـد الآن إلى أحد زوجى الأضداد اللذين ذكرتهما لك فأحلله ، وأحلل كذلك فعليـه المتوسطين وعليك أن تحلل لى الآخر ، فحـالة النوم تضاد حـالة اليقظة ، ومن النوم تتـولد اليقظة ، ومن الـيقظة يتولد النوم ، وعـملية التولد هى فى إحدى الحـالين إدراك النعاس ، وهى الاستيقاظ فى الأخرى . أفأنت متفق معى على هذا ؟

– إنى جد متفق !

إذن فهب أنك أخذت بهـذه الطريقة نفسهـا تحلل لى الحياة والموت . أليس الموت يضاد الحياة ؟

– بلى .

– وهما متولدان أحدهما من الآخر ؟

– نعم .

– ما الذى تولد من الحياة ؟

– إنه الموت .

– وما الذى تولد من الموت ؟

– لا يسعنى أن أقول فى الجواب إلا أنها الحياة .

– إذن يا سيبيس فالحى من الأشياء والأشخاص متولد من الميت ؟

فأجاب : هذا جلى .

- ونتيجة ذلك إذن هى أن أرواحنا كائنة فى العالم الأدنى ؟

- هذا حق .

- وأحد الفعلين أو التولدين ملحوظ بالعين - فلا شك أن عملية الموت ظاهرة ؟

فقال : لا ريب .

- أفلا يجوز أن يستنتج التولد الآخر ، على أنه متمم للطبيعة التى لا يفترض بأنها تسير على ساق واحدة فحسب ؟ فإن كان الأمر كذلك ، فلابد أيضاً أن يضاف إلى الطبيعة عملية تولد من الموت مقابل عملية التولد من الحياة .

فأجاب : يقيناً .

- وماذا تكون تلك العملية ؟

- هى عودة الحياة .

- وعودة الحياة ، إن صح وجودها ، هى ولادة الميت فى عالم الأحياء ؟

- هذا جد صحيح .

- إذن فهناك سبيلاً جديدة تؤدى بنا إلى النتيجة بأن الحى يخرج من الميت كما يخرج الميت من الحى سواء بسواء ، فإن صح هذا فلابد أن تكون

أرواح الموتى مستقرة فى مكان ما ، ستعود منه مرة أخرى، وقد أقمنا على ذلك فيما أظن دليلاً مقنعاً .

قال : نعم يا سقراط ، فيظهر أن هذا كله يتبع بالضرورة ما سلمنا به من قبل .

فقال : ولم يكن ذلك الذى سلمنا به ياسيبيس معوجاً ، وتستطيع أن تتبين ذلك ، فيما أظن على هذا النحو : لو كان التولد يسير فى خط مستقيم فقط ، فلم تكن فى الطبيعة دورة أو تعويض ، فلا تبادل بين الأشياء أخذاً ورداً ، لاتخذت الأشياء - كما تعلم - فى نهاية الأمر صورة بعينها ، ولتحولت إلى حالة بعينها ، ولما تولى منها بعد ذلك شىء .

فقال : ماذا تعنى بهذا ؟

فأجاب : أعنى شيئاً بسيطاً جداً سأوضحه بحالة النوم . فأنت تعلم أنه لو لم يكن ثمة توازن بين النوم واليقظة لأضحت قصة أنديميون[1] النائم بلا معنى ؛ فقد كان النعاس سيدرك كذلك كل شئ آخر ، فلا يعود أنديمون موضعاً لتفكير أحد ؛ أو لو كانت المادة ينتابها تكوين بغير انقسام ، إذن لعاد هيولى انكسجوراس مرة ثانية . وهكذا ، أى عزيزى سيبيس ، لو كان كل شىء تناولته الحياة صائراً إلى الموت ، ثم لا يعود إلى الحياة ثانياً

---

(١) أنديميون شاب جميل ، أغرقه القمر فى نعاس دائم ، لكى يستطيع أن يقبله على غرة منه .

لانتهى الأمر بكل شيء إلى الموت ، فلا يبقى ثمة شيء حى - وإلا فكيف يمكن ذلك أن يكون ؟ إذ لو كانت الأحياء صادرة من شيء غير الأموات ، وكان الأحياء يدركهم الموت، أليس حتماً أن يبتلع الموت آخر الأمر كل شيء؟

فقال سيبيس : ليس عن ذلك منصرف يا سقراط ، وإنى لأحسب أن ما تقوله أنت حق خالص .

فقال : نعم ياسيبيس ، إنى كذلك أحسبه حقاً خالصاً ، ولسنا بذلك سابحين فى خيال فارغ ، ولكنى ثابت الإيمان بحقيقة العودة إلى الحياة ، وبأن الأحياء يخرجون من الموتى ، وبأن أرواح الموتى ما برحت فى الوجود ، وبأن الأرواح الخيرة أوفى من الأرواح الشريرة جزاء .

فأضاف سيبيس : كذلك لو صح مذهبك العزيز يا سقراط ، بأن المعرفة ليست إلا تذكراً ، لاقتضى ذلك بالضرورة زمناً سلفاً تعلمنا فيه ما نحن الآن ذاكروه ، وقد كان هذا التذكر يستحيل لو لم تكن أرواحنا قبل حلولها فى الصورة البشرية ، كائنة فى مكان ما ، وإذن فهذه حجة أخرى تؤيد خلود الروح .

فاعترضه سمياس قائلاً : ولكن حدثنى ياسيبيس ، ما البراهين التى تساق لمذهب التذكر هذا ؟ فلست جازم اليقين بأنها الآن تحضرنى .

قال سيبيس : منها برهان ساطع تقيمه الأسئلة ، فإذا أنت ألقيت على شخص سؤالاً بطريقة صحيحة ، أجابك من تلقاء نفسه جواباً صحيحاً .

فكيف استطاع أن يفعل ذلك ، ما لم تكن لديه من قبل معرفة ومنطق مصيب ؟ وأكثر ما يكون ذلك وضوحاً حينما يعرض عليه شكل هندسى، أو أي شيء من هذا القبيل .

قال سقراط : إن كنت لا تزال شاكاً ياسمياس ساءلتك ، أفلا يجوز أن توافقنى إذا ما نظرت إلى الموضوع على نحو آخر ؟ أعنى إذا كنت لا تزال متردداً فى التسليم بأن المعرفة عبارة عن تذكر ؟

فقال سمياس : لست شاكاً ، ولكنى أردت أن تعاد إلى ذاكرتى نظرية التذكر هذه ، ولقد بدأت أذكرها وأقتنع بها مما قاله سيبيس ، غير أننى مازلت أتمنى لو أدليتم بما لديكم فوق ما أعلم .

فأجاب : هذا ما سوف أدلى به ، ولعلنا إن لم أكن مخطئاً متفقون على أن ما يتذكره الإنسان لابد أن يكون قد علمه فى زمن سالف .

- جد صحيح .

- فما طبيعة هذا التذكر ؟ إنما أريد بهذا السؤال أن أتساءل : ألا يحق لنا القول بأنه إذا لم يقتصر علم إنسان على ما قد رآه أو سمعه أو سلك إلى إدراكه أية سبيل أخرى ، بل عرف شيئاً آخر معرفة تباين تلك ، أفليس هو بذلك إنما يتذكر شيئاً يختلج فى عقله ؟ ألسنا على ذلك متفقين .

- ماذا تعنى ؟

- أعنى مـا قد أوضـحه بهـذا المثال الآتى : ليـست معـرفتك القـيثـارة كمعرفتك الإنسان سواء بسواء .

- هذا صحيح .

- ولكن ما شعور المحبين إذا ما رأوا قـيثارة أو لباساً أو أى شىء آخر مما كان المحبـوب يستخدمـه عادة ؟ أليسوا من رؤية القيـثارة يكونون فى عين العقل صورة للفتى صاحب القيثارة ؟ وهذا تذكر ، وكل من يرى سميـاس قد يتذكر بـنفس الطريقة سيبـيس ، وهناك من هذا الضرب أشياء لا يحدها الحصر .

فأجاب سمياس : نعم إنها موجودة حقاً ولا حصر لعددها .

فـقال : وهذا الشىء ومـا إليه هـو التذكـر ، وهو فى الأعم الأغلب عملية لكشف ما قد طواه النسيان بفعل الزمن والإهمال .

فقال : هذا صحيح .

- ثم ألا يجوز كذلك أن تتذكر إنسـاناً من رؤية قيثارة أو صورة لجواد ؟ أو قد تبعثك صورة سمياس على تذكر سيبيس ؟

- هذا حق .

- أو قد تنساق كذلك إلى تذكر سميـاس نفسه ؟

فقال : هذا حق .

- وقد يكون التذكر فى هذه الحالات جميعاً منبعثاً من أشباه الشىء أو مما يباينه ؟

- هذا صحيح .

- وهناك سؤال لابد أن ينشأ ، حينما يكون التذكر قد انبعث من شبيه الشىء ، وهو : هل يكون شبيه الشىء المتذكر ناقصاً فى أى ناحية من نواحيه ، أم لا يكون ؟[1]

فقال : هذا جد صحيح .

- وهل تتقدم خطوة أخرى ، فتؤكد بأن التساوى موجود فعلاً ، لا تساوى الخشب بالخشب أو الحجر بالحجر ، بل ماهو أسمى من ذلك وأرفع . أنؤكد بأن التساوى موجود فى عالم التجريد ؟

فأجاب سمياس : نعم ، أؤكد ذلك وأقسم على صحته بكل ما وسعت الحياة من يقين .

- وهل نحن نعلم هذه الذات المجردة ؟

فقال : لاشك فى ذلك .

- ومن أين جاءنا هذا العلم ؟ ألم نر متساويات من الأشياء المادية ،

---

(١) يعنى لو رأيت مثلاً صورة رجل ، فذكرتك بالرجل نفسه ، فهل تكون هذه الصورة وهى شبيهة الأصل ، منطبقة تماماً على أصلها ؟

كقطع الحجر والخشب ، فاستنتجنا منها مثالاً لمساواة تخالفها[1] ؟ أفأنت موافق على هذا ؟ أو فانظر مرة أخرى إلى الموضوع على هذا النحو : أليست قطع الحجر والخشب بعينها تبدو متساوية حيناً متفاوتة حيناً آخر ؟

- لا ريب فى هذا .
- ولكن هل تتفاوت المتساويات الحقيقية أبداً ؟ أم هل يكون مثال التساوى يوماً عدم مساواة ؟
- لاشك فى أن ذلك شىء لم يعرف بعد .
- إذن فهذه المتساويات (كما يسمونها) ليست تطابق مثال التساوى ؟
- لابد من القول يا سقراط بأنها تخالفه تماماً .
- ومع ذلك ، فأنت من هذه المتساويات ، قد تصورت مثال التساوى ووصلت إليه ، على الرغم من أنها مخالفة لذلك المثال ؟

فقال : هذا جد صحيح .

- وقد يكون مثال التساوى شبيهاً بها . وقد يكون مبايناً لها ؟

(١) معنى ذلك أن الإنسان قد شاهد فى الحياة أشياء متساوية ، فعرف منها أن هناك تساوياً مجرداً ، مع أن ذلك التساوى المجرد لا يشبه هذا المتساويات التى شاهدها تمام الشبه ، لأن هذه كثيراً ما تتفاوت ، أما ذلك - إن وجد - فلا يجوز عليه التفاوت مطلقاً .

- نعم .

- ولكن هذا لا يغير فى الأمر شيئاً ، فما دمت قد تصورت شيئاً من رؤية شئ آخر ، سواء أكانا شبيهين أم متباينين ، فقد حدثت بذلك من غير شك عملية تذكر ؟

- جد صحيح .

- ولكن ماذا عساك أن تقول فى قطع متساوية من الخشب والحجر ، أو فى غيرها من المتساويات الهادية ؟ وأى أثر هى تاركة فى نفسك ؟ أهى متساويات بكل ما فى التساوى المطلق من معنى ، أم أنها تقع فى القياس دونه بشىء يسير ؟

فقال : نعم ، بل دونه بمسافة بعيدة جداً .

- ثم ألا يلزم أن نسلم بأننى ، أو أى أحد آخر ، حين ينظر إلى شىء فيدرك أنه إنما ينشد أن يكون شيئاً آخر ، ولكنه مقصّر من دونه ، عاجز عن بلوغه - فلابد أن قد كانت لدى من يلاحظ هذا معرفة سابقة بذلك الشىء الذى كان هذا الأخير أحط منه ، كما يقول ، وإن كانا متشابهين ؟

- يقيناً .

- ثم أليست هذه حالنا فى موضوع المتساويات والتساوى المطلق ؟

- تماماً .

- إذن فلا ريب فى أننا كنا نعرف التساوى المطلق قبل أن نرى المتساويات المادية لأول مرة ، وفكرنا فى أن كل هذه المتساويات الظاهرة ، إنما تنشد ذلك التساوى المطلق ، ولكنها تقصّر من دونه ؟

- هذا صحيح .

- ونحن نعلم كذلك أن التساوى المطلق لم يعرف إلا بواسطة اللمس، أو البصر ، أو غيرهما من الحواس التى لا تمكن معرفته بغيرها[1] وإنى لأؤكد هذا عن كل إدراك كلى من هذا القبيل .

- نعم يا سقراط ، فكل واحد من هذه المدركات لا يختلف عن الآخر فى شىء مما يدور حوله الحديث .

- وإذن فمن الحواس تنبعث المعرفة ، بأن كل الأشياء المُحسّنة تنشد مثال التساوى ، ولكنها تقصر من دونه - أليس ذلك صحيحاً !

- بلى .

- إذن فقبل أن بدأنا فى النظر ، أو السمع ، أو الإدراك بأية صورة

---

(١) لأننا أدركنا بالحواس أشياء متساوية ، فاستنتجنا وجود التساوى المطلق ، فكأننا أدركنا هذا الأخير عن طريق الحواس ، مع أنه عقلى محض ، وقل مثل ذلك فى سائر المدركات الكلية . ، كالجمال والخير وما إليهما ، فقد جاءتنا عن طريق الحواس أشياء جميلة : وردة ، وامرأة وشروق وهكذا ، فعرفنا عن طريقها فكرة الجمال المطلق .

أخـرى لابد أن قد كـانت لدينا مـعـرفة بالتـسـاوى المطلق ، وإلا لما استطعنا أن ننسب إليه المتـساويات التى نشتقها مـن الحواس ؟ - فهذه كلها تسعى نحو ذلك التساوى المطلق فتقصر من دونه ؟

- تلك يا سقراط نتيجة مؤكدة للعبارات التى سلف ذكرها .

- ثم ألم نأخذ فى النـظر والسمع واكتـساب حواسنا الأخـرى بمجرد أن ولدنا ؟

- يقينا .

- إذن فلا بد أنا قد حصلنا معرفة المتساوى المثالى فى زمن سابق لهذا؟

- نعم .

- أى قبل أن تولد فيما أظن ؟

- صحيح .

- وإذا كنا قـد حـصَّلنا هذه المعـرفة قـبل أن نولد ، وكـانت لدينا عند الميـلاد ، إذن فقـد كنا قبل الميـلاد ، فى ساعة الميـلاد نفسهـا نعرف كـذلك ، فضـلاً عن المتسـاوى ، والأكبـر والأصغـر ، سـائر المُثُل جميـعاً ، فنحن لا نَقْصرُ الحديث على المتـساوى المطلق ولكنه يتناول الجمال ، والخير ، والعدل ، والقداسة ، وكل ما نطبعه بطابع الجوهر فى مجرى الحوار ، حينما نـلقى أسئلة ونجيب عن أسئلة ، أفنستطيع أن نؤكد ، أننا قد كسبنا معرفة هذه كلها قبل الميلاد ؟

- هذا صحيح .

- ولكن ، إذا نحن بعد كسب المعرفة ، لم ننس ما كنا قد كسبنا ، فلابد أنا قد ولدنا ومعنا المعرفة دائماً ، وسنظل أبداً على علم بها ، مادامت الحيـاة - لأن العلم هو كسب المعرفة وحـفظها ، لا نسيـانها - أليس النسيان ياسمياس هو فقدان المعرفة لا أكثر ولا أقلّ ؟

- جد صحيح يا سقراط .

- أما إذا افتقدنا عند الميـلاد تلك المعرفة التى حصّلناها قبل أن نولد ، ثم كشفنا فـيما بعد ، بواسطة الحواس ، ما قـد كنا نعلم من قبل ، أفلا يكون ذلك ، وهو ما نسميه تعلماً ، عـملية لكشف معرفتنا ، ثم ألا يجوز لنا بحق أن نسمى هذا تذكراً ؟

- جد صحيح .

لأنه من الواضح ، أننا إذ ندرك شيئاً بواسطة البصر ، أو السمع ، أو أية حاسة أخرى لا نصادف صـعوبة فى أن ينشأ لدينا من هذا الشيء تصور لشيء آخـر، يشبـهه أو يـباينه ، كنا قـد أنسـيناه، وكان قـد ارتبط بذلك الشيء، وعلى ذلك ، فكما سبق القـول ، يقع أحد الأمرين : إما أن هذه المعرفة كانت لدينا عند الميلاد ، وظللنا نعلـمها طول الحياة ؛ وإما أن يكون أولئك الذين يقال عنهم إنهم يحصّلون العلم ، بعـد ميلادهم ، لا يفعلون أكثر من أن يتذكروا ، فما العلم إلا تذكر وكفى .

- نعم يا سقراط ، هذا جد صحيح .

- فأى الأمرين تُؤثر ياسمياس ، أكانت المعرفة لدينا عند الميلاد ، أم أنا قد تذكرنا فيما بعد الأشياء التى كنا نعلمها قبل ميلادنا ؟
- لا أستطيع الحكم الآن .
- مهما يكن ، فأنت تستطيع أن تحكم فيما إذا كان ينبغى أو لا ينبغى لمن لديه المعرفة أن يكون قادراً على تعليل معرفته .
- لاشك ان ذلك حتم عليه .
- ولكن هل تظن أن كل إنسان قادر على تعليل هذه الموضـوعات نفسها التى نتحدث عنها الآن؟
- ليتهم يستطيعون يا سقراط! ولكم أخشى ألا يكون ثمة من يستطيع فى مثل هذه الساعة من الغد[1] أن يقدم تعليلاً جديراً بأن يؤخذ عنه .
- إذن فليس من رأيك يا سمياس أن كل الناس يعلمون هذه الأشياء ؟
- يقيناً إنهم لا يعلمون .
- إذن فهم آخذون فى تذكر ما قد كانوا يعلمونه من قبل ؟
- يقيناً .
- ولكن متـى كسبت أرواحنا هذه المـعرفة ؟ لم يكن ذلك بـعد أن وُلِدْنا بَشَراً ؟

(١) يقصد أن سقراط فى مثل هذه الساعة من لغد سيكون قد وافته منيته ، وليس سوى سقراط من يستطيع أن يعلل المعرفة .

- لا ، ولا ريب .
- وإذن فقبل ذلك ؟
- نعم .
- إذن يا سمياس ، لابد أن أرواحنا كانت موجودة قبل أن تُصَوَرَ في هيئة البشر[1] ، ولابد أن قد كان لديها ذكاء لما كانت بغير أبدان ؟
- حقاً يا سقراط ، ما لم تفرض أن هذه الآراء قد أوتيناها في ساعة الميلاد ، لأنه لم يبق إلا تلك اللحظة وحدها[2] .
- نعم يا صديقي ، ولكن متى افتقدناها ؟ فهي لا تكون لدينا عندما نولد - وقد سلمنا بهذا . هل افتقدناها في اللحظة التي فيها أخذناها ؟ أم في وقت آخر غير هذا ؟[3] .
- لا يا سقراط ، لقد أدركت أني إنما كنت أنطق هراء لا أعيه .

---

(١) ما دمنا قد كسبنا المعرفة قبل الميلاد ، فلابد أن أرواحنا كانت موجودة قبل اتصالها بأجسادنا ، وكان لديها من قوة الذكاء ما تستطيع به تحصيل هذه المعرفة .

(٢) إما أن نكون قد حصلنا المعرفة قبل الميلاد ، أو في ساعة الميلاد نفسها ، أو بعد الميلاد ، وقد أقيم فيما سبق الدليل على بطلان الفرض الثالث فلم يبق إلا افتراض أحد الوجهين الأولين .

(٣) يفند سقراط الفرض بأننا قد نكون أوتينا المعرفة عند ساعة الميلاد نفسها ، لأنه لو كان الأمر كذلك فمتى افتقدناها ؟ لقد سلمنا فيما سبق أن حواسنا تأخذ منذ ساعة الميلاد في تذكر ما قد نسيته ، فهل افتقدت الروح المعرفة في نفس اللحظة التي أوتيتها فيها ؟ فهذا قول لا يستقيم مع العقل ، ولذا لم يبق إلا فرض واحد ، هو أن الروح قد كسبت المعرفة قبل لميلاد ، وهو ما أراد أن يدلل عليه سقراط .

- إذن ، أفلا يجوز لنا يا سمياس أن نقول ما نردده دائماً ، وهو إذا كان ثمة جمال مطلق ، وخير مطلق ، وسائر الذوات التى اكتشفنا الآن أنها سبقتنا فى الوجود ، وكنا نقيس إليها كل أحاسيسنا ونقارنها بها- زاعمين أن قد كان لها وجود سابق ، فإن لم يكن ، ذهبت كل قوة فى قولنا . فليس من سبيل إلى الشك بأنه إذا كان لهذه المُثُل المطلقة وجود قبل أن نولد ، فلابد أن أرواحنا كانت كذلك موجودة قبل ميلادنا ، فإن لم تكن المُثُل موجودة لم تكن الأرواح موجودة كذلك .

- نعم يا سقراط ، إنى مقتنع بأن لوجود الروح قبل الميلاد هذه الضرورة نفسها ، وأنت إنما تتحدث من الروح عن كنهها : فقد انتهى بنا التدليل إلى نتيجة يسرنى أنها تتفق مع ما أرتئيه . فلست أرى شيئاً يبلغ فى بداهته مبلغ قولنا إن الجمال والخير وسائر المُثُل التى كنت تتحدث عنها الآن توا ، لها وجود غاية فى الحق والتجريد، وإنى لمقتنع بالدليل .

- حسناً ، ولكن هل اقتنع سيبيس اقتناعك هذا ؟ لأننى لابد أن أقنعه كذلك .

قال سمياس : أظن سيبيس مقتنعاً ؟ فإنى أحسبه قد آمن بوجود الروح قبل الميلاد ، على الرغم من أنه أبعد الكائنات عن التصديق . ولكن دليلاً لم يقم بعد على استمرار وجود الروح بعد الموت، بحيث يقنعنى أنا، فلا أستطيع أن أتخلص من شعور الدهماء الذى كان يشير إليه سيبيس -

ذلك الشعور بأنه إذا مات الإنسان ، فقد تتبعثر الروح ، وقد يكون ذلك نهايتها ، فلو سلمنا بأنها قد تتولد وتنشأ فى مكان غير هذا ، وقد تكون موجودة قبل حلولها فى الجسم البشرى ، فماذا يمنع أن تبلى وتفنى بعد أن حلت فيه ثم خرجت منه ثانياً ؟

فقال سيبيس : هذا جد صحيح يا سمياس ، أما أن أرواحنا كانت موجودة قبل أن نولد ، فهو الشطر الأول من الحديث ، ويظهر أن قد قام الدليل عليه ، وأما أن الروح ستبقى بعد الموت كما كانت قبل الميلاد ، فهو الشطر الآخر ، الذى لا يزال يعوزه الدليل ولابد له من التأييد .

قال سقراط : أى سمياس وسيبيس ! لو أنكما أضفتما التدليلين أحدهما إلى الآخر - أعنى هذا وما سبقه ، الذى سلمنا فيه بأن كل شىء حى قد ولد من الميت ، لرأيتما أنا قد فرغنا من إقامة هذا الدليل ، لأنه لو كانت الروح موجودة قبل الميلاد ، وأنها إذ تجئ إلى الحياة وإذ تولد ، لاتكون ولادتها إلا من الموت أو الاحتضار ، أفلا يجب عليه بعد الولادة أن تستمر فى وجودها مادام لابد لها أن تولد مرة أخرى ؟ لا ريب فى أنا قد فرغنا من إقامة البرهان الذى ترجوان ، ولكنى مع ذلك أحسبك أنت وسمياس ، لا ترغبان فى أن تختبرا هذا الدليل أكثر من ذلك ، فقد استولى عليكما ما يستولى على الأطفال من فزع ، خشية أن يذرو الهواء الروحَ حقيقة ، ويبعثرها عند فراقها الجسد ، بخاصة إذا كتب لإنسان أن يموت فى جو عاصف ، ولم يقدر له الموت حيث السماء ساكنة .

فأجـاب سيبيس باسـماً : إذن يا سقـراط ، فواجـبك أن تنفض عنا خوفنا بالـدليل - ومع ذلك فليست هى مـخاوفنا ، إن توخيـت الدقة فى القـول ، ولكن هنالك فى طويتنا ، طفل ينظر إلى الموت ، كـأنه ضـرب من الغـول ، فلابد أن نحـمله كذلك على ألاَّ يفـزع إذا ما انفـرد وإياه فى الظلام.

قال سقراط : ردِّد فى كل يوم صوت السـاحر ، إلى أن تطرد بالسحر ذلك الغول .

- وأين عسانا أن نجد ساحراً حاذقاً يقينا مخاوفنا بعد ذهابك ياسقراط!

فأجاب : إن هِلاَس[1] لمكان فسيح يا سيبيس ، وفـيه كثير من طيبى الرجال ، وهنـاك غير قليل مـن القبائل المتـبربرة ، فـابحث عنه فى طول البلاد وعـرضـها ، بين هؤلاء جميـعاً ، ولا تدخر فى البحث جـهداً ولا مالاً ، فليس من سبيل أفضل من اسـتخدامك المال ، ولا يفتك أن تبحث عنه كذلك بين أنفسكم ، فوجودها هنا أرجح منه فى أى مكان آخر .

فأجاب سيبيس : لن نتـردد فى القيام بهذا البحث ، ولنعد الآن ، إذا شئت ، فى الحوار إلى النقطة التى استطردنا منها .

فأجاب سقراط : طبعاً ، وماذا أريد غير هذا ؟

فقال : حسناً جداً .

---

(١) هلاس هى بلاد اليونان .

قال سقراط : أفلا ينبغى أن نسائل أنفسنا سؤالاً كهذا : ماهو الشىء الذى تظنه عرضة للبعثرة ، ونحن عليه حريصون ؟ ثم ماهو الشىء الذى لا تحرص عليه ؟ وبعدئذ نستطيع أن نمضى فى البحث عما إذا كان ذلك الذى تمتد إليه يد البعثرة ، من طبيعة الروح أم لا - فعلى ذلك ستقيم ما نكنّ لأرواحنا من آمال ومخاوف .

فقال : هذا صحيح .

- قد نفرض أن الشىء المركب ، أو الذى يتكون من أجزائه ، أنه بطبيعته يمكن أن يتحلل ، كما أمكن له أن يتركب ، أما ذلك الذى لم يتركب من أجزاء فيلزم أن يكون وحده غير قابل للتحلل ، إذا كان ثمة شىء كهذا .

فقال سيبيس : نعم هذا ما قد أتصوره .

- وقد يزعم أحد أن غير المركب . يظل كما هو ، ولا يخضع للتغير، بينما يكون المركب دائم التغير ، فلا يظل أبداً كما هو ؟

فقال : إنى أظن ذلك أيضاً .

- وإذن فلنعد الآن إلى حوارنا السابق - هل يتعرض ذلك المثال ، أو الجوهر ، الذى نعرفه فى سياق الكلام بأنه كنه[1] الوجود الحقيقى - سواء فى ذلك كنه المساواة ، أو الجمال ، أو أى شىء آخر - أقول

---

(1) Essence .

هل تتعرض هذه الجواهر ، على مر الزمن ، إلى شيء من التغير ؟ أم أن كـلاً منها يبقى هـو ماهو دائمـاً ، له نفس ما له من صور توجد بنفسها ، لا تتغير ، ولا تقبل التـحول بتاتاً ، كيفما كان ، أو فى أى وقت كان ؟

فأجاب سيبيس : إنها لابد أن تكـون دائماً كما هى يا سقراط - وماذا أنت قائل فى تعدد الجميل - سواء أكـان أناساً ، أم لباساً ، أم جياداً ، أو أى شيء آخر يمكن أن يـسمى متـساوياً أو جمـيلاً - أهى كلهـا لا تخضع للتغير ، وتبقى كما هى دائماً ، أم أنها نقيض ذلك تماماً ؟ أليس الأولى أن توصف بإنها متغيرة فى الأغلب ، وأنها لا تكاد تبقى أبداً كما هى ، سواء مع أنفسها ، أو بعضها مع بعض ؟

فأجـاب سيبيس : إنهـا الأخيرة . إنهـا دائماً فى حالة من التغـير - وأنت تستطيع أن تلمسها ، وأن تراها ، وأن تدركهـا بالحواس فأما الأشياء الثابتـة ، فلا يمكنك إدراكها إلا بالعـقل - إنها تخفى علـى الأبصـار فلا تُرى .

فقال : هذا جد صحيح .

فأضاف : حـسناً ، لنفرض إذن أن ثمة ضربين مـن الوجود : وجوداً مَرْئياً ووجوداً خفياً .

- لنفرضهما .

- والمرئى هو المتغير ، والخفى هو الثابت .

- يمكن فرض ذلك أيضاً .

- أليس الجسد ، فضلاً عن ذلك ، جزءاً منا ، وما يبقى هو الروح ؟

- ليس فى ذلك شك .

- ترى إلى أى نوع من هذين يكون الجسد والجلد أشبه ؟

- ظاهر أنهما أشبه بالمرئى : إن أحداً لا يشك فى ذلك .

- وهل الروح مرئية أم خفية ؟

- لم يرها إنسان يا سقراط .

- وهل نقصد «بالمرئى» و «الخفى» ما تراه عين الإنسان وما لا تراه ؟

- نعم ، بالنسبة إلى عين الإنسان .

- وماذا تقول عن الروح ؟ أهى مرئية أم خفية ؟

- إنها لا ترى .

- هى خفية إذن ؟

- نعم .

- وإذن فالروح أشبه بالخفى ، والجسد أشبه بالمرئى ؟

- إن ذلك مؤكد جداً يا سقراط .

- ألم نكن نزعم منذ عهد بعيد ، أن الروح حين تتخذ من الجسد أداة للإدراك ، أعنى حين تستخدم حاسة الإبصار ، وحاسة السمع ، أو غيرهما من الحواس (لأن معنى الإدراك خلال الجسد ، هو الإدراك بواسطة الحواس) - ألم نكن نزعم أن الجسد بذلك يجر الروح أيضاً إلى منطقة المتغير ، وأنها تضل وترتبك ؟ فإن الدنيا عندئذ تضرب حولها نسيجاً ، فتكون الروح عند خضوعها لتأثير الحواس كمن أثملته الخمر ؟

- جد صحيح .

- ولكنها إذا ما ثابت إلى نفسها ، فإنها تفكر ، وبعدئذ تدخل عالم البقاء ، والأبدية ، والخلود ، والثبات . فهؤلاء عشيرتها وهى تعيش معها أبداً ، إذا ما خلت إلى نفسها دون أن يعطلها معطل ، أو يحول دونها حائل ، وعندئذ لا تعود تسلك سبلها الخاطئة ؛ فإنها إذا خالطت ماهو ثابت ، كانت هى كذلك ثابتة ، وتسمى هذه الحالة التى تكون فيها الروح بالحكمة .

أجاب : هذا صحيح ، فحق ما قلت يا سقراط .

- وبأى نوع ترى الروح أشد شبهاً وقربى ؟ استنتاجاً من هذا التدليل ومن سابقه ؟

- إنى أظن يا سقراط أن كل من يتتبع هذا التدليل ، يعتقد أن الروح

ستكون قريبة الشبه بالثابت قرباً لا نهاية له - ولن ينكر هذا حتى أشد الناس غباء .

- والجسم أقرب شبهاً بالمتغيّر ؟

- نعم .

- انظر بعد ذلك إلى الأمر مرة أخرى مستضيئاً بهذا : حينما تتحد الروح مع الجسد ، تأمر الطبيعة الروح أن تحكم وأن تسيطر ، والجسد أن يطيع وأن يعمل ، فأى هذين العملين أدنى إلى الإلهى ؟ وأيهما أقرب إلى الفانى ؟ أليس يبدو لك الإلهى أنه ما يأمر وما يحكم بطبيعته ، وأن الفانى هو الخادم الخاضع ؟

- حقاً .

- وأيهما يشبه الروح ؟

- إن الروح تشبه الإلهى ، أما الجسد فيشبه الفانى - ليس إلى الشك فى ذلك سبيل يا سقراط .

- إذن فانظر يا سيبيس : أليست هذه هى خلاصة الأمر كله ؟ إن الروح على أشد ما يكون الشبه بالإلهى ، وبالخالد ، وبالمعقول ، وبذى الصورة الواحدة ، وبغير المتحلل ، وبغير المتحول ، وإن الجسد على أشد ما يكون الشبه بالإنسانى ، وبالفانى وبغير المعقول، وبذى الصور

المتعددة ، وبـالمتحلل ، وبالمتحول ؟ هل من سـبيل إلى إنكار ذلك ، أي عزيزى سيبيس ؟

- لا ولا ريب .

- ولكن إن صح هذا ، أفلا يكون الجسد عرضة للتـحلل السريع ؟ ألا تكون الروح غير قابلة للتحلل ، فى أغلب الحالات بل فيها جميعاً ؟

- يقيناً .

- وهل تلاحظ فـوق هذا ، أن الجسـد بعد مـوت الإنسان لا يتـحلل أو يتفكك دفعة واحدة ، بل قد يبـقى أمداً طويلاً إذا كان قوى البنية عند الموت ، ووقع الموت فى فصل ملائم من فصول السنة ، مع أن الجسد هو الجزء المرئى من الإنســان ، وله مادة تراها العين ، تسمى جـثة ، ستنتهى بطبيـعتها إلى التحلل ، فتتفـرق أجزاؤها وتتبدد ؟ لأن تقلص الجسـد وتحنيطه ، كمـا جرت بذلك العادة فى مـصر ، يعـملان فى أغلب الأحيان على حفظه أبداً لا يبيد ، وحتى إذا أصابه الفساد، فإن بعض أجزائه تظل باقيـة ، كالعظام وبعض الأعصاب التى تسـتعصى على التحلل بطبيعتها . هل تسلّم بهذا ؟

- نعم .

- وهل يجوز لـنا أن نفرض أن الروح الخفـية ، عند انتـقالهـا إلى عالم الأموات الحقيقى ، هو مثلها فى خفائها ، ونقائها ، ونبلها ، وأنها إذ

تكون فى طريقـها إلى الإله الخـيـر الحكيم ، الذى توشك روحى أن تنتقل إليه ، إن شاء الله . بـعد حين - أقول : هل يصح الفرض أن الروح ، إن كانت هذه طبيعته ، وذاك أصلها ، تتبدد وتفنى عند فراق الجسـد ، كما تقـول جمهـرة الناس ؟ يستـحيل أن يكون ذلك ، أى عزيزى سمياس وسيـبيس ، وأوْلى أن تكون الحقيقة أن الروح ، وهى نقية ، لا تجر فى ذيلهـا عند انتقالها أية صبغـة جسدية ، مادامت لم تتصل قط بالجـسد اخـتياراً ، بل إنهـا لتتجنـبه دائماً ، ومـادامت قد انحصرت فى نفسها (فقد كان مـثل هذا التجريد موضوع دراستها فى الحـياة) . ومـاذا يعـنى هذا إلا أن الروح قد كـانت تابعـة مخلصـة للفلسـفة ، وأنها قـد مرنت على كـيفيـة الموت بغير عنـاء ؟ أفليست الفلسفة مراناً على الموت ؟

- يقيناً .

- أقـول إن تلك الروح فـى خـفائـها تنتـقل إلى العالم الخـفى - إلى الإلهـى ، والخالد ، والعـاقلى ؛ فإذا ما بلغتـه ، رفلت فى نعيم ، وتخلصـت مـن أوزار الناس ، وحـمـقـهم ، ومن مـخـاوفـهم وعـواطفهم الحوشية ، ومن النقائص البشرية جميعاً ، ورافقت الآلهة إلى الأبـد، كمـا يروى عن العالمين بالسر . أليس ذلك صحـيحاً يا سيبيس ؟

فقال سيبيس : نعم ، وليس إلى الشك فيه من سبيل .

- ولكن الروح التى قد أصابها الدنس ، والتى تكون كدرة عند انتقالها، والتى ترافق الجسد دائماً ، وتكون خادمته ، والتى تغرم وتهيم بالجسد ورغبات الجسد ولذائذه ، حتى ينتهى بها الأمر إلى العقيدة بأن الحقيقة لا تكون إلا فى صورة جسدية يمكن الإنسان أن يلمسها ، وأن يراها ، وأن يذوقها ، وأن يستخدمها لأغراض شهواته - أعنى الروح التى اعتادت أن تنفر من المبدأ العقلى ، وأن تخافه وتتحاشاه ، ذلك المبدأ الذى هو للعين الجسمانية معتم تستحيل رؤيته ، والذى لا يدرك إلا بالفلسفة وحدها - أفتحسب أن روحاً كهذه سترحل نقية طاهرة ؟

فأجاب : يستحيل أن يكون هذا .

- إنها قد استغرقت فى الجسدىّ ، وقد أصبح ذلك طبيعياً بالنسبة لها، لاتصالها المستمر بالجسد ، وعنايتها الدائمة به .

- جد صحيح .

- ويحق لنا يا صديقى أن نتصور أن هذه هى تلك المادة الأرضية الثقيلة الكثيفة ، التى يدركها البصر ، والتى بفعلها تغشى الكآبة مثل هذه الروح ، فتنجذب هبوطاً إلى العالم المرئى مرة أخرى ، لأنها تخاف مما هو خفىّ ، وتخاف من العالم الأدنى - فتظل محومة حول المقابر

واللحود ، إذ تُرى بجوارها - كما يحدثوننا أشباح طيفية بعينها ، لأرواح لم تكن قد رحلت نقية ، ولكنها ارتحلت مليئة بالمادة المنظورة فأمكن رؤيتها[1] .

- يغلب جداً أن يكون ذلك يا سقراط .

- نعم يا سيبيس ، فأغلب الظن أن يكون ذلك ، ولابد أن تكون هاتيك أرواح الفجار لا أرواح الأبرار ، هؤلاء الفجار الذين كتبت عليهم أن يضلوا في مثل تلك المواضع جزاءً وفاقاً بما اقترفوا في الحياة من إثم ، فلا ينقطع تجوابهم ، حتى تشبع الرغبة التى تملؤهم ، ثم يسجنون فى بدن آخر ، وقد يُظن أن تلازمهم نفس الطبائع التى كانت لهم فى حياتهم الأولى .

- أى الطبائع تريد يا سقراط ؟

- أريد أن أقول إن من اندفعوا وراء الشره والفجور والسكر ، ولم تدر فى خلدهم فكرة اجتنابها ، سينقلبون حميراً وما إليها من صنوف الحيوان . فماذا ترى أنت ؟

- أرى أن ذلك جد محتمل .

(١) يقصد بذلك أن الأشباح التى يراها الناس عند المقابر ، إن هى إلا أرواح من ذلك الضرب الذى انغمس أثناء الحياة فى المادة انغماساً ، ففارقت الأجساد دنسة ملوثة بالمادة ، فشق عليها أن تعيش فى ذلك العالم الطاهر النقى ، عالم الأرواح الخفية ، فهبطت إلى الأرض مرة أخرى ، وأمكن للعين رؤيتها .

- وهؤلاء الذين اختاروا جانب الظلم ، والاستبداد والعنف ، سينقلبون ذئاباً أو صقوراً أو حدأً ، وإلا فإلى أين تحسبهم ذاهبين ؟

فقال سيبيس : نعم ، إن ذلك ، ولا ريب ، هو مستقر تلك الطبائع التى تشبه طبائعهم .

فقال : وليس من العسير أن نهيئ لهم جميعاً أمكنة تلائم طبائعهم وميولهم المتعددة .

فقال : ليس فى ذلك عسر .

- وحتى بين هؤلاء ترى فريقاً أسعد من فريق ، فأولئك الذين اصطنعوا الفضائل المدنية والاجتماعية التى تسمى بالاعتدال والعدل ، والتى تحصل بالعادة والانتباه ، دون الفلسفة والعقل ، أولئك هم أسعد نفساً ومقاماً . ولم كان أولئك هم الأسعد ؟

لأنه قد يُرجى لهم أن يتحولوا إلى طبيعة اجتماعية رقيقة تشبه طبيعتهم ، مثل طبيعة النحل أو النمل ، بل يعودون مرة ثانية إلى صورة البشر ، وقد يخرج منهم أناس ذوو عدل واعتدال .

- ليس ذلك محالاً .

- أما الفيلسوف ، أو محب التعلم ، الذى يبلغ حد النقاء عند ارتحاله ، فهو وحده الذى يؤذن له أن يصل إلى الآلهة ، وهذا هو السبب ، أى سمياس وسيبيس ، فى امتناع رسل الفلسفة الفلسفة الحق عن شهوات

الجسد جميعاً ، فهم يصبرون ويأبون أن يخضعوا أنفسهم لها - لا لأنهم يخشون إملاقاً ، أو يخافون لأسرهم دماراً كمحبى المال ، ومحبى الدنيا بصفة عامة ، ولا لأنهم يخشون العار والشيئين اللذين تجلبهما أعمال الشر كمحبى القوة والشرف .

قال سيبيس : لا ياسقراط ، إن ذلك لا يلائمهم .

فأجاب : حقاً إنه لا يلائمهم ، وعلى ذلك فأولئك الذين يعنون بأرواحهم ، ولا يقصرون حياتهم على أساليب الجسم ، ينبذون كل هذا، فهم لن يسلكوا ما يسلك العُمى من سبل ، وعندما تعمل الفلسفة على تطهيرهم وفكاكهم من الشر ، يشعرون أنه لا ينبغى لهم أن يقاوموا فعلها ، بل يميلوا نحوها ، ويتبعوها إلى حيث تسوقهم .

- ماذا تعنى يا سقراط ؟

قال : سأحدثك . إن محبى المعرفة ليدركون عندما تستقبلهم الفلسفة أن أرواحهم إنما شُدت إلى أجسادهم وألصقت بها .

ولا تستطيع الروح أن ترى الوجود إلا خلال قضبان سجنها ، فلا تنظر إليه وهى فى طبيعتها الخاصة ، إنها تتمرغ فى حمأة الجهالة كلها ، فإذا ما رأت الفلسفة ما قد ضُرب حول الروح من قيد مخيف ، وأن الأسيرة تنساق مدفوعة بالرغبة إلى المساهمة فى أسر نفسها (لأن محبى المعرفة يعلمون أن هذه كانت الحالة البدائية للروح ، وأنها حين كانت فى

تلك الحال ، تسلمتها المعرفة ونصحتها فى رفق ، وأرادت أن تحررها ، مشيرة لها بأن العين مليئة بالخداع ، وكذلك الأذن وسائر الحواس ، لتحملها على التخلص منها تخلصاً تاماً ، إلا حين تدعو الضرورة إلى استخدامها وأن تتجمع وتتفرغ إلى نفسها ، وألا تثق إلا بنفسها وما توحى به إلى بصيرتها عن الوجود المطلق ، وأن تشك فى ما يأتيها عن طريق سواها ، ويكون خاضعاً للتغير) ، فالفلسفة تُبين لها أن هذا مرئى ملموس، أما ذلك الذى تراه بطبيعتها الخاصة فعقلى وخفى ، وروح الفيلسوف الحق تظن أنه لا ينبغى لها أن تقاوم هذا الخلاص ، ولذا فهى تمتنع عن اللذائذ والرغبات ، والآلام والمخاوف ، جهد استطاعتها ، مرتئية أن الإنسان حينما يحوز قدراً عظيماً من المسرات أو الأحزان أو المخاوف أو الرغبات ، فهو لا يعانى منها هذا الشر الذى تقدره الظنون - كأن يفقد مثلاً صحته أو متاعه ، مضحياً بها فى سبيل شهواته - ولكن يعانى شراً أعظم من ذلك ، هو أعظم الشرور جميعاً وأسوأها ، هو شر لا يدور فى خلده أبداً .

قال سيبيس : وماهو ذلك يا سقراط ؟

- هو هذا : حينما تحس الروح شعوراً شديد العنف ، بالسرور أو بالألم، ظنناً جميعاً بالطبع أن ما يتعلق به هذا الشعور العنيف يكون عندئذ أوضح وأصدق ما يكون ، ولكن الأمر ليس كذلك .

- جد صحيح .

وتلك هى الحال التى يكون فيها الجسد أشد مايكون استعباداً للروح.

– وكيف ذلك ؟

– لأن كل سرور وكل ألم يكون كالمسمار الذى يَسمِّر الروحَ فى الجسد، ويربطها به ، ويستغرقها ، ويحملها على الإيمان بأن منا يؤكد عنه الجسد أنه حق فهو حق ، ومن اتفاقها مع الجسد ، وسرورها بمسراته ذاتها، تراها مجبرة على أن تتخذ عادات الجسد وطرائقه نفسها ؛ ولا يُنتظر ألبتة أن تكون الروح نقية عند رحيلها إلى العالم الأدنى ، فهى مشبعة بالجسد فى كل آن ، حتى أنها سرعان ما تنصب فى جسد آخر، حيث تنبت وتنمو ، ولذا فهى لا تسهم بقسط فى الإلهى ، والنقى ، والبسيط .

فأجاب سيبيس : ذلك جد صحيح يا سقراط ؟

– وهذا يا سيبيس هو ما دفع محبى المعرفة الحق أن يكونوا ذوى اعتدال وشجاعة ، فهم لم يكونوا كذلك ، لما تقدمه الحياة الدنيا من أسباب.

– لا ، ولا ريب .

– لا ، ولا ريب ! فليست تفكر روح الفيلسوف على هذا النحو ، إنها لن تطلب إلى الفلسفة أن تحررها ، لكى تستطيع ، إذا ما تحررت ، أن تلقى بنفسها مرة أخرى ، فى معترك اللذائذ والآلام ، فتكون بذلك كأنها تعمل ما تعمل ، لا لشئ إلا لكى تعود فتنقضه ، وكأنها

تنسج خيوطها - كما فعلت بنلوب[1] - بدل أن تعمد إلى حلها ، ولكنها ستتخذ من نفسها عاطفة راكدة ستتأثر خطْو العقل ، فتلازمه لتشاهد الحقيقى والإلهى (وهو ليس موضوعاً للرأى) ومن ثم تستمد غذاءها، وهى تحاول بذلك أن تحيا ما دامت فى الحياة ، وتأمُلُ أن تلتمس ذوى قرباها بعد الموت ، وأن تتحرر من النقائص البشرية ، فلا تخشيا أى سمياس وسيبيس ، أن تتبدد روحٌ كان ذلك غذاءها ، وكانت تلك آمالها المنشودة ، عند انفصالها عن الجسد فتذروها الرياح، وتصبح عدما ليس له وجود .

وما إن انتهى سقراط من هذا الحديث حتى ساد الصمت فترة طويلة ، فبدا هو نفسه ، كما بدا معظمنا ، كأنما نفكر فيما قيل ، إلا أن سيبيس وسمياس تهامساً بكلمات قليلة ، فلما لاحظ ذلك سقراط ، استنبأهما عما ارتأيا فيما أقيم من دليل ، وهل لم يزل يعوزه التدعيم ، وقال : إن كثيراً منه لا يزال عرضة للشك والطعن ، إذا ما صحت من أحد عزيمته أن يقلب النظر فى جوانب الموضوع كلها ، وإن كنتما تتحدثان عن شئ آخر ، فخير ألا أعترضكما ، أما إن كنتما لا تزالان تشكان فى الدليل ، فلا تترددا أن تصرحا بكل ما تريانه ، ولنأخذ بما قد تقترحانه ، إن كان خيراً مما قلنا ، واسمحا لى أن أعينكما إن كان يُرجى لكما منى نفع .

---

(١) بنلوب هى زوجة أو ليس ، التى كانت تنقض فى الليل ما قد نسجته فى النهار، لتكسب وقتاً من خطابها .

قال سمياس : لابد أن أعترف يا سقراط بأن الشكوك قد ثارت فى عقولنا ، وكان كل منا يحفز الآخر ويدفعه ليلقى السؤال الذى أراد أن يستفسر عنه والذى لم يرد أحد منا أن يلقيه ، خشاة أن يكون إلحاحنا مضنياً لك فى حالتك الراهنة .

فابتسم سقراط وقال : ألا ما أعجب ذلك ياسمياس ! أحسبنى فى أرجح الظن مستطيعاً إقناع سائر الناس بأننى لا أجد رزءاً فى موقفى هذا ، ما دمت عاجزاً عن إقناعكم أنتم ، وما دمتم على ظنكم أننى الآن أكثر مشغلة منى فى أى وقت آخر . ألا تريان عندى من روح النبُوة ما عند طيور التم[1] ؟ التى إذا أدركت أن الموت آت لا ريب فيه ازدادت تغريداً عنها فى أى وقت آخر ، مع أنها قد انفقت فى التغريد حياتها بأكملها ، وذلك اغتباطاً منها بفكرة أنها وشيكة الانتقال إلى الله ، الذى هى كهنته، ولما كان الناس يشفقون هم أنفسهم من الموت ، تراهم يؤكدون افتراء أن طيور التم ، إنما تنشد مرثية فى ختام حياتها ، ناسين أن ليس من الطيور ما يغرد من برد أو جوع أو ألم ، حتى البلبل والسنونو ، بل حتى الهدهد ، الذى يقال عنه بحق إنه يغرد تغريدة الأسى ، وإن كنت لا أؤمن أن ذلك يصْدُقْ عليه أكثر مما يصدق على طيور التِّم ، فهى إنما أوتيت موهبة التنبؤ لقداستها عند أبولو ، فاستطلعت ما فى العالم الآخر من طيبات ، فطفقت تغنى لذلك وتمرح فى ذاك اليوم أكثر مما فعلت فى أى يومَ سابق . كذلك أنا ، فإنى أعتقد فى نفسى بأننى خادم قد اصطفاه الله نفسه ، وإنى رفيق

---

(١) ما يسمى عادة بالأوز العراقى Swans

لطيور التـم فيمـا تعمل ، فأنا أظـن أن قد أتانى سيـدى من التنبؤ مـوهبة ليست دون مواهبـها مرتبة ، فلن أغادر الحيـاة أقل مرحاً من التم[1] . فلا تحفلا بعد بهذا ، وتكلما فيما تشاءان ، وسلا عما تشاءان ، فى هذه الفترة التى يسمح فيها حكام أثينا الأحد عشر بالكلام .

قـال سمـياس : حـسناً يا سقـراط ، إذن فسـأفضى إليك بمسـألتى وسينبئك سيبيس بمشكلته ، فإنى لأقول مجترئاً إنك تحس يا سقراط ، كما أحس أنا ، كمـا هو عسير أو يكاد يسـتحيل أن تبلغ فى مـثل هذه المسائل يقيناً ، ما دمت فى هذه الحيـاة الحاضرة ، ومع هذا فإنى لأتهم بالجبن كل من لا يدلل عليها ما وسعه الدليل ، أو كل من خار به قلبه أن يَخبُرها من كل جوانبها[2] . فينبغى للمرء أن يثابر حتى ينتهى إلى أحد أمرين : إما أن يستكشف حقيقتها أو يعلمها فإن استحال ذلك فإنى أحب له أن يأخذ بأقوم الآراء البشرية وأبـعدها عن التفنيد ، وليكن ذلك طَوْقَـه الذى يسبح به فى الحياة – وإنى مسلم بأنه لم يفعل ذلك دون أن يتعرض للخطر ، إذا هو لم

---

(١) هذه الطيور تزداد تغريداً إذا مـا اقتربت من الموت ، فيزعم سقـراط انها تفعل ذلك ابتهاجاً بالموت ، لما قد وهبهـا الله من مقدرة النظر إلى ما وراء الحجب واستطلاع النعيم الذى ستظفر به فى الحياة الأخرى ، ثم يزعم أنه أوتى ما أوتيته هذه الطيور من موهبة ، فهم لذلك لا يبتئس للموت .

(٢) يعنى سمياس أنه ولو أن البحث فى مـصير الروح بعد الموت أمر لا يمكن الوصول فيـه إلى نتيجة حـاسمة مـا دمنا فى هذه الحياة ، إلا أن من الضـعف والخور ترك الموضوع بغير مـحاولة التدليل والتعليل ، فينبغى للإنسـان أن يبذل فى ذلك وسعه ولو لم ينته إلى رأى قاطع .

يستطع أن يجد من الله كلمة تسير على هدى وطمأنينة .

والآن فسأجسر ، كما تريدنى ، على أن أسألك ، لأنى لا أحب أن آخر على نفسى فيما بعد أننى لم أدل برأيى فى حينه الملائم ، فإنى إذا ما قلبت النظر فى الموضوع يا سقراط ، سواء أكنت وحدى أم كنت مع سيبيس ، بدا لى أن التدليل لم يكن حاسماً .

أجاب سقراط : إننى لأعترف يا صديقى أنك قد تكون مصيباً ، ولكنى أحب أن أعلم فى أى ناحية لم يكن التدليل حاسماً .

فأجاب سمياس : فى هذه الناحية : ألا يجوز أن يستخدم أحدٌ هذا الدليل بذاته فى القيثارة والانسجام - ألا يحق له القول أن الانسجام شئ خفى ، غير جثمانى ، لطيف إلهى ، موجود فى القيثارة المنسجمة ، ولكن القيثارة والأوتار مادة ، وهى مادية متألفة من أجزاء أرضية وتربطها القربى بالفناء[1] ؟ وأنه إذا تحطمت القيثارة أو تقطعت أوتارها وتمزقت ،

(١) من الأدلة التى أقامها سقراط على خلود الروح أنها تشبه فى صفاتها العنصر الإلهى أما الجسد فمادة أرضية ، وإذن فلا عجب أن ينتهى أمره إلى الفناء ، فيعترض سمياس بقوله لو صح هذا الدليل لكان الانسجام الموجود بين أجزاء القيثارة خالداً أيضاً لأنه فى صفاته كذلك يشبه الإلهى ، وأما جسم القيثارة فمثله مثل الجسد الإنسانى ، مركب من مادة أرضية ولذا فهو صائر إلى الفناء ، فإن كان من المشاهد أن مادة القيثارة تبقى أمداً طويلاً حتى بعد تحطيم أجزائها ، فليس من المعقول - بناء على دليل سقراط - أن يكون قد فنى الانسجام الذى كان بين تلك الأجزاء عندما كانت متصلة فى القيثارة .

فإن من يأخذ بهذا الرأى يدلل كمـا تدلل أنت ، وبالتشابه نفسه ، على أن الانسجـام يبقـى حياً ولا يفنى لأنك لا تستطيع أن تتصور ، كمـا يجوز القول ، أن تبقى القيثارة بغيـر أوتارها ، بل وتبقى الأوتار الممزقة نفسها ، على حين أن الانسجـام الذى يمت بأسبـاب القربى إلى الطبـيعة السـماوية الخالدة يفنى - بل ويفنى قبل الذى هو فان . ستقول إن الانسجام لاشك موجود فى مكان ما ، وإن الفناء سيـصيب الخشب والأوتار قبل أن يصيب ذلك الانسجام ، وإنـى لأشك يا سقراط أنك ستأخـذ ، أنت أيضاً ، فى الروح بهذا الرأى الذى نميل جـميعاً إلى الأخذ به ، وسـتذهب كذلك إلى أن الجسد إنما أقـيم وارتبطت أجزاؤه بفـعل عناصـر الحر والبـرد والرطوبة والجفاف ومـا إليها ، وأن الروح هى ما بين هاتيك العناصـر من انسجام ، أو هى مزاجها المتزن المتناسب ، فإن صح هذا نتج بداهة أن أوتار الجسد إذا ارتخت أو أجهدت بغير مبـرر بسبب الفوضى أو أى فساد آخر فنيت لذلك الروح جمـلة واحدة[1] ، برغم مـا بها مـن ألوهية غـالبـة ، مثل سـائر الإنسجامـات التى تكون فى الموسيقى أو آيات الفن ، ولو أن بقـايا الجسد

(١) يقول إن الشبه تام بـين الإنسان والقيثارة ؛ فجسـده يشبه مادتها الخشـبية ، وروحه تماثل الانسجـام الذى بين أجزائها ، فإن كـان الأمر كذلك جرى على الإنسـان ما يجرى على القيثـارة ، فالقيثارة إذا فسدت أوتارها مثلاً تـلاشى انسجامها وزال ، كذلك الإنسان - على هذا الأساس - إن فسـد جسده بالمرض أو الإعياء ، أو أى شئ آخر فنيت الروح مع بقاء الجـسد ، على الرغم من ألوهيتها وأرضـيته ، وهو هنا يستوضح سقراط رأيه فى هذا الإشكال .

المادية ربما لبثت طويلاً حتى يدركها الفناء أو الاحتراق . والآن ، إن زعم زاعم بأن الروح تفنى أولاً فيما يسمى بالموت ، باعتبار أنها ما بين عناصر الجسد من انسجام ، فيما نجيبه ؟

فأجال فينا سقراط النظر، كما هى عادته، وقال باسماً: إن دليل العقل ناهض فى جانب سمياس ، وإن فى مهاجمته إياى لقوة فلماذا لا يتصدى منكم لإجابته من هو أقدر منى ؟ ولكن قد يحس بنا قبل أن نجيبه، أن نصغى كذلك لما يريد سيبيس أن يناهض به الدليل - وسيكون لنا من ذلك للروية متسع ، فإذا ما فرغ كلاهما من الحديث ، وبدا قولهما مستقيماً مع الحقيقة سلمنا لهما ، وإلا ، فلنا أن نؤيد الجانب الآخر ، وأن نناقشهما .
قال : تفضل إذن فحدثنى ياسيبيس ، أى مشكلة صادفتك فأتعبتك ؟

قال سيبيس : سأحدثك - إنى لأشعر بأن التدليل لم يتزحزح عن موضعه ، فأنا مستعد أن أسلم بأن قد قام الدليل القاطع الوافى جداً ، إن جاز لى هذ القول ، على وجود الروح قبل حلولها فى الصورة الجسدية . ولكنى أرى أن بقاء الروح بعد الموت لا يزال يعوزه الدليل ، ولست أعترض فى ذلك بما اعترض به سمياس ، لأننى لا أريد أن أنكر أن الروح أقوى من الجسد وأطول بقاء ، فعقيدتى أن الروح تسمو على الجسد فى كل هذه النواحى سمواً بعيداً . وقد يخاطبنى الدليل فيقول : حسناً إذن ، فلماذا تقيم على ارتيابك ؟ إذا رأيت أن الأضعف يظل باقياً بعد موت الإنسان ، أفلا تسلم بأنه يتحتم أيضاً أن يبقى ماهو أطول بقاء خلال هذه الفترة نفسها ؟ ويجمل بى الآن أن أستخدم المجاز كما فعل سمياس ،

وسأطلب إليك أن تنظر فى استعارتى لترى هل جاءت ملائمة لموضوعها . أما المثل الذى سأسوقه فهو مثل نساج قديم ، يموت فيزعم بعض الناس بعد موته أنه لم يمت وأنه لابد أن يكون حياً ، ويستشهد على ذلك بالعطاف[1] الذى نسجه بنفسه وارتداه ، والذى لا يزال جيداً متيناً ، ثم يمضى فيسأل للمرتاب من القوم : هل الإنسان أطول بقاء أم العطاف الذى يُستخدم ويرتدى ؟ فإذا ما أجيب بأن الإنسان أطول جداً فى البقاء ، ظن أنه قد أثبت بذلك يقيناً بقاء الإنسان الذى هو أطول بقاءً مادام الأقصر بقاء لا يزال باقياً . ولكننى أرجو أن تلاحظ يا سمياس أن ليست تلك هى الحقيقة ، وليس يخاف على الناس أن من يتحدث بهذا إنما ينطق هراء ، فحقيقة الأمر أن هذا النساج قد ارتدى ونسج كثيراً من هذه العُطُف ، ولئن كان قد أفنى كثيراً منها وعمَّر بعدها ، إلا أن آخرها قد ظل بعد فنائه باقياً ، ولكن لا ريب فى أن هذا أبعد جداً من أن يقوم دليلاً على أن الإنسان أقل من العطاف شأناً وأشد ضعفاً ، غير أنك تستطيع أن تعبر عن علاقة الجسد بالروح باستعارة كهذه ، فلك أن تقول بحق إن الروح باقية ، وإن الجسد بالقياس إليها ضعيف قصير الأجل ، فقد يقال عن كل روح أنها تُبْلى أجساداً كثيرة وبخاصة إذا امتد بها أجل الحياة ، لأنه إذا كان الجسد يتحلل ويفنى فى حياة الإنسان فالروح لا تنى تنسج لنفسها لباساً جديداً وتصلح ما قد أصابه البلى ، فطبيعى إذن أن تكون الروح مرتدية آخر أثوابها حينما يدركها الفناء ، وذاك الثوب وحده هو الذى سيبقى بعد فنائها ، ولكن الجسد بدوره ، إذا ماتت الروح سيكشف آخر الأمر عن

---

(١) Ceat .

ضعف طبيعته، فلا يلبث أن يدركه الفناء ، ولهذا لن أركن إلى هذا الدليل برهاناً على بقـاء الروح بعد الموت ، لأنه إذا سلمنا فـرضاً حتى بـأبعد مما تؤكد أنت أنه فى حدود الممكـن ، فارتضينا - فضلاً على أعـترافنا بوجود الروح قبل الميلاد - أن أرواح طائفة من الناس لاتزال موجودة بعد الموت ، وأنه ستظل موجودة ، وأنها ستولد وتموت كرة بعد أخرى ، وأن فى الروح قوة طبيعـية ستقاوم بها حتى تولد مـرات عدة - فقد نميل مع هذا كله إلى الظن بأنها ستعانى من آلام الولادات المتعاقـبة رهقاً قد ينتهى بها آخر الآمر إلى السقوط فى إحـدى مرات موتها ، فتفنى فناءاً تامـاً ، وربما خفيت عنا جميعـاً هذه المرة التى يموت فيها الجسـد ويتحلل ، والتى قد تؤدى بالروح إلى الفناء ، ولا يمكن أن تتوفر لأى واحـد منا خبرة عن ذلك[1] فإن صح هذا ، زعمتُ أن من يثـق فى الموت فإنما يثق وثوقاً غـاشمـاً ، ما لم يكن

(١) يقول إننا حتـى لو سلمنا بما يزعمه سقـراط من أن الروح تظل باقية بعد انفـصالها عن الجسـد ، ثم تعـود إلى الحيـاة مرة ثانيـة وثالثـة ورابعة ، فـلا يبعـد أن تهن وتضـعف من هذه الولادات المتكررة فيـصيـبهـا الموت الأبدى فى مرة مـن مرات انفصـالها عن الجسد، دون أن نعلم نحن عن موعـد هذ الموت الأبدى ، لأننا لا نعلم هل هذه الروح المعينة فى هذا الجسد المعين قد بلغ منهـا الإعياء مبلغاً سيؤدى بها إلى الفناء التام عند فناء جسدها الذى تحل فيـه أم أنها لا تزال بها بقية من قوة تستطيع أن تعيش بهـا حتى تعود إلى الحياة فى جـسد آخر ، ونحن لا نعلم ذلك لأنه لم تسبق لنا تجربة نتعلم منهـا هذا الأمر . وبناء على ذلك لا يستطيع سقراط مثلاً أن يجزم بأن روحه باقية بعـد موته لأنها قد تكون فى هذا الدور الأخير وهو لا يعلم .

قادراً على التـدليل بأن الروح لا تخضع للموت أو الفناء إطلاقـاً ؛ أما إن كان عاجزاً عن إثبات ذلك ، فمـعقول ممن يقترب من الموت أن يخشى فناء الروح فناء تاماً عند انحلال الجسد .

فلما سمـعنا منهم هذا لقول ، أحسـسنا جميعاً بالكـآبة ، كما لاحظ بعضنا إلى بعض فيمـا بعد ، وأحسب أنه قد داخلنا الاضطراب والشك ، لا فيـما سلف مـن دليل فـحسب ، بل فى كل ما قـد يجئ به الدهر من دليل ، لأننا ، وقد كنا مـن قبل نؤمن إيماناً راسخـاً ، قد رأينا ذاك الإيمان تتزعزع دعائمه ؛ فإما أننا لم نكن قـضاة صالحين ، وإما أن العقيدة لم تقم على أساس صحيح .

- أشكراتس : إنى لأشـاطرك إحساسـك هذا - حقاً إنى لأشـاطرك إياه يافيـدون ، وقد هممتُ ، وأنت تتحـدث ، أن ألقى نفس السؤال . أى دليل يمكن أن أومن به بعد اليوم ، فـماذا عسى أن يكون أقوى فى الإقناع من تدليل سقـراط ، وهاهو ذا قد هبط إلى الجحود ؟ فـياطالما فتننى فتنة عـجيبة هذا المذهب القـائل بأن الروح هى الانسجام ، ولم يكد يرد ذكره حتى عاودنى بغتـة ، لأنه عقيدتى الأولى . وجدير بى الآن أن أعود فـألتمس دليلاً آخـر ، يؤكد لى بأن الروح لا تموت مع الإنسان عند موته . فأرجو أن تنبئنى كيف مضى سقراط فى الحديث؟ هل بدا كـأنما يشاطركم إحـساسـكم الكئيب الذى ذكـرت ؟ أم أنـه استـقبل الاعتـراض هادئاً ، فأجاب عنه جـواباً وافيـاً ؟ أنبئنا بما وقع دقيقاً ما استطعت .

– فيدون : أى اشكراتس ، إنى ما فتئت معجباً بسقراط ، ولكنى لم أعجب به قط أكثر مما فعلت وقتئذ ، أما أنه استطاع الجواب فيسير ، ولكن ما أدهشنى ألاً هو ما تناول به كلمات الشبان من وداعة وغبطة واستحسان ، ثم سرعة إحساسه بما أحدثه الحوار من جرح وما واتته به لباقته من فنون العلاج . مثله فى ذلك مثل القائد الذى يستجمع جيشه وقد انهزم واندحر ويحفز جنده أن يتابعوه فيعودوا إلى ميدان الحوار .

– اشكراتس : وكيف كان ذلك ؟

– فيدون : ستعلم منى ، فقد كنت قريباً منه ، جالساً إلى يمينه على مقعد وطئ ، أما هو فقد استوى على سرير يرتفع كثيراً عن مقعدى، وقد أخذ يداعب شعرى ، ثم مسح رأسى بيديه ، وصفف شعرى على عنقى وقال: أى فيدون ! غداً ستُجَزُّ هذه الجدائل الجميلة فيما أظن .

أجبت : نعم يا سقراط ، إنى أظن ذلك .

– إنها لن تجزَّ لو أخذت بنصحى .

قلت : وماذا عساى أن أفعل بها ؟

أجاب: إننى وإياك سنقطع اليوم جدائل شعرنا ، فلا نرجئها إلى غد ، لو كان هذا الحوار ليموت ، واستحال علينا أن نرده إلى الحياة مرة أخرى . وإنى لو كنتك ، ولم أستطع أن أثبت ضد سمياس وسيبيس ، لأقسمت

ألا أرسل شعرى قط ، كما يفعل الأرجيفيون ، حتى أثير المعركة من جديد وأدحرهما .

قلت : نعم ولكن لم يُرْوَ عن هرقليس نفسه أنه نازل اثنين .

فقال : ادعُنى إذن ، وسأكون لك أيولاوس حتى تغرب الشمس .

قلت : سأدعوك ، لا كما يدعو هرقليس أيولاوس ، ولكن كما كان يدعو أيولاوس هرقليس .

قال : لا فرق بين هذا وذاك ، ولكن لنأخذ الحذر أولاً لكى نتقى خطراً .

قلت : وما ذاك ؟

أجاب : خطر أن تتمكن منا كراهة المنطق ، فذلك من أسوأ ما قد يصيبنا من أحداث ، فكما أن ثمة أعداء للإنسانية وهم من يمقتون البشر ، كذلك هناك من يكرهون المنطق وهم من يمقتون المُثُل ، وكلاهما ناشئ من سبب بعينه ، هو الجهل بالعالم ، فتجئ كراهة البشر من الغلو فى الركون إلى عدم الخبرة ، فأنت تثق برجل ، وتظنه مخلصاً تمام الإخلاص. وخيراً وأميناً ، ثم لا يلبث أن يتكشف لك زائفاً خبيثاً ، وهكذا غيره وغيره . فإذا وقع ذلك لإنسان مرات عدة ، وبخاصة من جماعة أصدقائه الذين يظنهم أشد الناس إخلاصاً له ، وكثر النزاع بينه وبينهم ، فإنه ينتهى آخر الأمر إلى كراهة الناس جميعاً ، ويعتقد أن ليس بين الناس على الإطلاق صاحب خير . أحسبك بغير شك قد لاحظت هذا

قلت : نعم .

- أليس ذلك مدعاة للخزى ؟ وسببه أن الإنسان فى اضطراره إلى معاملة سائر الناس ، لا يكون لديه بهم علم ، لأنه لو عرفهم لعرف الأمر على حقيقته ، وذلك أن ذوى الخير قليلون وأن ذوى الشر قليلون ، وأن الكثرة الغالبة هى فيما يقع بين هذين .

قلت : ماذا تعنى ؟

أجاب : أعنى أنه كما قد نقول عن بالغ الكبر وبالغ الصغر بأنه ليس أندر من رجل بالغ الكبر ، أو رجل بالغ الصغر ، فهذا ينطبق بصفة عامة على النهايات ، سواء أكان ذلك عن الكبير والصغير ، أم السريع والبطىء ، أم الكدر والصافى ، أم الأسود والأبيض ؛ وسواء ضربت أمثلة ناساً أو كلاباً أو أى شئ آخر ، فقليلون هم النهايات ، أما الكثرة فتتوسط بين النهايات ، أو لم تلحظ هذا قط ؟

قلت : نعم لاحظته .

قال : ثم ألست ترى أنه لو كان بين الشرور تنافس ، لوجد أن قليلاً جداً منها هو أسبقها فى الشر .

قلت : نعم ، فذاك أرجح الظن .

أجاب : نعم ذاك أرجح الظن ، ولست أعنى أن مثل الأحاديث فى هذا مثل الناس - وأراك هاهنا قد حملتنى أن أقول أكثر مما اعتزمت أن

أقول ، ولكن وجه المقارنة هو أنه إذا ما آمن رجل ساذج ، لا يحذق علوم الكلام بصحة دليل ، وخيل إليه فيما بعد أنه باطل ، سواء أكان باطلاً حقاً أم لم يكن، ثم تكرر هذا فى غيره وغيره، فلا تبقى للرجل عقيدة واحدة، وينتهى الأمر كما تعلـم بكبار المجادلين إلى الظن بأنهم قد باتوا أحكم بنى الإنسان ، لأنهم هم وحدهم الذين أدركوا ما فى التدليلات كلها من تزعزع وضعف شامل، لا بل أدركوا ذلك فى الأشياء جميعاً ، وهى تظل صاعدة هابطة فى مد وجزر لا ينقطعان ، كما هى الحال فى تيار يوريبوس .

قلت : هذا جد صحيح .

أجاب : نعم يا فيدون ، ولشد ما يبعث على الأسى أيضاً أن يصادف إنسان تدليـلاً هنا أو هناك ، فيبدو لـه أول الأمر أنه حق ، ثم يتكشف له عن باطل، فبدلاً من أن ينحو باللائمة على نفسه وعلى ما يعوزه من ذكاء، تراه لحنقه آخر الأمر يغـتبط شديد الغبطة فى إزاحة اللوم عن عـاتقه ليلقيه على التـدليل بصفـة عامـة ، ويظل بعد ذلك إلى الأبد كـارهاً لاعناً لكل تدليل ، فتفلت منه حقيقة الوجود وعرفانه ، لو كان ثمة ما يسمى بالحقيقة أو اليقين أو القدرة على المعرفة إطلاقاً .

قلت : نعم ، إن ذلك ليبعث على الحزن الشديد .

قـال : فلنحـاول إذن بـادئ ذى بدء ، أن نسلم فى نفـوسنـا بالفكرة القـائلة إنه لا حقـيقـة ولا عافـية ولا قـوة فى أى تدليل على الإطلاق ،

ولنعلن قبل ذلك أن ليس فينا نحن الآن عافية وأنه يجب أن نطلق فينا العنصر الإنسانى ، ونسعى جهدنا فى اكتساب العافية ·- فتكسبها أنت وسائر الناس جميعاً من أجل حياتكم المقبلة كلها ، وأما أنا فمن أجل الموت ، فلست أحس الساعة أنى مُتَخَلِّق بخلق الفيلسوف ، وما أنا فى الرأى إلا مشايع كأفراد السوقة ، وليس يعبأ المتشيع ، حينما يلج فى المخاصمة ، بأوجه الصواب من الموضوع ، بل يحرص على إقناع سامعيه بأقواله وكفى ، وليس بينه وبينى فى اللحظة الرهنة من فرق إلا هذا - بين هو يحاول إقناع سامعيه بصحة ما يزعم ، ترانى أحاول إقناع نفسى قبل كل شىء ، فإقناع سامعى أمر ثانوى بالنسبة إلى ولتنظرن كم عسى أن أفيد بهذا ، فلو كان ما أقوله صحيحاً فما أجمل أن أكون مقتنعاً بالحقيقة؛ وأما إن كان لاشىء بعد الموت ، فسأوفر على أصدقائى هذا العويل فيما بقى من حياتى من أجل قصير ، هذا وسترتفع عنى جهالتى، ولهذا فلن يقع منى ضرر . أى سمياس وسيبيس ، تلك هى الحالة العقلية التى أتناول بها الحوار ؛ وإنى أطلب إليكم أن تفكرا فى الحقيقة لا فى سقراط ؛ فإن رأيتما أنى أتكلم حقاً فوافقانى ، وإلا فقاومانى بكل ما وسعكما من جهد ، حتى لا أخدعكما جميعاً كما أخدع نفسى ، وحتى لا أكون لكما كالنحلة، فأدع فيكما حُمتى قبل موتى .

قال : والآن دعنا نمضى ، ولأتأكد منك قبل كل شىء أن مافى ذهنى يطابق ما كنت تقوله ، فإن كنت مصيباً فيما أتذكر ، فقد كان لدى سمياس مخاوف وشكوك أن تكون الروح أسبق إلى الفناء ، مادامت عبارة عن

انسجـام ، على الرغم من أنها أشد من الجسد ألوهية وصفـاء . وقد بدا سيبيس من جهة أخرى أنه يسلم بأن الروح أطول من الجسد بقاء، ولكنه قال : إن أحـداً لا يستطيع أن يعلم إن كان يمكن للروح بعـد أن تكون قد أبلت أجساداً عـدة ، أن تفنى هى نفسها ، مخلِّفة وراءها آخـر أجسادها ، وأن هذا هو الموت الذى يـجلب الدمـار للروح لا للجـسـد ، لأن فـعل التخريب لا يفتأ عاملاً فى الجسد أبداً . أليست هذه يا سمياس وسيبيس ، هى النقط التى تستوجب منا النظر ؟

فوافق كلاهما على أن ذلك تقرير لرأييهما .

فمضى سقراط : وهل تنكران مـا فى الحوار السابق كله من قوة ، أم تنكر أن ما فى بعضه فقط ؟

فأجابا : بل ما فى بعضه فقط .

قـال : وماذا ارتأيتـما فى ذلك الجـزء من الحوار الذى ذكـرنا فيـه أن المعرفـة عبارة عن تـذكر فحـسـب ، واستنتجنا مـنه أن الروح لاشك كانت موجودة فيما سبق ، فى مكان آخر ، قبل أن تنحصر فى الجسد ؟

فقال سـيبيس إنه قد تأثر بذلـك الجزء من الحوار تأثراً عجـيباً ، وإنه لبث فيـه راسخ اليقين ، ووافقه سـمياس ، وأضاف أنه عن نفـسه لم يكد خياله يجيز أن يجىء يوم يرى فيه حول ذلك رأياً مخالفاً لهذا .

فاستأنف سقـرط : ولكن يجدر بك ، أى صديقى الطيبى ، أن ترى

رأياً مخالفاً ، لأنك إن أصـررت على أن الانسجام مركَّبٌ وعلى أن الروح انسجـام ، نشأ من أوتار رُكِّبت فى إطار الجـسد ، فلا ريب أنك لن تجـيز لنفسك القول بأن الانسجام سابق للعناصر التى يتألف منها الانسجام[1] .

- كلا يا سقراط فذلك مستحيل .

- ولكن ألست ترى أنك إنما تقرر هذا فعلاً حـينما تقول إن الروح كانت موجودة قبل أن تأخذ صورة الإنسـان وجسده، وأنها تألفت من عناصر لم يكن لها وجود بعد ؟ فليس الانسجام شيئاً يشبه الروح كما تظن ، وإنما القيـثارة والأوتار والأصـوات توجد أولاً فى حالة مـن التنافر ، فيجئ الانسجام بعد هذه جميعاً، ثم هو يسبقها جميعاً فى الفناء. فكيف يمكن أن نلائم بين هذا الرأى فى الروح، وبين الرأى الآخر[2] ؟

(١) قال سمـياس لسقراط : إنه مقـتنع بمذهب التذكر الذى يتضـمن وجود الروح قبل حلولها فى الجسد، فيجيبه سقراط : إن هذا المذهب لا يتفق مع عقيدته بأن الروح عبارة عن انسجام بين أعضاء الجسد، لأنه يسـتحيل أن يوجد انسجام الأعضاء قبل وجود الأعضاء نفسها ، وبالتالى يستحيل وجود الروح قبل وجود الجسد .

(٢) يقول سقراط لسـمياس : إن الأشياء التى يكون بينها انسـجام توجد أولاً فى حالة تنافر ثم يجيئها الانسـجام فيشقها ، يعنى أن المادة تأتى أولاً والانسجام ثانياً ، فإن كانت الروح انسجامـاً لا أكثر كما زعم من قبل تحتم أن يكون الجـسد قد وجدت أجزاؤه قبل وجـود الروح . وهذا القول يتنافى مع ما يسلم به سميـاس نفسه الآن من أن الروح كانت موجودة قـبل الجسد بدليل تذكر الإنسان أشيـاء لم تصادفه فى تجارب حياته .

أجاب سمياس : لا يمكن قطعاً .

قال : ومع ذلك فينبغى بلا ريب أن يكون ثم انسجام ، مادام الانسجام هو موضوع الحديث .

أجاب سمياس : ينبغى أن يكون .

قال : ولكن ليس ثمة انسجام بين هاتين القضيتين . إن المعرفة عبارة عن تذكر ، وإن الروح انسجام ، فأيهما إذن تستبقى لنفسك ؟

أجاب : إنى لأحسبنى يا سقراط أشد يقيناً بأولاهما التى أقيم لى عليها الدليل الوافى ؛ منى بالثانية التى لم ينهض عليها دليل قط ، فليست ترتكز إلا على أسس من الظن والاستحسان ، وأنا عليم علم اليقين أن هذه الأدلة التى تعتمد على الظنون مضللة ، هى خداعة ما لم يؤخذ عند استخدامها حذر شديد - هى خداعة فى علم الهندسة وفى سائر الأشياء أيضاً . أما نظرية المعرفة والتذكر فقد أقيم برهانها على أسس من اليقين ، والبرهان هو أن الروح لابد كانت موجودة قبل أن تحل فى الجسد ، لأن الجوهر[1] متعلق بها ، ومجرد اسم الجوهر يقتضى الوجود ، ومادمت قد ارتضيت هذه النتيجة بحق وعلى أسس وافية ، كما أعتقد ، فينبغى ، فيما أظن ، ألا أستطرد فى الجدل ، وألا أسمح لسواى أن يزعم بأن الروح هى عبارة عن انسجام .

---

(1) Essence .

قال : دعنى يا سمياس أبسط الموضوع من وجهة نظر أخرى : هل يمكن فيما تتصور أن يكون الانسجام أو أى مُركب آخر ، فى حالة تختلف عن حالة العناصر التى تألف منها ؟

- لا ولا ريب .

- أم هل هو يفعل أو يعانى شيئاً غير الذى تفعله هى أو تعانيه ؟

فوافق سمياس .

- إذن فليس يسوق الانسجام الأجزاء أو العناصر التى يتكون منها هو ، ولكنه يتبعها فقط .

فوافق سمياس .

- لأنه يستحيل على الانسجام أن يكون على شيء من الحركة أو الصوت أو أية صفة أخرى تكون مضادة للأجزاء .

فأجاب : يستحيل أن يكون ذلك .

- أوليس كل انسجام يتوقف على الحالة التى تنسجم فيها العناصر ؟
قال: لست أفهم ما تقول .

- أريد أن أقول إن الانسجام يقبل التدرج ، فهو أكثر انسجاماً ، وهو أقرب إلى الانسجام التام ، حينما تدنو الأجزاء فى تناسقها إلى التمام ، إن أمكن لها ذلك . وهو أقل انسجاماً ، وأبعد عن

الانسجام التام ، حينما تكون الأجزاء أقل تناسقاً .

- حقاً .

ولكن هل تقبل الروح التفاوت ؟ أعنى هل تكون روح ولو إلى أقل حد ممكن ، أكثر أو أقل روحانية من غيرها ، أو أبعد عن تمام الروحانية ، أو أدنى إليه من روح أخرى ؟

- لا يكون ذلك قطعاً .

- ومع ذلك فقد يقال بحق إن روحاً تتصف بالذكاء والفضيلة وإنها خيِّرة ؛ وأن روحاً أخرى تتصف بالغباوة والرذيلة وإنها شريرة : وحق هذا الذى يقال ؟

- نعم هو حق .

- ولكن ماذا يقول أولئك الذين يصرون على أن الروح انسجام ، فيما رأيت من وجود الفضيلة والرذيلة فى الروح ؟ - أيقولون إن ثمة انسجاماً آخر وتنافراً آخر ، وإن الروح الفاضلة تكون منسجمة ، ومادامت هى نفسها انسجاماً ، ففى باطنها انسجام خر ، وإن الروح الرَّذِلة ليست منسجمة ولا يكون فى باطنها انسجام ؟

أجاب سمياس : إنى لا أحير جواباً ، ولكنى أحسب أن سيزعم أولئك الذين يأخذون بهذا الرأى شيئاً كهذا .

- ونحن قد اتفقنا فيما سبق أن ليست روح أكثر روحانية من غيرها ، وهذا الاتفاق يساوى الموافقة على أن الانسجام لا يزيد فى درجة انسجامه ولا ينقص ، أى لا يكون أكمل ولا أنقص انسجاماً .

- جد صحيح .

- وما لا يزيد فى درجة انسجامه ولا ينقص لا يكون أكثر ولا أقل تناسقاً !

- صحيح .

- وما لا يكون أكثر ولا أقل تناسقاً لا يكون فيه من الانسجام أكثر ولا أقل ، ولكنه دائماً مقدار متساوٍ من الانسجام ؟

- نعم الانسجام متساوٍ .

- فإذا لم تزد روح ولم تنقص فى روحانيتها المجردة عن غيرها ، فهى ليست أكثر ولا أقل انسجاماً منها ؟

- تماماً .

- وعلى ذلك فليس فيها من الأنسجام أو التنافر مقدار أكثر أو أقل ؟

- ليس فيها ذلك .

- ولما كان ما فيها من الانسجام أو التنافر ليس أقل ولا أكثر فلا يكون لروح من الرذيلة أو الفضيلة أكثر مما يكون لغيرها ، على فرض أن الرذيلة تنافر ، وأن الفضيلة انسجام ؟

- إنها لا تكون أكثر من غيرها أبداً .

- وإن توخينـا يا سـمياس فـى حديثنا دقة أكـثر ، فلن يكون لروح أية رذيلة ، إن كانت الروح انسجاماً ، لأنه مـادام الانسجام مطلقاً فهـو لا يساهم فى غير المنسجم ؟

- لا !

- وعلى ذلك فلا تقع رذيلة من روح هى روح مطلقة ؟

- كيف يمكن ، وفاقاً لما سبق من حديث ، أن تقع منها الرذيلة ؟

- وبناء على هذا إذن تكون أرواح الحـيوانات جميـعاً سواء فى الخـير ، مادامت كلها متساية ومطلقة فى روحانيتها ؟

فقال : إنى موافقك يا سقراط .

فقال : وهل يمكن فى ظنك أن يصـدق كل هذا ؟ أنسلم بهذه النتائج كلها - وهى مع ذلك ناتجة فيما يظهر من الزعم بأن الروح انسجام ؟

فقال : كلا ولا ريب .

قال : وأيضاً ، أى عنصـر بين الأشياء البشرية تراه مـسيطراً ، سوى الـروح ، والـروح الحـكيمـة بنوع خـاص ؟ أتـرى بينهـا مـثل ذلـك العنصر ؟

- حقاً إنى لا أرى .

- وهل الروح على اتفاق مع رغبات الجسد ، أم هى وإياها فى خلاف؟ فمثلاً عندما يكون الجسد ظمآن ساخناً ، أفلا تصدف الروح بنا عن الشرب ؟ وعندما يحس الجسد جوعاً ، أفلا تصدفنا عن الأكل ! وذلك واحد فقط من عشرة آلاف من أمثلة التضاد بين الروح وبين أشياء الجسد .

- جد صحيح .

- ولكن سبق منا اعتراف بأن الروح مادامت انسجاماً ، فلا يمكنها أن تنطق بإشارة لا تتفق مع الأوتار التى تألفت هى منها ، من حيث حالات التوتر والاسترخاء والتموج وسائر المؤثرات إنها تتبعها فقط، ولا تستطيع أن تقودها ؟

فقال : نعم ، إنا اعترفنا بذلك يقينا .

- ومع ذلك فلسنا نرى الآن أن الروح تفعل الضد تماماً - فهى تقود العناصر التى يظن أنها تتألف منها ، وهى فى معظم الأحوال تعارضها وتقهرها طيلة الحياة بكل ما أمكنها من سبل .

وقد تكون معها أحياناً أشد عنفاً بأن ترغمها على آلام الأدوية والألعاب ثم قد تعود فتكون وإياها أرق وداعة وهى فى ذلك تتهدد بل وتزجر الشهوات والعواطف والمخاوف . كأنما هى بذلك تتحدث إلى شىء غير نفسها ، كم يصور لنا هوميروس أوذيسيوس فى الأوديسة بهذه

الكلمات :

لقد ضرب على صدره لكى يؤنب قلبه :

«يا قلبُ صبراً ، فيا طالما احتملت أسوأ من ذلك شراً» .

أفتظن هوميروس ، قد تأثر حين سطر هذا بالفكرة ، القائلة إن الروح انسجام ، وإن رغبات الجسد قمينة أن تسوقها ، وإنه لم يكن يرى أنها هى التى بطبيعتها تسيطر على تلك الرغبات وتقودها ، وإنها أمعن فى الألوهية من أى انسجام ؟

- نعم يا سقراط ، إنى موافق جداً على ذلك .

- إذن فلن نصيب يا صاح فى قولنا إن الروح انسجام ، لأن فى ذلك تناقضاً ظاهراً مع هوميروس الإلهى كما أنه متناقض وإيانا .

فقال : حقاً .

قال سقراط : كفى يا سيبيس حديثاً عن هارمونيا[1] إلهتكم الطيبية ، فما أحسها قد أغلظت معنا الصنيع ، ولكن ماذا أقول لكادموس الطيبى ، وكيف أسترضيه ؟

قال سيبيس أظنك واجداً سبيلاً إلى استرضائه ، فلست أرتاب فى

---

(١) Hármonia إلاهة فى طيبة، ويظهر أن لفظة harmony الأفرنجية ومعناها الأنسجام قد اشتقت منها .

أنك رددت حديث الانسجام بطريقة لم أكن أتوقعها قط . فقد أيقنت حينما تقدم سمياس باعترافه . أن ليس إلى إجابته من سبيل ، فادهشنى لذلك أن أرى قوله يخور فلا يثبت أمام هجمتك الأولى ، وليس بعيداً أن يلاقى الآخر الذى كادموس ، مصيراً كهذا المصير .

فقال سقراط : لا يا صديقى العزيز ، فما ينبغى أن نُزْهَى خشاة أن تنطلق من عين خبيثة هذه الكلمة التى أوشك أن أنطق بها ، فلنا أن ندع الأمر بين أيدى من هم فى علـيين ، حتى أدنو ، على طريقة هومر ، فأختبر ما يتوقد فى عبارتك من حماسة ، وخلاصة اعتراضك باختصار هى ما يأتى أنك تريد أن يقام لك الدليل على أن الروح باقية خالدة ، وتظن أن الفيلسوف الذى يطمئن إلى الموت إنما يركن إلى طمأنينة فارغة حمقاء ، إذا هو ظن أنه سيكون فى العالم الأدنى أوفر جزاء ممن سلك فى حياته سبيلاً أخرى ، ما لم يستطع أن يدلل على ذلك ، وأنت تزعم أن إثبات ما للروح من قوة وألوهية ، وإثبات وجودها السابق لوجودنا فى هيئة البشر ، لا يقتضى بالضرورة خلودها . فإذا سلمنا بأن الروح قد عمرت طويلاً ، وأنها فى حالتها الأولى علمت وعملت شيئاً كثيراً ، فليس هذا الاعتبار دليلاً على خلودها ، وقد يكون حلولها فى الصورة البشرية ضرباً من الموت الذى هو ابتداء الانحلال ، وقد تنتهى آخر الأمر إلى ما يسمى بالموت ، بعد أن تفرغ من عناء الحياة . وسواء أكانت الروح تحل فى الجسد مرة واحدة فقط أم مرات عدة ، فذلك ، كما قد تقول ، لا يخفف من مخاوف الأفراد شيئاً ، فليس يخلو إنسان من الشعور الطبيعى ، فإن

لم يكن لديه عن خلود الروح علم وبرهان حق له أن يخاف . ذلك ما أحسبك قائله يا سيبيس ، وهو ما أعيده عامداً ، حتى لا يفلت منا شيء منه ، ولكى تستطيع إن شئت أن تضيف إليه أو تحذف منه شيئاً .

فقال سيبيس : ولكنى ، فيما أرى الآن ، لا أجد ما أضيفه أو ما أحذفه . إنك عبرت عما أريد .

فسكت سقراط هنيهة ، وبدا عليه كأنما غاص فى تأمله ، وأخيراً قال : إن هذا المبحث الذى أثرته يا سيبيس لذو خطر عظيم ، فهو يتضمن موضوع الكون والفساد برمته ، وذلك ما أود ، إن شئتم ، أن أقدم لكم فيه خبرتى . فخذوها إن رأيتم فيما أقول شيئاً يعين على حل إشكالكم .

فقال سيبيس : لشد ما أرغب فى أن أنصت لما تقول .

قال سقراط : إذن فهاك حديثى ياسيبيس : لقد كنت فى صباى شديد الرغبة فى معرفة ما يسمى بالعلم الطبيعى من أبواب الفلسفة ، فقد ظننت أن له أغراضاً سامية ، إذ هو العلم الذى يبحث فى علل الأشياء ، فينبئنا لماذا وجد الشيء ، وفيما خلقه وفناؤه ، وكنت لا أنى أقلق نفسى بالنظر فى مسائل كهذه : هل يرجع نمو الحيوان إلى فساد يجيء به عاملا الحر والبرد كما يقول بعض الناس[1] ؟ أيكون العنصر الذى نفكر به هو الدم أم

---

(١) هذا رأى قديم يعلل الحياة فى الكائنات الحية بتأثير الحرارة والبرودة فى معادن خاصة.

الهواء أم النار ؟ أم قد لا يكون شيئاً من هذا القبيل ؟ - فربما كان المخ هو القوة التى تبتدع أحاسيس السمع والبصر والشم ، وقد تنشأ عن هذه الأحاسيس الذاكرة والرأى ؛ وعلى الذاكرة والرأى قد يُبنى العلم، ولكن إذا وقفت فيهما الحركة وأدركهما السكون ؛ وبعدئذ مضيت أختبر فساد الأحاسيس ، وأتناول بالبحث أشياء الأرض والسماء ، واستخلصت أخيراً أننى عاجز كل العجز عن هذه المباحث ، وعلى ذلك سأقيم لك الدليل قاطعاً فقد فتنت بها إلى درجة عميت معها عيناى أن ترى الأشياء التى كنت أحسبنى ، ويحسبنى الناس ، عالماً بها علم اليقين؛ وقد أنسيت ما كنت ظننته من قبل بديهياً لا يحتاج إلى دليل ، هو أن نمو الإنسان نتيجة الأكل والشرب ، لأنه بهضم الطعام يجتمع لحم إلى لحم وعظم إلى عظم، وحيثما تجمعت عناصر متجانسة كبر الجرم الضئيل ، وعظم الإنسان الصغير. ألم يكن ذلك رأياً معقولاً ؟

قال سيبيس : نعم أظن ذلك .

- حسناً ، دعنى أنبئك شيئاً آخر ، فقد مر بى زمن كنت فيه أحسب أنى أفهم معنى الأكبر والأصغر فهماً جيداً ، فإذا أبصرت رجلاً ضخماً واقفاً إلى جنب رجل ضئيل ، توهمت أن أحدهما أطول من الآخر قيد رأس ، أو أن حصاناً كان يلوح لى أنه أكبر من حصان آخر ، بل أوضح من ذلك أننى كنت فيما يظهر أحسب العشرة تزيد على الثمانية

باثنين ، وأن ذراعين أكبر من ذراع واحدة ، لأن الاثنين ضعف الواحد .

قال سيبيس : وماذا أنت اليوم قائل فى مثل هذه الأمور ؟

فأجاب : كان ينبغى أن أنأى بنفسى بعيداً عن توهم أننى أعلم لأيها سبباً ؛ حقاً كان ذلك ينبغى ، فلست أستطيع أن أقنع نفسى بأننا لو أضفنا واحداً إلى واحد صار الواحد الذى جاءته الإضافة اثنين ، أو أن الوحدتين مضافتين معاً تساويان بسبب الإضافة اثنين ، فلست بمسيغ كيف أنه إذا انفصلت إحداهما عن الأخرى كانت واحداً لا اثنين ، ثم إذا تلاقيا ، فقد يكون مجرد التقارب بينهما سبباً فى أن تصبحا اثنتين : هذا ولست أفهم كيف تكون قسمة الواحد سبيلاً للحصول على اثنين ، لأنه عندئذ تكون النتيجة الواحدة ناتجة من سببين متباينين - ففى المثال الأول نشأ اثنان من جمع واحد إلى واحد وتقاربهما ، فى الثانى كان السبب هو انفصال واحد عن واحد وطرحه منه[1] . ولست مقتنعاً بعد ذلك بأننى أفهم لماذا يتولد الواحد ، أو أى شئ آخر ، ولماذا يزول ، بل ولماذا يكون إطلاقاً. إننى لن أسلم بهذا قط وإنى لأتمثل فى ذهنى فكرة مهوشة عن طريقة أخرى .

---

(١) يعنى أننا يمكن أن نقسم الواحد نصفين فيكون لنا بذلك اثنان . كذلك يمكن أن نضم واحداً إلى واحد فيكون لنا بذلك اثنان أيضاً . فكأن الاثنين تنتج عن علتين مختلفتين.

ثم استمعت إلى رجل كان عنده كتاب أنا كسجوراس ، كما قال : وطالع فيه أن العقل هو المُصرّف والعلة لكل شىء ، ولشد ما اغتبطت لذكر هذا الذى كان باعثاً على الإعجاب . وقلت لنفسى : إذا كان العقل هو المسيِّر فإنه سيسير بكل شىء إلى الصورة المثلى ؛ ويضع كل شئ أحسن موضع ؛ وزعمت أن من يرغب من الناس فى استكشاف علة أى شىء أو زواله أو وجوده ؛ فعليه أن يرى كيف تكون الصورة المثلى لذلك الشىء من حيث وجوده وسعيه وعمله ؛ لذلك كان لزاماً على المرء ألا يضع نصب عينيه إلا الحالة المثلى بالنسبة إلى نفسه وإلى الناس ثم عليه بعد ذلك أن يعلم الأسوأ أيضاً ، فالأمثل والأسوأ يحويهما علم واحد . وسرنى ما ظننت أنى واجد فى أنا كسجوراس من يعلمنى ما وددت أن أعلم من أسباب الوجود ؛ وخيل إلىّ أنه منبئى أول الأمر عن الأرض أمسطحة هى أم كروية ، وأنه باسط لى بعد ذلك علة هذا وضرورته وأنه معلمى طبيعة الأمثل ومظهر لى أن الأمثل إنما هو هذا[1] ، فإن زعم أن الأرض قائمة فى المركز شرح كيف أن هذا هو الوضع الأمثل ، وكنت سأقتنع به لو بين لى ذلك ، وما كنت لأقتضيه غير ذلك سبباً ، وحسبت أننى قد ألتمسه بعد ذلك فأسائله عن الشمس والقمر والنجوم ، فيشرح لى سرعتها المقارنة، ونكوسها ومختلف حالاتها ، وكيف أنها تتجه بميولها المتعددة ، القابلةً منها والفاعلة نحو الأمثل دائماً ، وكما كنت أتصور أنه

(١) أى أنه اعتقد أنه سيجد فى نظرية أناكسوراس البراهين الكافية على أن الكون فى صورة مثلى ، فسقراط ، لا يطلب تعليلا لظواهر الكون إن هو اعتقد بحق أنها فى أوضاع مثالية ، فتلك عنده غاية تكفى وحدها أن تكون هدفا أقصى

عن العقل باعتباره مصرفاً لها ، يعلل وجودها على هيئتها الراهنة بغير علة أن هذه هى الصورة المثلى ، وظننت أنه بعد أن يفرغ من الشرح المفصل لعلة كل منها وعلتها جميعاً ، سيمضى يبين لى الحالة المثلى لكل منها ولها جميعاً . لقد تناولت الكتب متلهفاً لأعلم أمر الأمثل والأسوأ ، فتلوتها مسرعاً ما استطعت إلى السرعة سبيلاً ، وقد رجوت آمالاً لم أكن لأبيعها بكثير .

ما أبعد ما رجوت من أمل ، وما أسوأ ما عدت به من فشل ! فما مضيت حتى ألقيت فيلسوفى قد نبذ العقل نبذاً كما نبذ كل ما سواه من أسس الاتساق ، وانتكس إلى الهواء والأثير والماء وما إليها من شوارد الآراء ، فكان عندى أشبه برجل أصَرَّ باديء ذى بدء أن العقل هو علة أفعال سقراط بصفة عامة ، فلما أراد أن يبين بالتفصيل أسباب أفعالى العديدة ، أخذ يبرهن أننى أجلس هاهنا لأن جسمى مصنوع من عظام وعضلات ، وأن العظام كما كان ينتظر أن يقول : صلبة تفصل بينها أربطة ، وأن العضلات مرنة وهى تغطى العظام التى يحتويها كذلك غشاء أو محيط من اللحم والجلد . ولما كانت العظام مشدودة إلى مفاصلها لقبض العضلات وبسطها ، كان فى استطاعتى أن أثنى أطراف بدنى ، وهذا علة جلوسى هاهنا فى وضع منحن . إنه كان سيزعم هذا ، وكان سيشرح بمثل هذا كلامى إليكم ، فقد كان سيعزوه إلى الصوت والهواء والسمع ، وكان سيذكر من هذا النوع من الأسباب عشرة آلاف سوى ما ذكر ، ناسياً أن يشير إلى السبب الحقيقى وهو أن الأثينيين قد رأوا فى إدانتى صواباً ،

فرأيت أنا بناء على ذلك أن الأفضل والأصوب هو مقامى هاهنا محتملاً ما حكم على به ، فأرجح الظن عندى أن عظامى وعضلاتى هذه كانت تود لو فرت إلى ميغارا أو بوتيا Beotia - وإنى لأقسم بالكلب أنها تود ذلك، إذا لم يكن يسيرها إلا فكرتها هى عن الأحسن ، وإذا لم أكن أنا قد آثرت أن أحتمل كل عقوبة تقضى بها الدولة ، على اعتبار أن ذلك أفضل وأشرف مسلكاً ، بدل أن أمثل دور الآبق فألوذ بالفرار . لاشك أن فى هذا كله خلطاً عجيباً بين الأسباب والحالات . وقد يمكن القول حقاً إننى لا أستطيع تحقيق غاياتى بغير العظام العضلات وسائر أجزاء الجسد ، أما القول بأننى أفعل ما أفعل من أجلها ، وأن فعل العقل إنما يكون على هذا النحو ولا يكون باختبار الأحسن ، فذلك ضرب من القول العابث العقيم : وإنى لأستغرب ألا يستطيع الناس أن يفرقوا بين السبب والحالة ، وهو ما يخطئ الدهماء فيه وفى تسميته دائماً، لأنهم يتخبطون فى الظلام ؛ وهكذا ترى واحداً من الناس يفترض دوامةً من الماء تحيط بالأرض التى ترتكز فى موضعها بفعل السماء ، وترى آخر يذهب إلى أن الهواء عماد الأرض ، وأن الأرض فى شكل الحوض الفسيح[1] ، ولا تسيغ عقولهم قط وجود أية قوة تسير بهم إذ تصرفهم نحو الأحسن ، وهم لا يتخيلون

(١) يتهكم سقراط بهذا القول على أصحاب المذاهب الفلسفية الأولى الذين كانوا يعللون الكون بالماء تارة وبالهواء طوراً ، دون أن ينفذا بعقولهم إلى ما وراء المادة من قوة مدبرة .

أن فى ذلك قوة فوق القوة البشرية ، إنما هم يتوقعون أن يجدوا للعالم عماداً آخر أقوى من الخير وأكثر منه دواماً وشمولاً ، وهم بغير شك يرون أن قوة الخير القسرية الشاملة هى كل شىء ، ولكننى مع ذلك أتمنى أن يكون هذا هو المبدأ الذى أتعلمه إن وجد من يعلمنيه ، ولما كنت قد فشلت أن أستكشف بنفسى أو بإرشاد غيرى من الناس طبيعة الأمثلة ، فسأعرض عليكم إذا شئتم طريقة البحث فى العلة التى وجدتها تتلو الأمثل فى المثالية[1] .

أجاب : لشد ما أحب أن أصغى إلى ذلك .

فمضى سقراط : ظننت أنى مادمت قد فشلت فى تأمل الوجود الحقيقى فينبغى أن أحرص على عين روحى فلا أفقدها كما قد يؤذى الناس عيونهم الجثمانية بشهود الشمس والنظر إليها أثناء الكسوف ، ما لم يتحوطوا فلا ينظرون إلا إلى الصورة المنعكسة على الماء أو ما يشبه من وسيط ؛ حدث لى ذلك فخفت أن تصاب روحى بالعمى الشامل إذا أنا نظرت إلى الأشياء بعينى أو حاولت أن أتفهمها بوساطة الحواس ، وفكرت أنه يحسن بى أن أعود إلى المثل فأبحث فيها عن حقيقة

---

(١) أصدق تعليل للكون عند سقراط هو معرفة الشكل المثالى أو الكمال الذى تنشده ظواهر الكون ، فيه نستطيع أن نعلل كل شىء وكان يتمنى أن يجد بين الناس من يعلمه طبيعة ذلك الكمال ولكنه لم يوفق ، لذلك يريد أن يعرض على سامعيه علة تجىء فى المرتبة بعد الكمال مباشرة .

الوجود، وإنى لأعترف بنقص هذا التشبيه[1] - لأننى بعيد جداً عن التسليم بأن من يتألم صــور الوجود بوساطة المثل يراها « مـعتمـة خلال منظار » دون مــن ينظر إليها وهــى فى نشاطها وبين نتائجها ، ومهما يكن من أمر فـهذه سبيلى التى سلكتـها : فـرضت بادئ الأمر مـبدأ زعـمت أنه أمتن المبادئ، ثم أخذت أثبت صحة كل شىء يبدو مـتفقاً مع ذلك المبدأ ، سواء أكان ينتـمى إلــى السبب أو إلى أى شــىء آخر ، واعتـبرت كل ما يـتنافر وإياه غـير صـحـيح ، ولكنى أحب أن أوضح بالشـرح مـا أعنى ، فمـا أحسبكم تفهمون ما أريد .

فأجاب سيبيس : كلا ، حقاً إنا لم نفهم جيداً .

قال : ليس فيما أوشك أن أنبئكم به من جديد ، فهو ما ظللت أكرره أينما حللت ، فيما سبق من نقاش ، وفى ظروف غيره سلفت ، فثمة علة قد ملكت على خواطرى ، أريد أن أبسط لكم طبيـعتها ، ولا مندوحة لى عن العودة إلى تلك الألفـاظ المألوفة التى يلوكـها كل إنسان ، فـأزعم قبل كل شىء أن ثم جمـالاً مطلقاً وخيراً مطـلقاً وكبراً مطلقـاً وما إلى ذلك .

---

(١) يقول إنه إذا أراد أن يبحث فى علة السكون فلن يتوجه بفكره وحواسه نحو ظواهر السكون نفسها ، خشاة أن يبهره وهجهـا فتصاب العين المبصرة من نفسه بالعمى ، كما يحدث للعين الجثمانية فيـمن ينظر إلى الشمس نفسها دون أن يلتمس صورتها على صفحة الماء ، ولكنه سيـبحث فى عالم المثل بفكره ، والمثل فى الواقع صورة من الكون ، أو الكون صورة منها على الأصح.

سلم معى بهـذا ولعلى أستطيع أن أدلك على طبيعـة العلة ، وأن أقيم لك الدليل على خلود الروح .

فقـال سيـبيس : تسـتطيع أن تمضى من فـورك فى برهانك ، فلست أتردد فى أن أسلم لك بهذا .

فقال : حسناً ، إذن فأحب أن أعلم هل تتفق معى فى الخطوة التالية، وتلك أنه لو كـان هنالك شىء جمـيل غيـر الجمـال المطلق لما شككت فى استحالة أن يكون ذلك الشىء جميلاً إلا بمقـدار مساهمته فى الجمال المطلق - وإنى أقرر هذا عن كل شىء . آأنت موافقى على الرأى فى العلة ؟

فقال : نعم أوافقك .

فمـضى قائلاً : لست أعلم شـيئاً ولا أسـتطيع أن أفهم شيـئاً عن أى سبب آخر من تلك الأسباب الحكميـة التى يزعمونها ، فإن قال لى أحد إن جـمالاً ينبـعث عن ازدهار اللون أو الشكل أو مـا شـئت من شئ من هذا القبيل ، لطرحت قوله جملة ، فليس لى منه إلا ربكتى ، ولتشبثت بفكرة واحـدة دون غيـرها تشبـثاً قـد يكون على شىء من الحـمق ، ولكنى من صوابها علـى يقـين ، وهـى أنه لا يجعل الشىء جميلاً إلا وجود الجمال والمساهمة فيه، مهما تكن سبيل الوصول إلى ذلك، وكيفية الحصول عليه ، فلست أقطع برأى فى الكيفية ، ولكننى أقرر بقـوة أن الأشياء الجميلة كلها إنما تكون جـميلة بالجـمال ، وعندى أن ذلك وحـده هو الجواب المعـصوم

الذى أستطيع أن أدلى به لنفسى أو لأى أحد آخر ، وأنى لأتشبث به ، ويقينى أن لن تصيبنى الهزيمة قط ، أنه فى مكنتى أن أجيب ، فى عصمة من الزلل ، على نفسى أو على أى أحد من الناس ، بأن الأشياء الجميلة لا تكون جميلة إلا بالجمال. ألست توافق على ذلك ؟

- نعم أوافق .

- وبالكبر وحده تصير الأشياء الكبيرة كبيرة فأكبر وأكبر وبالصغر يصير الصغير صغيراً ؟

- حقاً .

فلو لاحظ شخص أن (أ) أطول من (ب) بمقدار رأس ، وأن (ب) أصغر من (أ) بمقدار رأس ، فسترفض أن تسلم له بهذا ، وستزعم بقوة أنك لا تعنى إلا أن الأكبر أكبر بالكبر ، وبسببه ، وأن الأصغر ليس أصغر إلا بالصغر ، وبسببه ، وهكذا تجنب نفسك خطر القول بأن الأكبر أكبر ، وأن الأصغر أصغر ، بمقياس الرأس ، الذى هو هو فى كلتا الحالين ، وستجنب نفسك كذلك ما فى افتراض أن الرجل الأكبر أكبر بسبب الرأس الذى هو صغير ، من سخف فظيع . ألم تكن لتخشى ذلك ؟

فقال سيبيس ضاحكاً : كنت لأخشاه حقاً .

وكنت تخشى ، بنفس الطريقة ، أن تقول إن عشرة تزيد على ثمانية باثنين ، وبسببها ، ولكنك كنت تقول إنها تزيد عليها بالعدد ، وبسببه، أو

أن ذراعين يزيدان على ذراع واحد بنصف بل هما يزيدان عليها بالكبر – ذلك ما كنت تقوله لأن الخطر بذاته موجود فى كلتا الحالتين .

قال : جد صحيح .

– ثم ألم تكن لتحذر من التأكيد بأن إضافة واحد إلى واحد ، أو قسمة واحد ، هى سبب اثنين ، وكنت لتقسم أمام الملأ بأنك لا تدرى طريقة يجئ بها أى شئ إلى الوجود ، إلا مشاطرته لجوهره الأصلى، فينتج أن سبب الاثنين الأوحد هو – فى حدود ما تعلمه أنت – مشطرة الاثنينية ، فهذه المشاطرة هى طريقة عمل اثنين كما أن مشاطرة الواحد هى طريقة عمل الواحد ، وكنت ستقول إنى مُطَّرح ألغاز القسمة والإضافة جانباً – فقد تجيب عنها رؤوس أبلغ من رأسى حكمة ، ومادمت كما أنا عديم الخبرة ، أفزع من ظلى كما يذهب المثل ، فلستُ أقوى على أن أتناول بالهدم مبدأ ذا أساس مكين . فإن هاجمك فى ذلك مهاجم ، لم تحفل به ، أو أجبته حتى ترى إن كانت النتائج الناجمة متفقاً بعضها مع بعض أو لا ، فإن طلب إليك بعد ذلك أن تتناول هذا المبدأ بالشرح ، مضيت تزعم مبدأ أسمى ، فأسمى المبادئ السامية ، حتى تجد لنفسك مكمناً، ولكنك لم تكن لتخلط فى تدليلك بين المبدأ والنتائج ، كما فعل الأرستيون The Eristics على الأقل إذا أردت أن تستكشف الوجود الحقيقى . لا لأن هذا الخلط كان سيتبين لهؤلاء الذين لا يعنيهم الأمر إطلاقاً ولا

يفكرون فيه ، فلديهم من الذكاء ما يكفى أن يجعلهم يغتبطون بأنفسهم غبطة عظيمة ، مهما يكن ما تحويه أفكارهم من عناء كبير ، ولكنى أعتقد أنك فاعل كما أقول إن كنت فيلسوفاً .

قال سمياس وسيبيس فى صوت واحد : إن ما تقوله لحق بالغ .

- اشكراتس : نعم يا فيدون ، وليس يدهشنى منهما هذا التسليم ، فكل إنسان له من الفكر أدنى حدوده ليقر بما فى تدليل سقراط من وضوح عجيب .

- فيدون : يقيناً يا اشكراتس ، وقد كان ذلك عندئذ إحساس الرفاق جميعاً .

- اشكراتس : نعم ، وهو إحساسنا أيضاً ، نحن الذين نصغى الآن لزوايتك ولم نكن من الرفاق ، ولكن ما الذى تلا هذا ؟

- فيدون : بعد أن سلموا بهذا كله ، ووافقوا على وجود المثل ، وعلى مشاركة سائر الأشياء فيها ، تلك الأشياء التى اشتقت أسماؤها من تلك المثل . قال سقراط ما يأتى ؛ إن كنت مصيباً فيما أتذكر .

- تلك هى طريقتك فى الحديث ، ومع ذلك فحين تقول إن سمياس أكبر من سقراط وأصغر من فيدون ، ألست بذلك تصف سمياس بالكبر والصغر معاً ؟

- نعم إنى أفعل ذلك .

- ولكنك على رغم هذا تسلم بأن سمياس لا يزيد فى الحقيقة عن سقراط بسبب أنه سمياس ، كما قد يدل عليه ظاهر العبارة ، ولكنه يزيد عليه بسبب ما له من حجم . فليس يزيد سمياس على سقراط لأنه سمياس أكثر مما يزيد عليه لأن سقراط هو سقراط ؛ إنما سبب الزيادة أن فيه صغراً حينما يقرن إلى كبر سمياس ؟

- حقاً .

وإذا كان فيدون يربى عليه حجماً فليس ذلك لأن فيدون هو فيدون ؟ بل سببه أن فى فيدون كبراً بالنسبة إلى سمياس الذى هو أصغر بالمقارنة؟

- هذا حق .

- وإذن فسمياس يقال عنه إنه كبير كما يقال عنه إنه صغير لأنه فى موقف وسط بينهما ، فهو يزيد بكبره على صغر أحدهما ، كما أن كبر الآخر يزيد على صغره . ثم أضاف ضاحكاً : ما أشبهنى فيما أقول بكتاب ، ولكنى أعتقد أن ما أقوله حق .

فوافق سمياس على هذا .

- والسبب فى هذا القول منى هو رغبتى فى أن تروا معى أنه ليس الكبر المطلق وحده هو الذى يستحيل عليه أن يكون كبيراً وصغيراً فى آن معاً ، بل إن ما فينا من كبر ، وكذلك ما فى المحسات ، لن يقبل كذلك الصغير بتاتاً ، ولن يرضى أن يربى عليه ، وسيحدث بدلاً من

هذا أحد شيئين - إما أن الأكبر سيزول أو يتراجع أمام ضده ، وهو الأصغر ، أو أنه سيتلاشى بازدياد الأصغر . ولكنه لو قبل أو سلم بالصغر فلن يغير ذلك منه ، كما أنى لا أزال كما كنت تماماً الشخص الصغير بذاته مع كونى قد تلقيت الصغير وقبلته حينما قرنت إلى سمياس . فكما أنه يستحيل قطعاً على مثال الكبير أن يتنازل ليكون أو ليصير صغيراً . كما يستحيل على أى ضد آخر ظل كما هو ، أن يكون أو يصير ضد نفسه أبداً ، فهو إما أن يزول أو يمحى أثناء التغير .

أجاب سيبيس : هذا عين ما أرتئيه .

فلما أن سمع ذلك أحد الرفاق ، ولست أذكر على التحقيق من هو ، قال : بحق السماء ، أليس هذا هو النقيض تماماً لما سبق التسليم به - ذلك أن من الأكبر جاء الأصغر ، ومن الأصغر جاء الأكبر ، وأن الأضداد إنما تولدت من أضداد ، فأحسبكم الآن منكرين هذا إنكاراً قاطعاً .

فمال سقراط نحو المتكلم برأسه منصتاً ، ثم قال : تعجبنى جرأتك فى تذكيرنا بهذا ، ولكنك لم تلاحظ أن هنالك اختلافاً بين الحالتين ، فقد كنا نتحدث فيما سلف عن الأشياء المتضادة أما الآن فحديثنا عن الضد فى ذاته الذى يستحيل عليه - كما هو مقطوع به - أن يتحول إلى ضد نفسه سواء أكان موجوداً فينا أم فى الطبيعة . إذن فقد كنا يا صديقى نتحدث عن الأشياء التى تنسب إليها الأضداد ، والتى سميت تبعاً لها ، أما الآن فنحن

إنما نتكلم عن الأضداد نفسها الموجودة فى الأشياء والتى تخلع أسماءها عليها ، فلن تقبل قط هذه الأضداد الذاتية فيما نعتقد ، الكَوْن أو صدور بعضها من بعض . وهنا التفت إلى سيبيس وقال : هل أدخل اعتراض صاحبنا شيئاً من الحيرة فى نفسك يا سيبيس ؟

فأجاب سيبيس : لم أشعر بذلك ، ولكنى لا أنكر أنى أوشك أن أحس الارتباك .

فقال سقراط : إذن فنحن بعد هذا كله متفقون على أن الضد لن يكون مضاداً لنفسه بأية حال .

فأجاب : إننا فى هذا على اتفاق تام .

– ولكن اسمح لى أن أطلب إليك مرة ثانية أن تنظر إلى المسألة من وجهة أخرى ، لترى إن كنت متفقاً معى : أهنالك شئ تسميه بالحرارة وشئ آخر تطلق عليه اسم البرودة ؟

– يقينا .

– ولكن أهما النار والثلج ذاتهما ؟

– كلا ، بغير شك .

– ليست الحرارة هى النار ، ولا البرودة هى الثلج ؟

– لا !

- ولكنك لن تتردد فـي التسليم بأنه إذ يكون الثلج تحت تأثيـر الحرارة ، كما سبق القول ، فلن يلبـثا ثلجاً وحرارة ، بل كلما ازدادت الحرارة، تراجع الثلج أو أدركه الفناء .

أجاب : جد صحيح .

- كـذلك كلما ازدادت البـرودة على النار فـإما أن تـتـراجع أو تفنى وإذ تكون النار تحت تأثيـر البرودة ، فلن يلبثـا ناراً وبرودة ، كمـا كانت الحال من قبل .

قال : هذا حق .

- وفى بعض الحالات لا يكون اسم المثال (Idea) مقصوراً على المثال ، بل إن لكل شىء آخر حق المشاركة فى الاسم، مادام موجوداً فى صورة المثال، من غير أن يكون هو المثال ، وسأسوق إليك مثلاً لعلى أوضح هذا القول : أليس يطلق دائماً اسم الفردى على العدد الفردى؟

- جد صحيح .

- ولكن هل هذا وحده هو الشئ الذى يسمى بالفردى ؟ أليس ثمة أشياء أخرى لـها أسـماؤهـا الخـاصة بهـا ، ويطلق عليهـا رغم ذلك اسم الفردى ، لأنها وإن كانت ليست هى الفردية ذاتها ، غير أنها لا تخلو مـن الفـردية قطعـاً ؟ - هذا ما أريد أن أسـتجـيب عنه - أليـسـت الأعداد ، كرقم ثلاثة مثلاً ، من نوع الفـردى ، وهناك غير هذا كثير

من الأمثلة : ألست تقول مثلاً إنه يـجوز أن يدعى رقـم الثلاثة باسمه الأصلى ، ثم يطلق عـليه كـذلك اسم الفـردى ، وليس الفـردى هو الثلاثة ذاتـها ؟ وليس يقال هذا عـن العدد ثلاثة فقط ، بـل إنه جائز أيضاً على خـمسة ، وعلى كـل الأعداد الفردية الأخـرى - كل منها فردى دون أن يكون هو الـفردية ؛ وهكذا قل فى اثنين وأربعـة وسائر سلسلة الأعداد المتعاقبـة كل عدد زوجى دون أن يكون هو الزوجية . هل تسلم بهذا ؟

قال : نعم ، وهل إلى إنكاره من سبيل ؟

- ألق بالك إذن إلى الغاية التى أنشدها ؛ ليست الأضداد المعنوية وحدها هى التى يطرد بعضها بعضاً ، بل كذلك الأشياء المجسدة التى وإن لم تكن مـتضادة فى ذاتـها إلا أنها تحتوى أضـداداً ؛ وأنا أزعم أن هذه الأشياء أيضـاً ترفض المثال (idea) الذى يكون مضـاداً لا تحتويه فى داخلها ، وهى إذا مـا تقدم ذلك فإما أن تنسحب أو تـفنى. خذ عدد ثلاثة مثلاً ، أليس يصبـر على التلاشى أو أى شئ آخر ؛ أهون عليه من أن يتحول إلى عدد زوجى مع بقائه ثلاثة !

فقال سيبيس جد صحيح .

قال: ومع ذلك فلا ريب فى أن العدد اثنين ليس مضاداً للعدد ثلاثة؟

- إنه لا يضاده .

- إذن فليست المثل المتضـادة وحدها هى التى يقاوم بعضـها تقدم بعض، ولكن ثمة أشياء أخرى تقاوم كذلك اقتراب الأضداد ؟

فقال : هذا جد صحيح .

قال : هبنا نحاول تحديد ماهية هذه (الأشياء) إن أمكن ذلك .

- لا ريب فى هذا .

- أليست هذه يا سيبيس ترغم الأشيـاء التى فى حوزتها على أن تتـخذ شكل بعض الأضداد فضلاً عن شكلها هى ؟

- ماذا تعنى ؟

- أعنى ، كما كنت أقول الآن توا ، ومـا ليس بى حاجة لإعادته إليك، إن الأشياء التى يملكهـا العدد ثلاثة ، لا يلزم فقط أن تكون ثلاثة فى عددها ، بل ينبغى كذلك أن تكون فردية .

- جد صحيح .

- ويستـحيل على المثـال المضاد أن يعـتدى على هذه الفـردية التى انطبع العدد ثلاثة بطابعها ؟

- كلا .

- وهو إنما استمد هذا الطابع من عنصر الفردى ؟

- نعم !

- والزوجى والفردى ضدان ؟

- حقاً !

- إذن فمثال العدد الزوجى لن يلحق بثلاثة أبداً ؟

- كلا !

- وإذن فليس لثلاثة فى الزوجى من نصيب ؟

- كلا !

- إذن فالثلاثى أو العدد ثلاثة غير زوجى ؟

- جد صحيح .

لأعُد إذن إلى ما زعمته من تمييز بين الطبائع التى ليست أضداداً وهى مع ذلك لا تقبل أضداداً ، فكمـا فى هذا المثال ، على الرغم من أن ثلاثة ليست مـضادة للزوجى إلا أنهـا لا تقبل شـيئاً من الزوجى أبـداً ، ولكنها دائماً تعرض الضد فى الجانب الآخر أو كما أن اثنين لا تتقبل الفردى ، أو النار البرودة . ومـن هذه الأمثلة (ومنها كـثيـر غير هذا) ربما استطعت أن تصل إلى نتيجة عامة أنه ليـست فقط الأضداد هى التى لا تتقبل أضداداً ، بل كذلك لا شىء مما يسوق الضـد يقبل ضد ما يسوقـه إليه . واسمح لى هنا أن ألخص ما سـبق من قول - فليس فى التكرار من ضـرر ، لن يقبل العدد خمسة طبـيعة الزوجى أكثر مما تقبل عشـرة ، وهى ضعف الخمسة ، طبيعـة الفردى - فللضعف ضد آخـر وليس مضاداً للفردى تضاداً دقـيقاً ،

غير أنه يرفض الـفـردى إجمالاً . ولن تقبل كذلك أجـزاء النسـبة ٣ : ٢ فكرة الكل ، وكذلك أى كـسر يكون فيه نصف ، لا بل والذى يكـون فيه ثلث ، ولو أنها ليست مضادة للكل ، هل تسلم بذلك ؟

فقال : نعم إنى متفق تمامًا ، وذاهب معك إلى ذلك .

قال : أظنتنى الآن أستطيع أن أبدأ ثانياً ، وإنى لأرجوكم أن تُدلوا إلىّ عن هذا السؤال الذى أوشك أن ألقيه بجواب غير الجواب القديم المأمون ، وسأقدم لكمْ لما أريد مثـالاً ، وعسى أن تجدوا أساساً آخر فيمـا قيل الساعة توا يكون مأموناً كذلك ، أعنى أنـه لو ساءلكم أحد : «ما هو الشىء الذى يجعل الجـسم حاراً بحلوله فيـه ؟» فستجـيبون أنه ليس الحـرارة (وهذا ما أدعوه بالجـواب المأمون) ، ولكنه النار ، هو جـواب يفضل ذلك كثـيراً ، ونحن الآن مهيأون للإدلاء به . أو لو ساءلكم أحد : «لماذا يعتل الجسد ؟» فلن تقـولوا من المرض بل من الحمـى ، وفى مكان القول بأن الفـردية هى سبب الأعـداد الفردية ستـقولون إن الجوهر الفـرد هو سببـها . وهكذا فى الأشياء بصفة عـامة . أحسب أنك ستفهم ذلك فهماً جـيداً بغير أن أسوق إليك أمثلة أخرى !

فقال : نعم إنى أفهم ما تقول فهماً جيداً .

– حدثنى إذن ماهو الشىء الذى يجعل الجسم حياً بحلوله فيه ؟

فأجاب : هو الروح .

- أهذه هى الحال دائماً ؟

فقال : نعم ؛ بالطبع .

- إذن فمهما يكن ما تملكه الروح ؛ فإنها إذ تأتيه تحمل إليه الحياة ؟

- نعم ؛ يقيناً .

- وهل ثمة ضد للحياة ؟

فقال : نعم هناك .

- وماهو ذاك ؟

- الموت !

- إذن فلن تقبل الروح أبداً ، كما اعترفنا ، ضد ذلك الذى تسوقه . ثم قال : والآن ؛ بماذا سمينا ذلك المبدأ الذى يقاوم الزوجى ؟

- الفردى .

- والمبدأ الذى يقاوم الموسيقى أو العادل ؟

فقال : غير الموسيقى وغير العادل .

- وبماذا نسمى ذلك المبدأ الذى لا يقبل الموت !

فقال : الخالد .

- وهل تقبل الروح الموت ؟

- كلا !

- إذن فالروح خالدة ؟

فقال : نعم .

- أيحق لنا القول بأن ذلك قد ثبت بالدليل ؟

فأجاب : نعم يا سقراط ، لقد ثبت بأدلة كثيرة .

- وإذا فرضنا أن الفردى لا يخضع للفناء ؛ أليس يلزم أن ثلاثة غير قابلة للفناء ؟

- طبعاً !

- وإذا كان الشيء البارد غير قابل للفناء ؛ ثم جاء العنصر الدافئ يهجم الثلج ؛ أفلا ينبغى للثلج أن يتراجع متماسكاً متجمداً لأنه عندئذ يستحيل عليه أن يفنى كما يستحيل عليه أن يبقى مع قبوله للحرارة ؟

فقال : حقاً .

- وكذلك لو كان العنصر الذى لا يبعث البرودة ؛ أى الدافئ ، مستعصياً على الفناء ؛ لما فنيت النار وما انطفأت حين تُغير عليها البرودة ، ولكنها تنأى بغير أن تتأثر !

فقال : يقيناً .

- ويمكن أن يقال هذا القول نفسه عن الخالد : لو كان الخالد مستعصياً

كذلك على الفناء ، لاستحال فناء الروح حين يهاجمها الموت ، إذ يدل البرهان السابق على أن الروح لن تكون قط ميتة ، فلن تقبل الموت أكثر مما تقبل ثلاثة أو العدد الفردى والزوجى ، أو النار ، والحرارة التى فى النار ، البرودة ، ومع ذلك فرب أحد يقول : «ولكن على الرغم من أن الفردى لن يصير زوجياً حين يقترب الزوجى منه ، فلماذا لا يجوز أن يفنى الفردى وأن يحل مكانه الزوجى ؟» ونحن لا نستطيع أن نجيب من يتقدم بهذا الاعتراض بأن العنصر الفردى مستعص على الفناء لأن ذلك لم يعترف به بعد ، فلو قد اعترف بهذا لما أشكل علينا الزعم بأن العنصر الفردى والعدد ثلاثة يهمان بالرحيل حين يقترب الزوجى ؛ وهذا البرهان بعينه يصح عن النار وعن الحرارة وعن أى شىء آخر .

- جد صحيح .

- ويجوز هذا القول نفسه عن الخالد : لو كان الخالد متعصياً كذلك على الفناء ، إذن لكانت الروح مستعصية على الفناء كالخالد سواء بسواء ، فإن لم يكن ، وجب أن يقام برهان آخر على استحالة فنائها .

فقال : ليس بنا من حاجة إلى برهان آخر ، إذ لو كان الخالد - وهو سرمدى - عرضة للفناء ، للزم ألا يستحيل الفناء على شىء .

فأجاب سقراط : نعم ، فكل الناس مسلمون بأن الفناء مستحيل على الله وعلى صورة الحياة الروحية وعلى الخالد بصفة عامة .

قال : نعم ، كل الناس بذلك مسلمون - هذا صحيح ، وأكثر من هذا ، فهم مجمعون - إن لم أكن مخطئاً - على أن الآلهة كالناس فى ذلك .

- وإذن فما دمنا قد رأينا أن الخالد لا يناله التخريب ، أفلا يلزم أن تكون الروح مستعصية على الفناء كذلك - مادامت خالدة ؟

- بكل تأكيد .

- إذن فحين يهاجم الموت إنساناً ، فقد يتعرض الجزء الفانى منه للموت، وأما الخالد فينأى عن طريق الموت حيث يحفظ مصوناً سليماً ؟

- حقاً .

- إذن يا سيبيس فالروح خالدة بغير شك ، هى مستعصية على الفناء، وستحيا أرواحنا حقاً فى عالم آخر !

فقال سيبيس : إنى مقتنع يا سقراط ، وليس لدى بعد ذلك ما أعترض عليه فإن كان عند صديقى سمياس ، أو عند أحد سواه اعتراض آخر ، فيجمل به ألا يلتزم الصمت وأن يعلنه . اللهم إن كان لديه شيء يريد أن يدلى به ، أو كان يود لو أن أدلى به ، فلست أرى أن سيجود عليه الدهر بأنسب من هذه اللحظة حتى يجوز له أن يرجىء إليه الحديث .

فأجاب سمياس : ولكن ليس عندى ما أقوله بعد ذلك ، بل لست أرى مجالاً للشك ، إلا ما ينشأ حتماً عن ضخامة الموضوع وضعف

الإنسان ، فذلك ما لم يسعنى إلا أن أشعر به .

فأجاب سقراط : نعم يا سمياس فقد أحسنت قولا : أضف إلى ذلك أن المبادئ الأولى يجب أن تبسط للبحث الدقيق حتى وإن كانت تبدو يقيناً ، فإذا ما استوثقنا منها وثوقاً مرضياً ، استطعنا بعدئذ ، فيما أظن ، فى شىء من الإيمان المزعزع بالعقل البشرى ، أن نتبع مجرى البرهان ، فإن ألفيناه واضحاً لم يكن بنا بعد ذلك حاجة لسؤال .

فقال : ذلك صحيح .

قال : أما إن كانت الروح يا أصدقائى خالدة حقاً ، فما أوجب العناية بها ، ليس فى حدود هذه الفترة من الزمن التى تسمى بالحياة وكفى ، بل فى حدود الأبدية وما أهول الخطر الذى ينجم عن إهمالها بناء على هذه الوجهة من النظر . لو كان الموت خاتمة كل شىء ، لكانت صفقة الأشقياء فى الموت راجحة ، لأنهم سيغتبطون بخلاصهم ، لا من أجسادهم فحسب ، بل من شرهم ومن أرواحهم معاً . أما وقد اتضح فى جلاء أن الروح خالدة ، فليس من الشر نجاة أو خلاص إلا بالحصول علىٰ الفضيلة السامية والحكمة العليا ، لأن الروح لا تستصحب معها شيئاً فى ارتقائها إلى العالم الأدنى ، اللهم إلا التهذيب والتثقيف ، اللذين يقال عنهما بحق إنهما ينفعان الراحل أكبر النفع أو يؤذيانه أكبر الأذى ، إذا ما بدأ حِجّته إلى العالم الآخر .

فبعد الموت ، كما يقولون ، يقود كل امرئ شيطانه[1] الذى كان تابعاً له فى الحياة ، إلى سكان معين يتلاقى فيه الموتى جميعاً للحساب ، ومن ثم يأخذون سمعتهم نحـو العالم الأدنى ، يقودهم دليل نيطت به قيادتهم من هذا العالم إلى العالم الآخـر ، فإذا ما لقوا هناك جـزاءهم ولبثوا أجلهم ، رجع بهم ثانيـة بعد كر الدهور المتـعاقـبة دليل آخر ، وليـست هذه الرحلة للعالم الآخر ، كـما يقول اسكيلوس Aeschylus فى «التلفوس» Tele-phus ، طريقاً واحـدة مستـقيمـة ، وإلا لما احتاج الأمـر إلى دليل ، فلم يكن أحد ليضل فى طريق واحدة ، ولكن الطريق كـثيرة الشعب والحنايا ، وإنى لأستنتج ذلك مما يُقَدَّم إلى آلهة العـالم الأدنى من الشعائر والقرابين ، فى أمكنة من الأرض تتلاقى عندهـا سبل ثلاث . فالروح الحكيمـة المنظمة تكون عالمة بموقـفها وتسير فى سـبيلها على هدى ، أما الـروح الراغبة فى الجسـد ، والتى لبثت أمـداً طويلاً - كما سـبق لى القول - ترفـرف حول الهيكل الذى لا حياة فيه ، وحول عـالم الرؤية ، فيحملها شيطانها الملازم لها فى عنف وعـسر ، وبعد عـراك متصل وعـناء كثيـر ، حتى تبلغ ذلك المكان الذى تجتـمع فيـه سائر الأرواح . فإن كـانت روحاً دنسـة ، خبيـثة الصنيع بأن انغـمست فى الفـتك المنكر ، وفى أخـوات الفتك من الجـرائم الأخرى ، وتلوثت بهذه السلسلة من الآثام - فـإن كل إنسان يفرُّ من تلك

---

(١) فى الأصل Genius ومعناه روح طيبة أو خبيثة تسيطر على الإنسان وتملى عليه كل أعماله منذ ولادته حتى يأتيه الأجل .

الروح وينصرف عنها فلن يكون أحد لها رفيقاً أو دليلاً ، بل تظل تخبط وحدها فى أرذل الشر ، حتى ينقضى أجل معلوم، فإذا ما انقضى ذاك الأجل ، حُمِلت خانعة إلى مستقرها الملائم ؛ كذلك لكل روح طاهرة مستقيمة ، مضت فى حياتها مرافقة للآلهة مترسِّمة خطوهم ، مُقامها الخاص .

هذا وإن فى الأرض لربوعاً مختلفة عجيبة ، تختلف فى حقيقة أمرها - كما أعتقد معتمداً على رأى ثقة لن أذكر اسمه - تمام الاختلاف عن آراء الجغرافيين من حيث طبيعتها ومداها .

فقال سمياس : ماذا تعنى يا سقراط ؟ لقد سمعت للأرض أوصافاً كثيرة ولست أدرى مع أيها تذهب ، وأحب أن أعلم ذلك .

فأجاب سقراط : حسناً يا سمياس ، لا أظن أن حكاية تروى تستلزم لروايتها فن جلوكس Glaucus ، ولست أرى أن فن جلوكس مستطيع أن يقيم الدليل على صدق حكايتى ، التى أنا عاجز تمام العجز عن إثباتها بالدليل، وحتى لو استطعت ذلك لخشيت يا سمياس أن أختتم حياتى قبل أن يكمل الدليل ، ومع ذلك فقد أستطيع أن أصف لك صورة الأرض وربوعها كما أتصورها !

قال سمياس : حسبى منك ذلك .

قال : حسناً ، إذن فيقينى أن الأرض جسم مستدير ، هو من

السموات فى مركزها . لهذا لم يكن بها حاجة إلى الهواء أو ما إلى الهواء من قوة أخرى ، ليكون لهـا عماداً ، بل هى قائمـة هنالك ، تحول موازنة السماء المحيطة بها ، وتوازنها هى نفسها ، بينها وبين السقوط أو الانحراف فى أية ناحـية ، ذلك لأن الشئ الذى يكون فى مـركز شىء آخـر منتـشر انتشـاراً متوازناً ، ويكون هو نفسـه متزناً ، لن ينحـرف بأية درجة فى أى اتجاه ، بـل سيظل ملازماً لحـالة بعينها دون أن يحيد . ذلك هو أول رأى لى .

فقال سمياس : وهو بغير شك رأى صحيح .

- كذلك أعـتقد أن الأرض فسـيحة جداً ؛ وأننـا ، نحن الذين نقيم فى المنطقة التى تمتد من نهر فاسيس Phasis إلى أعمدة هرقليس Pillars of Heracles ، بمحـاذاة البـحـر ، إنما تشـبـه النمل أو الضـفـادع احتشدت حـول مستنقع ؛ فلسنا نأهل إلا جزءاً ضئيـلاً ، وأعتقد أن كثيراً من الناس يقـيمون فى أمكنة كثيرة كـهذه . فلابد من القول بأن هنالك فـجـوات فى أنحـاء الأرض جـميـعـاً ؛ مـختلفـاً أشكالهـا وحجومها ، يتجمع فيها الماء والضباب والهواء ؛ وأن الأرض الحقيقية أرض نقيـة تقيم فى الـسماء النقـية حـيث سائر النجـوم - تلك هى السماء التى يجرى عنها الحديث عادة بأنها أثير ؛ وليس الأثير منها إلا إرساباً يتجمع فى فجواتهـا وأما نحن الذين نقيم فى هذه الفجوات ؛ فنظن مخدوعين بأننا إنما نقيم على سطح الأرض ، كما يخيل للكائن

الذى فى قاع البحر بأنه على سطح الماء ، وبأن البحر هو السماء التى يرى خلالهـا الشمس وسائر النجوم - فـهو لم يَطْفُ على سطح الماء قط لوهنه وفتوره ؛ ولم يرفع رأسه ليـرى ، ولا سمع دهره ممن شهد تلك المنطقة الثـانية ، وهى أشد نقاء وجمـالاً من منطقتنا . والآن ، فتلك حـالنا تماماً . فنحن مـقيمـون من الأرض فى فجـوة ،ونخيل لأنفسنا أننا على السـطح ، ونطلق على الهواء اسم السمـاء ثم نتوهم أن النجوم سابحة فى تلك السماء . ولكن ذلك أيضاً يرجع لما بنا من ضعف وفـتور ، فـهما اللذان يحـولان بيننا وبين الصعـود إلى سطح الهواء : فلـو استطاع إنسان أن يبـلغ الحد الخارجى . أو أن يسـتعـير جناحى طائر ليطير بـهـما صعدا فـيكون كالـسمكة التى تطل برأسـها لتشهد هذا العالم ، إذن لرأى عالماً قـاصياً ، ولاعترف الإنسان إذا ما شحذت طبـيعته من بصره ، بأن ذلك هو مكان الســماء الحق والضوء الحق والنجـوم الحق ، لأن هذه التـربة وهذه الصـخـور بل وكل هذه المنطقة التى تحيط بنا قـد فسدت وتأكلت كما يتآكل مـا فى البحر من أشياء بـفعل الماء الأجاج ، فيندر فى البـحر أن ينمو شىء نمواً رفـيعاً كاملاً ، فكل ما فيه شقـوق ورمال وحمأة لا نهاية لها من الطين ، لا بل يجـوز أن نقـرن البر بمـا فى ذلك العالـم من مناظر هى أروع فى جمالها ، فالعالم الآخر أسمى بدرجة عظيمة جداً . والآن أستطيع أن أقص عليك يا سمياس حكاية رائعة عن تلك الأرض العليا التى تحت السماء ، وهى جد جديرة بالإنصات .

فأجاب سمياس : ونحن يا سقراط يسرنا أن نصغى .

قال : الحكاية يا صديقى كما يأتى : فأولاً إذا نظرت إلى الأرض من أعلى ورأيتها تشبه إحدى هذه الكور التى تكسوها أغشية من الجلد فى اثنتى عشرة قطعة ، وهى مختلفة الألوان ، فليس ما يستخدمه المصورون فى هذه الدنيا من الألوان إلا مثال منها ، أما هنالك فالأرض كلها مصبوغة بها ، وهى أشد لمعاناً ونصاعة من ألواننا ، فثم أرجوانى عجيب الرونق ، وثم ذهب يتألق والأبيض فى أرضها أنصع من كل ثلج أو طباشير . تلك الأرض مصبوغة بهذه الألوان وغيرها ، وهى أكثر عدداً وأروع جمالاً مما وقعت عليه عين الإنسان ، والفجوات نفسها (التى كنت أتحدث عنها) يغمرها الهواء والماء ، فتراها كالضوء الوامض بين سائر الألوان ، وبها لون خاص بها يخلع على تباين ما فى الأرض نوعاً من التآلف . وكل شئ مما ينمو فى هذه المنطقة الجميلة - أشجاراً وأزهاراً وفاكهة - أجمل - من أضرابه هنا ؛ وثم تلال ، صخورها أشد صقلاً ، وأكبر شفافية ، وأجمل لوناً - بنفس الدرجة - مما تغلو بقدره عندنا من زمرد وعقيق ويشب وسائر الجواهر التى إن هى إلا نثرات منها ضئيلة ، فالأحجار كلها هنالك كأحجارنا الكريمة ، بل أروع منها جمالاً ؛ وعلة ذلك أنه نقية ، وأنها لم تفسدها ولم تَبْرِها العناصر الملحة الفاسدة ، كما فعلت بأحجارنا الكريمة ، تلك العناصر التى خثرت عندنا فتولد منها الدنس والمرض فى التراب وفى الصخور على السواء . كما تولدا فى الحيوان والنبات ، تلك هى جواهر الأرض العليا ، وفيها كذلك يسطع الذهب والفضة وما إليهما ، وليست

تلك الجواهر بخافية عن العين ، هى كبير وكثيرة ، وتوجد فى مناطق الأرض جميعاً ، فطوبى لمن يراها . ويعيش فوق الأرض ناس وحيوان ، منهم من يستوطن إقليماً داخلياً ، ومنهم من يسكن حول الهواء ، كما نسكن نحن حول البحر ، ومنهم من يسكن فى بلد يتاخم القارة ، ويهب حوله الهواء . وجملة القول إنهم يستخدمون الهواء كما نستخدم نحن الماء والبحر ، وللأثير عندهم ما للهواء عندنا ؛ هذا وحرارة فصولهم هى بحيث لا يعرفون معها مرضاً ، فيُعمرون أطول بكثير مما نعمر نحن ، ولهم بصر وسمع وشم ، وسائر الحواس كلها ، وهى أعظم كمالاً من حواسنا بنفس الدرجة التى بها الهواء أنقى من الماء ، أو الأثير أصفى من الهواء . كذلك له معابد وأماكن مقدسة فيها يقيم الآلهة حقاً ، فهم يسمعون أصواتهم ويتلقون إجاباتهم ، وهم يشعرون بهم ويديرون بينهم وبين أنفسهم أطراف الحديث ، وهم يرون الشمس والقمر والنجوم كما هى فى حقيقة أمرها ، وعلى هذا النحو كل ما هم فيه من أسباب النعيم .

تلك هى طبيعة الأرض كلها ، وما حول الأرض من أشياء ، وفى الفجوات التى على ظهر الأرض أصقاع متباينة ، بعضها أعمق وأوسع من فجوتنا التى نقيم فيها ، وأخرى أعمق وأضيق فوهة منها ، وبعضها أوسع وأقل عمقاً، وتربطها جميعاً بعضها ببعض ثقوب عدة مرات عريضة وضيقة فى باطن الأرض . وهنالك يتدفق فيها ومنها - كما يتدفق فى الأحواض- تيار عظيم من الماء ، وثم مجار ضخمة لأنهار تحت الأرض لا ينقطع

جريانهـا ، وينابيع حارة وباردة ، ونار عظيمـة ، وأنهار كبـيرة من النار ، ومجار من طين سائل ، منها الرقيع والسميك (كأنهار الطين فى صقلية وما يتبعهـا من مجارى الحمم) فتغمر المناطق الـتى تتدفق حولها . وهنالك فى باطن الأرض نوع مـن الذبذبة يحـرك هـذا كله إلى أعلى وإلى أسـفل ؛ والحركة الآن فى هذا الاتجـاه ، وبين الفجوات هوة هى أوسعها جـميعاً ؛ تنفذ خلال الأرض كلها ؛ وهى التى وصفها هوميروس بهذه الكلمات :

«إن أغور عمق تحت الأرض جد سحيق» .

وقد أطلق عليهـا فى مواضع أخرى اسم جهنم ، وكذلك فعـل كثير غيـره من الشعـراء . وسبب الـذبذبة هو تلك الأنهار التى تتـدفق فى هذه الهوة ومنها ، ولكل منهـا طبيعة التربة التى تجرى فيـها ، وإنما كانت تلك الأنهار دائمة التدفق دخولاً فى الهـوة وخروجاً منها لأن عنصر الماء ليس له قاع ولا مسـتقر ، وهو يعج ويهـتز صعوداً وهبـوطاً ، وهكذا تفعل الريح والهواء المحيطان به ، إذ همـا يتبعان الماء فى صعوده وهبـوطه وفى اندفاعه فوق الأرض هنا وهناك ، مثل ذلك الشهيق والزفير لا ينقطعان حين نتنفس الهواء ، وباهتزاز الرياح تبعاً للماء دخـولاً وخروجاً نشأت عنها العواصف المروعة القاصـفة : فإذا ما تراجـعت المياه مندفعة إلى الأجـزاء السفلى من الأرض - كما تسمى - انسكبت فى تلك المناطق خلال الأرض وغمرتها ، كمـا يحدث إذا تحركت مضـخة الماء الحركـة الثانية ، فـإذا ما خلفت تلك المناطق وراءها وكرت إلى هنا مندفـعة ، فإنها تملأ ما هنا من فـجوات مرة

أخرى ، حتى إذا امتلأت، هذه ، فاضت تحت الأرض فى قنوات لتلتمس سبيلها إلى أمكنتها العديدة ؛ فتكون بذلك البحار والبحيرات والأنهار والينابيع ، ومن ثم تفور فى الأرض ثانية ، فيدور بعضها دورة طويلة فى أراض فسيحة ، ويذهب بعضها إلى أمكنة قليلة وإلى المواضع القريبة ، ثم تهبط مرة أخرى إلى جهنم ، فيبلغ بعضها حداً دون ما كان ارتفع إليه بمقدار كبير ، ولا يهبط بعضها الآخر دون ذلك الحد هبوطاً كثيراً ، لكنها جميعاً تكون أوطأ من نقطة الانبثاق إلى حد ما ، ثم ينهمر بعضها ثانياً فى الجانب المقابل ، وينهمر بعضها الآخر فى الجانب نفسه ، ويدور بعضه حول الأرض فى ثنية واحدة أو فى عدة ثنايا تشبه حنايا الثعبان ، وتنزل ما استطاعت النزول ، ولكنها دائماً تعود فتصب فى البحيرة ، أما الأنهار التى على كلا الجانبين فلا تستطيع النزول إلى أبعد من المركز ، لأن فى الجانب المقابل لهذه الأنهار هاوية .

فهذه الأنهار عديدة وقوية ومنوعة ، منها أربعة رئيسية أعظمها وأقصاها نحو الخارج هو ذلك المسمى بالأقيانوس oceanus الذى يجرى فى دائرة حول الأرض ، ويسير فى الاتجاه المضاد له نهر أشيرون Acheron الذى يجرى تحت الأرض فى ربوع جدباء حتى يصب فى بحيرة أشيروزيا Acherusian Lake : هذه البحيرة التى تذهب إلى شواطئها أرواح الدهماء حين يدركهم الموت ، حيث يلبثون أجلاً مضروباً ، يكون طويلاً لبعضها قصيراً لبعضها الآخر ، ثم تعود ثانية لتحل فى جسوم

الحيـوان . وينبع النهر الثـالث فيـما بين ذينك النهـرين ، وهو يصب على مقربة من منبعه فى منطقة شـاسعة من النار ، حيث يكون بحيرة أوسع من البحـر الأبيض المتوسط ، يغـلى فيهـا الماء والطين ، ثم يخرج منـها عكراً مليئـاً بالوحل ، فيدور حـول الأرض حتى يبلغ من مواضع أطراف بحـيرة أشيروزيا ، ولكنه لا يخـتلط بمائها ، وبعد أن يتحـوى فى عدة ثنايا حول الأرض ، يغوص إلى جهنم أدنى مما كان مستوى . هذا هو نهر بيرفليجثون Pyriphlegethon - كما يسـمى - الذى يقذف فى كل مكان بفوات من النار . ويخرج النهـر الرابع فى الجهة المـقابلة ، ويسقط أول مـا يسقط فى منطقة همـجية مـتوحشة ، تصـطبغ كلها باللون الأزرق القاتم الذى يشـبه حجر اللازورد ، وهذا النهـر هو ما يسمى نهر ستيـجيا Stygian River وهو يصـب فى بحـيرة سـتكس Styx التى يكونّهـا ، وبعد أن يصب فى البحيرة ويستمد لمائه قوى عـجيبة ، يجرى تحت الأرض ، دائراً حولها فى اتجـاه يضاد نهـر بيـرفليجثون ، ويلتـقى بـه فى بحيرة أشيـروزيا من الجهة المقابلة ، ولا يختلط ماء هذا النهر أيضاً بغيره ، بل يجرى فى دائرة ويتدفق في جهنم ، مقابلاً لنهر بيرفليجثون ويسمى هذا النهر كوكيتوس Cocytus كما يقول الشاعر .

تلك هى طبـيعـة العالم الآخـر ، فلا يكاد الموتى يصلون إلى حـيث شياطينهم وحداناً حتى يقضى فى أمرهم بادئ ذى بدء إن كانوا أنفقوا الحياة فى الخير والتقوى أم لا ، فمن ظهـر منهم أن حياتهم لم تكن لا إلى الخير

ولا إلى الشر ، فإنهم يذهبون إلى نهر أشيرون ، ويركبون ما يصادفونه من وسائل النقل ، فيُحملون فيها إلى البحيرة حيث يقيمون ويطهرون من أوزارهم ، ويعانون جزاء ما أساءوا به للناس من أخطاء ، ثم يُغتفر لهم وينالون جزاء وفاقاً بما قدمت أيديهم من خير . أما أولئك الذين لا يرجى لهم إصلاح ، فيما يظهر ، لفداحة ما أجرموا ، أولئك الذين أوتوا من الآثام المنكرة شيئاً كثيراً ، كتدنيس المعابد ، وإزهاق الأنفس إزهاقاً خبيثاً عنيفاً أو ما أشبه ذلك - أولئك يلقى بهم فى جهنم لا يخرجون منها أبداً ، فهى لهم أنسب مصير . أما هؤلاء الذين أجرموا إجراماً لا يجل عن العفو على هوله - أولئك الذين قسوا على والد أو والدة مثلاً وهم فى سورة من الغضب ثم أخذهم الندم مدى ما بقى من حياتهم ، أو الذين قتلوا نفساً مدفوعين بظروف تخفف من جرمهم - هؤلاء يلقون فى جهنم ولزام عليهم أن يصلوا عذابها حولاً ، وفى نهايته تقذف بهم الموجة : أما قاتل النفس فتقذف به إلى مجرى نهر كوكيتس ، وأما قتلة الآباء والأمهات فإلى نهر بيرفليجيثون - فيحملون إلى بحيرة أشيروزيا حيث يرفعون عقائرهم صائحين بضحاياهم القتلى ، أو بمن نالتهم منهم إساءة ، عسى أن تأخذهم بهم رحمة فيتقبلوهم ويسمحوا لهم بالخروج من النهر إلى البحيرة . فإن نالتهم الرحمة من أولئك ، خرجوا ونجوا من عذابهم ، وإن لم يرحموهم حملوا إلى جهنم مرة أخرى ، ومنها إلى الأنهار ، وهكذا دواليك حتى يظفروا ممن أساءوا إليهم بالرأفة ، فهكذا قضى عليهم قضاتهم . أما من

امتازت حياتهم بالتقوى ، فأولئك يطلق سراحهم من هذا السجن الأرضى ، فينطلقون إلى عليين حيث يقيمون فى مقامهم الطاهر ويعيشون على تلك الأرض وهى أنقى ؛ وأما أولئك الذين طهروا أنفسهم حقاً بالفلسفة فهم يعيشون منذ الآن متحللين من أجسادهم فى منازل أجمل من تلك ، يعجز عنها الوصف ويضيق الوقت أن أحدثكم عنها .

إذن يا سمياس ، وقد رأيت هذه الأشياء كلها ، فماذا ينبغى لنا ألا نفعله لكى نظفر بالفضيلة والحكمة فى هذه الحياة ؟ ألا إن الجزاء لجميل والأمل لعظيم !

لست أريد أن أقطع بصدق الوصف الذى قدمته عن الروح ومنازلها - فكما ينبغى لرجل ذى فطنة أن يقطع بهذا ، ولكنه فى رأيى حقيق وقد اتضح خلود الروح أن يجازف بالظن ، لا خاطئاً فيه ولا عابثاً ، أن يكون الصواب شيئاً كهذا ، وإنه منه لظن عظيم ، ولابد له أن يسرى عن نفسه بمثل هذه الكلمات ، فمن أجلها أطلت حكايتى ، ولهذا أوصيكم ألا يأخذ أحد على روحه الأسى ، مادام قد طرح زينة الجسد ولذائذه ، واعتبرها غريبة عنه ، بل هى أدنى إلى إيذائه بما تجر وراءها من أثر ، وما دام فى هذه الحياة قد تعقب لذة المعرفة ، إلا أن أولئك الذين يزينون أرواحهم بلآلئها الصحيحة ، وهى : الاعتدال والعدل والشجاعة والنبل والحق - أولئك تكون أرواحهم ، إذا ما زينت بتلك اللآلئ ، مهيأة للرحيل إلى العالم الأدنى حين يدركها الموت ، فأنتم أى سمياس وسيبيس ، ويا سائر

الرجال ، سترحلون فـي وقت قـريب أو بعيد . أما أنا ، فهاهو ذا ينادينى صوت الـقدر على حـد قول شاعـر المأساة ، ولابـد أن أجرع السم عـما قريب ، ويجمل بى فيمـا أظن أن أذهب أولاً إلى الحمّام حتى لا يشق على الناس غسلُ جسمانى بعد موتى .

فلما أن فـرغ من الحديث قال أقـريطون : أعندك ما تشيـر علينا به يا سقراط ؟ ألـديك ما تقوله عن أطفالك ، أو عن أى شىء آخـر نستطيع أن تعنيك فى أمره ؟

فقـال : ليس عندى شىء بعـينه : غيـر أنى أحب لكم ، كمـا كنت أحدثكم دائماً ، أن تعـنوا بأنفسكم ، فذلك فضل تستـطيعون أن تواصلوا أداءه لى ، ولذوى ولنا جمـيعـاً . ولا ينبغى لكم أن تكونوا أدعـياء فيـما تقولون ، لأنكم لو جهلتم أنفـسكم وصدفتم عما أوصـيتكم به ، وليست هذه أول مرة أوصيكم فيها فلن تجدى عليكم حماسة الادعاء شيئاً .

قال أقريطون: سنبذل جهدنا، ولكن كيف تريدنا أن نواريك الثرى؟

على أى وجـه تشـاؤون ، غـيـر أنه لابد لـكم أن تمسكوا بى ، وأن تحذروا فلا ألوذ منكم بالفرار . ثم التفـت إلينا وأضاف باسماً : لا أستطيع أن أقنع أقريطون أننى سقـراط ذاته الذى كان يتحدث ويوجه الحـوار ، فهو يحسبنى سقراط الآخر الذى سيشهده بعد حين جثة هامدة - وهو يسائل : ماذا عـسى دفنى أن يكون ؟ مع أنى قد أفضت فى الحـديث محاولاً إقـامة الدليل علـى أنى مُـخلِّفكم حين أجـرع السم ، حـيـث أتوجـه إلى لذائذ

أصحاب النعيم - ويظهر أنه لم يكن لحديثى هذا الذى سرّيت به عن أنفسكم وعن نفسى ، أثر فى أقريطون ، لذلك أريدكم أن تكونوا لى الآن عنده كفلاء ، كما كان هو كفيلى عند المحاكمة : على أن يختلف وعدكم عما وعد ، فقد كان كفل للقضاة أنى سأبقى ، ولكن عليكم أن تكفلوا لى أنى غير باق ، بل إنى ظاعن راحل ، فتقل بهذا لوعته عند موتى ، ولا يُحزنه أن يرى جثمانى يحترق أو يهال عليه التراب . إنى لا أحب له أن يتحسر على جدى العاثر ؛ بأن يرتاع لدفنى ؛ فتأخذه الحيرة : على هذا النحو نكفن سقراط ؛ أو هكذا نشيعه إلى القبر أو نواريه التراب . إن الأقوال الباطلة ليست شراً فى ذاتها فحسب ، بل إنها لتصيب الروح بشرها . لا تحزن إذن . أى عزيزى أقريطون ، وقل إنك لا تقبر منى إلا الجثمان ، فاقبره على النحو الذى جرى به العرف ، وكما تفضل أن يكون.

ولما فرغ من هذه العبارة ، نهض ودخل غرفة الحمام ، يصحبه أقريطون ، الذى أشار إلينا بأن ننتظر ، فانتظرنا نتحدث ونفكر فى أمر الحوار وفى هول المصاب ، لقد كنا كمن ثكل فى أبيه ، وأوشكنا أن نقضى مابقى من أيامنا كالأيتام ، فلما تم اغتساله جىء له بأبنائه - (وكانوا طفلين صغيرين ويافعاً) كما وفدت نساء أسرته ، فحادثهن وأوصاهن ببعض نصحه ، على مسمع من أقريطون ، ثم صرفهن وعاد إلينا .

ها قد دنت ساعة الغروب ، فقد قضى داخل الحمام وقتاً طويلاً ،

وعاد بعد اغتساله فجلس إلينا ، ولكن لم نُفض فى الحديث وماهى إلا أن جاء السجان ، وهو خادم الأحد عشر ، ووقف إلى جانبه وقال : لست أتهمك يا سقراط بما عهدته فى غيرك من الناس ، من سورة الغضب ، فقد كانا يثورون ويصيحون فى وجهى حينما آمرهم باجتراع السم ، ولم أكن إلا صادعاً بأمر أولى الأمر . أما أنت فقد رأيتك أنبل وأرق وأفضل ممن جاءوا قبلك إلى هذا المكان ، فليس يخامرنى شك أنك لن تنقم علىّ ، فليس الذنب ذنبى ، كما تعلم ، إنما هى جريرة سواى . وبعد فوداعاً ، وحاول أن تحتمل راضياً ما ليس من وقوعه بد ، وإنك لعليم فيم قدومى إليك . ثم استدار فخرج منفجراً بالبكاء .

فنظر إليه سقراط وقال : لك منى جميل بجميل . فسأصدع بما أمرتنى به . ثم التفت إلينا وقال ، يا له من فاتن ! إنه ما انفك يزورنى فى السجن ، وكان يحادثنى الحين بعد الحين ، ويعاملنى بالحسنى ما وسعته . انظروا إليه الآن كيف يدفعه فضله أن يحزن من أجلى ؛ فلزام علينا يا أقريطون أن نفعل ما يريد . مر أحداً أن يجيء بالقدح إن كان قد تم إعداد السم ، وإلا فقل للخادم أن يهيئ شيئاً منه .

فقال أقريطون : ولكن الشمس لا تزال ساطعة فوق التلاع ، وكثير ممن سبقوك لم يجرعوا السم إلا فى ساعة متأخرة بعد إنذارهم . إنهم كانوا يأكلون ويشربون وينغمسون فى لذائذ الحس فلا تستعجل إذن ، إذ لا يزال فى الوقت متسع .

فقـال سقراط : نعم يا أقـريطون لقد أصاب مـن حدثتنى عنهم فيـما فعلوا ، لأنهم يحسـبون أن وراء التأجيل نفعـاً يجنونه ، وإنى كذلك لعلى حق فى ألا أفعل كـما فعلوا ؛ لأننى لا أظـن أنى منتفع من تأخيـر شراب السم ساعـة قصيرة . إننى بذلك إنما أحـتفظ وأبقى على حياة قـد انقضى أجلها فعلاً ، إنى لو فعلت ذلك سـخرت من نفسى . أرجو إذن أن تفعل بما أشرت به ولا تعص أمرى .

فلما سمع أقريطون هذا أشـار إلى الخادم فدخل ، ولم يلبث قليلاً أن عـاد يصحـبه السجـان يحمل قـدح السم ، فـقال سقـراط : أى صديقى العزيز ، إنك قـد مرنت على هذا الأمر ، فـأرشدنى كيف أبدأ : فـأجاب الرجل : لا عليك إلا أن تجول حتى تثقل ساقاك ثم ترقد ، فيسرى السم، وهنا ناول سقـراط القدح فـحدق فى الرجل بكل عينـيه ، يا أشكراتس ، وأخذ القدح جريئاً وديعاً لم يُرَع ولم يمتقع لون وجهه . هكذا تناول القدح وقال : ما قـولك إذا سكبت هذا القدح لأحد الآلهة ، أفـيجـوز هـذا أم لا يجوز ، فأجاب الرجل : إننا لا نُعدُّ يا سقراط إلا بمقدار ما نظنه كافياً، فقال : إنى أفهم ما تـقول ، ومع ذلك فيحق لى بل يجب على أن أصلى للآلهـة أن توفـقنى فى رحلتى من هذا العـالم إلى العـالم الآخـر - فلعل الآلهة تهبنى هذا ؟ فهو صلاتى لها . ثم رفع القدح إلى شفتيه وجرع السم حتى الثمالة رابط الجأش مغتـبطاً وقد استطاع معظمنا أن يكبح جماح حزنه حـتى تلك الساعـة ، أما وقـد رأيناه يشـرب السم ، وشهـدناه يأتى على

الجرعة كلها ، فلم يُعد فى قوس الصبر منزع ، وانهمر منى الدمع مدراراً على الرغم منى ، فسترت وجهى وأخذت أندب نفسى ، حقاً إنى لم أكن أبكيه بل أبكى فجيعتى فيه حين أفقد مثل هذا الرفيق . ولم أكن أول من فعل هذا ، بل إن أقريطون وقد ألفى نفسه عاجزاً عن حبس عبراته ، نهض وابتعد ، فتبعته ، وهنا انفجر أبو لودورس الذى لم ينقطع بكاؤه طول الوقت بصيحة عالية وضعتنا جميعاً موضع الجبناء ، ولم يحتفظ بهدوئه منا إلا سقراط . فقال : ما هذه الصرخة العجيبة ؟ لقد صرفت النسوة خاصة حتى لا يسئن صنيعاً على هذا النحو ؛ فقد خبِّرت أنه ينبغى للإنسان أن يسلم الروح فى هدوء ، فسكوناً وصبراً .

فلما سمعنا ذلك ؛ اعترانا الخجل وكفكفنا دموعنا ؛ وأخذ سقراط يتجول حتى بدأت ساقاه تخوران - كما قال - ثم استلقى على ظهره ؛ كما أشير له أن يفعل . وكان الرجل الذى ناوله السم ينظر إلى قدميه وساقيه حيناً بعد حين ؛ ثم ضغط بعد هنيهة على قدمه بقوة وسأله هل أحس فأجاب أن لا ؛ ثم ضغط على ساقه وهكذا صعد ثم صعد ، مشيراً لنا كيف أنه برد وتصلب ، ثم لمس سقراط نفسه ساقيه وقال : ستكون الختمة حين يصل السم إلى القلب فلما أخذت البرودة تتمشى فى أعلى فخذيه كشف عن وجهه ، إذ كان قد دثر نفسه بغطاء ، وقال : (وكانت هذه آخر كلماته) إننى يا أقريطون مدين بديك لاسكلبيوس Asclepius فهل أنت ذاكر أن ترد هذا الدين ؟ فأجاب أقريطون أنه سيوفى الدين ثم

سأله إن كنت لديه رغبة أخرى ولم يكن لهذا السؤال من جواب ؛ وما هى إلا دقيقة أو دقيقتان سُمِعت حركة ، فكشف عنه الخادم ، وكانت عيناه مفتوحتين ، فأقفل أقريطون فمه وعينه .

هكذا يا أشكراتس قضى صديقنا الذى أدعوه بحق أحكم من قد عرفت من الناس ؛ وأوسعهم عدلاً وأكثرهم فضلاً .

الفهرس

رقم الايداع ١٠٨٩٠ /٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7276 - 6





بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما يبدو لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حينما تبلور وتطور، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامى وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى، كما أسعدنى كل التقدير لاحتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلقفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

لقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل، ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة فى مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الابن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

وما زالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وجانبًا للثقافة، وتوالى مكتبة الأسرة إصداراتها للعام الثامن على التوالى، كشفت دائمًا عن جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



٢٠٠ قر

مهرجان القر